

طه حسين

دراسة النظريات ونقدها



د. قاسم إبراهيمي پور

تعريب

حسن علي مطر

طه حسين

دراسة النظريات ونقدها





رؤى نقدية معاصرة

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية
بجامعة الزيتونة

طه حسين

دراسة النظريات ونقدها

تأليف

د. قاسم إبراهيمي پور

تعريب

حسن علي مطر



بور، قاسم ابراهيمي، 1973- مؤلف.

طه حسين : دراسة النظريات ونقدها / تأليف د. قاسم ابراهيمي بور ؛ تعريب حسن علي مطر.- الطبعة الاولى.- النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، 1447 هـ. = 2026.

240 صفحة : 21x15 سم. (رؤى نقدية معاصرة : 12)

يتضمن إرجاعات بيبليوجرافية : صفحة 237-240.

النص باللغة العربية مترجم من اللغة الفارسية.

ISBN : 9789922680910

1. طه حسين، 1889-1973. أ. الهاشمي، حسن علي مطر، 1968- مترجم. ب. العنوان.

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
الفهرسة أثناء النشر



رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣١٢) لسنة ٢٠٢٦ م

طه حسين، دراسة النظريات ونقدها (رؤى نقدية معاصرة - ١٢)

تأليف: د. قاسم ابراهيمي بور

تعريب: حسن علي مطر

الناشر: العتبة العباسية المقدسة / المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

الطبعة: الأولى، ١٤٤٧ ق / ٢٠٢٦ م

www.iicss.iq

islamic.css@gmail.com

المحتويات

٩	مقدمة المركز.....
	الفصل الأول: المسائل العامة:
١١	المقدمة.....
١٧	السابقة التاريخية.....
١٧	الدراسات العربية حول طه حسين.....
١٩	الأعمال النقدية حول آراء طه حسين.....
٢٣	الإطار النظري للبحث.....
٢٣	١. العناصر المعرفية.....
٢٤	٢. العناصر الفردية.....
٢٥	٣. العناصر السياسية.....
٢٥	٤. العناصر الثقافية الاجتماعية.....
	الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية:
٢٩	السيرة الذاتية.....
٣١	الخصائص الفردية.....
٣٦	السيرة العلمية.....
٤١	مواصلة الدراسة في فرنسا.....
٤٣	التدريس في الجامعة.....
٤٥	الخلفيات الاجتماعية.....
٤٦	المواجهة مع الغرب.....
٤٧	النسبة التاريخية لمصر مع الغرب القديم والحديث.....
٥٠	الخلفيات السياسية.....
٥٠	الاستبداد.....
٥٣	الاستعمار.....
٥٨	التيارات والأحداث السياسية.....
٥٩	الخلفيات الاقتصادية.....
٦١	الأنشطة العلمية والتوجهات النقدية.....

٦٤	١ . السيرة الذاتية لطف حسين بقلمه
٦٤	٢ . الأعمال القصصية والروائية
٦٥	٣ . الأعمال المترجمة
٦٥	٤ . الأعمال النقدية والاتجاه النقدي
٦٦	النقد الأدبي
٦٨	النقد الاجتماعي
٧٠	نقد التراث في ضوء الاتجاه الحديث

الفصل الثالث: الأسس المعرفية لطف حسين

٧٥	اتجاه طه حسين
٧٧	التحليلات الاجتماعية
٧٩	الاتجاه النقدي
٨٤	المباني الأنطولوجية
٨٨	المباني المعرفية والإبستمولوجية
٩٠	النسبة بين العلم والثقافة
٩٠	الموقع النبوي التأسيسي للدين
٩٧	النسبة بين المعرفة والمجتمع
١٠٠	تأثير البيئة في طريقة التفكير
١٠١	تأثير التفكير في البيئة
١٠٣	الشكّ الصوري
١٠٤	الاتجاه نحو النزعة الظاهرية
١٠٥	تلخيص ونقد

الفصل الرابع: فكر طه حسين

١٠٩	المقدمة
١٠٩	بيان الأوضاع الراهنة في مصر
١١٠	هوية مصر وأركانها
١١١	مسألة النظام التعليمي
١١٢	موضوع تعلّم اللغة
١١٥	التخلف وأسبابه
١٢٤	التعامل غير المناسب بين الدولة والنظام التعليمي
١٢٥

المحتويات ❖ ٧

١٤٤	بعض مصاديق الانحطاط في مصر
١٤٥	تلخيص ونقد
١٤٦	البحث عن بداية الانحطاط في التراث
١٤٧	شرح أحداث ثورة عام ٣٥ للهجرة
١٤٨	الاتجاه النظري في تفسير أسباب الثورة
١٤٩	تبويب الأسباب
١٤٩	الاتجاه التلفيقي
١٤٩	الاتجاه الانتقادي في بحث سياسة الخليفة
١٥٠	أسلوب بيان أسباب الثورة وتحليلها
١٥١	الأسباب الاعتقاديّة
١٥٥	الأسباب السياسيّة
١٦١	الأسباب الاقتصاديّة
١٦٥	الأسباب الفرديّة
١٧٠	الأسباب الاجتماعيّة
١٨٠	العوامل الخلفيّة
٢٠٧	خاتمة ونتائج
٢٠٩	طرق الحلّ للخلاص من التخلف
٢١٠	عصر نهضة (اغتراب) مصر
٢١٧	الإصلاحات الاجتماعيّة
٢٢٢	إصلاح التعامل بين الدولة والثقافة
٢٢٣	التنسيق بين المراكز التعليميّة
٢٢٥	توسيع دائرة التعليم الابتدائي
٢٢٧	تأسيس معاهد إعداد المعلمين
٢٢٩	الاستثمار المهادف في حقل التعليم
٢٣٠	تأسيس الشورى التعليميّة
٢٣١	إشراف الدولة على التعليم العام
٢٣٣	خلاصة ونقد
٢٣٧	المصادر

مقدمة المركز

يُعدّ المشروع الفكري لطفه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م) واحداً من أبرز المشاريع الإشكاليّة في الفكر العربي الحديث، حيث تداخل فيه الأدب بالتاريخ، والنقد بالاجتماع، والهوية الثقافية بالرهانات السياسيّة. فقد شكّل هذا المشروع علامةً فارقة في مسار النهضة العربيّة المعاصرة، بما أثاره من جدل واسع حول قضايا التراث، والتحديث، والعلاقة بالغرب، وإشكاليّات التعليم، والتخلّف، والنهضة. ومن هنا جاء اهتمام المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية بتقديم هذه الدراسة النقديّة المتخصّصة، لتكون إسهاماً في إعادة قراءة الفكر العربي الحديث والمعاصر في ضوء معايير معرفيّة صارمة ورؤية نقديّة متوازنة.

لقد نظر طه حسين إلى الواقع المصري والعربي من خلال زاوية ثقافيّة حديثة متأثرة بالمدرسة الغربيّة، فرأى أنّ مفتاح التقدّم يكمن في إصلاح التعليم وتعميمه، وفي إعادة صياغة العلاقة بالتراث صياغة نقديّة، بحيث يُعاد إنتاج الماضي وفق معايير العقل الحديث. غير أنّ هذا المنهج الذي استند إلى النزعة الشكّيّة الديكارتية وإلى تصوّرات الوضعية في الاجتماع والتاريخ، أفضى إلى قراءات مثيرة للجدل؛ سواء في موقفه من القرآن والسنة، أو في تفسيره لأحداث صدر الإسلام، أو في أحكامه على الشخصيات التاريخيّة الكبرى، فضلاً عن مواقفه من التراث الأدبي العربي الذي كثيراً ما قاسه بمقاييس النقد الغربي الحديث.

إنّ هذا الكتاب، الذي نقدّمه اليوم إلى القارئ العربي، لا يقتصر على عرض أفكار طه حسين ومؤلفاته، بل يتجاوز ذلك إلى مساءلة الأسس المعرفية والأنطولوجية والإبستمولوجية التي انطلق منها، وإلى فحص الخلفيّات السياسيّة والاجتماعيّة

والثقافية التي أسهمت في تشكيل وعيه. فهو دراسة علمية ترصد جدلية العلاقة بين الفكر والواقع، وتستقصي كيفية انعكاس الصراعات الحضارية الكبرى - بين الشرق والغرب، وبين التراث والحداثة - في كتابات طه حسين ومواقفه.

إنّ ما يميّز هذا العمل أنّه لا يقف عند حدود التوصيف أو السرد التاريخي، بل يسعى إلى تقديم قراءة نقدية تحليلية، تتعامل مع مشروع طه حسين بوصفه نموذجاً كاشفاً عن آليات التفاعل بين النخبة الثقافية العربية والحداثة الغربية. ومن هنا، فإنّ هذه الدراسة لا تهدف إلى الإدانة ولا إلى التمجيد، بل إلى الفهم والتفكيك، وإلى تبين مواطن القوّة والضعف في المشروع، والكشف عن نتائجه البعيدة على الثقافة العربية المعاصرة.

وقد ارتأى المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية نشر هذا الكتاب انطلاقاً من رسالته العلمية في تعميق البحث النقدي حول قضايا الفكر العربي والإسلامي الحديث، وتقديم الدراسات التي تسهم في بناء وعي معرفي أصيل. إنّ دراسة طه حسين ليست بحثاً في شخصه فحسب، بل هي نافذة لفهم المسار المعرفي والثقافي للأمة في مرحلة مفصلية من تاريخها الحديث، وما زالت تداعياتها ممتدة إلى يومنا هذا. وبهذا، فإنّنا نقدّم هذا الكتاب إلى القراء والباحثين والمهتمين بالدراسات الفكرية والنقدية، آمليين أن يكون إضافة نوعية إلى المكتبة العربية، وأن يفتح آفاقاً جديدة للنقاش العلمي الرصين حول قضايا التراث، والحداثة، وما يرتبط بها من أسئلة المصير والهوية في العالم العربي والإسلامي والله وليّ التوفيق.

السيد محسن الموسوي

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، فرع قم

الفصل الأول: المسائل العامّة

المقدمة

لقد كان التخلّف المادّي في العالم الإسلامي، وبيان أسباب هذا التخلّف، وتقديم الحلول من أجل الخروج من هذه الحالة، من بين الأمور التي حظيت باهتمام كثير من المفكرين. وإنّ النظريات المطروحة في هذا الشأن على أنواعٍ مختلفة؛ فهناك منها ما يقترح التبعية المحضة لنماذج التنمية الغربية، ومنها ما اقترح الابتعاد والهروب وأحياناً محاربة الغرب، وهناك من ذهب - من خلال البحث النقدي للنماذج الغربية - إلى انتخاب نقاط القوة، ونبذ نقاط الضعف في الغرب، والعمل على طرح النماذج المحلية والوطنية في هذا الشأن. وكان طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣ م) واحداً من المفكرين الذين ينتمون إلى الطائفة التي تبنت النظرية الأولى بنحو عام.

ومن الناحية الاجتماعية، اتّجه بعض المفكرين - عبر تبني المنظور السياسي - إلى البحث في أسباب التخلّف، محاولين تشخيص نوع النظام الحاكم وبيان سبل الخروج من هذه الحالة، وهناك من أعطى الأولوية في هذا الشأن إلى الاتجاه الاقتصادي، وهناك طائفة أخرى اختارت الاتجاه الثقافي.

وقد شكّلت ظاهرة التخلّف في العالم الإسلامي، وفي المقابل ظاهرة التقدّم في

العالم الغربي، هاجسًا لدى هذا المفكر المصري الذي شهد أولى بوادر المواجهة التي أخذت بالاحتدام بين الغرب والعالم الإسلامي. إنّه من خلال اتّخاذ الاتجاه الثقافي، صار يبحث في مختلف الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن خلال هذا الاتجاه وضع إصلاح النظام التعليمي على سُلّم أولوياته؛ وذلك لأنّه يرى أنّ الطريق نحو التقدّم وتحقيق عصر النهضة العربية الإسلامية، يحتاج إلى إحداث التحوّل في الأهداف والتطلعات الاجتماعية، وتحقيق الوعي التاريخي وإعداد النسل المستنير، وأن تتحقّق هذه الأمور مجتمعةً رهنًّ بإحداث التحوّل في النظام التعليمي.

إنّ طه حسين — الذي درس على يد دوركهيم، وكان شديد التأثير بالزرعة الشكّية لرينييه ديكرات — قد جعل من التراث الإسلامي موضوعًا لاهتمامه بنظرةٍ حديثة. وقد عمد إلى نقد أسلوب قراءة التراث، وعدّ التفاهر بالماضي ضربًا من الأوهام. وقد تعرّض في كتابه (في الشعر الجاهلي) إلى بحث التراث الإسلامي في ضوء النقد الأدبي الحديث. إنّ التراث في رؤية علم الاجتماع السائد يُعدّ ترجمةً لكلمة (tradition)، ويعني أسلوبًا من السلوك والعمل الذي يستند إلى سابقةٍ تاريخيةٍ، وقد ترسّخ بشكلٍ مستقرٍّ وعميقٍ في الذهنية المشتركة للمجتمع بفعل الممارسة والتكرار. إنّ الأرضية المعرفية للتراث من هذه الزاوية ليست شيئًا آخر سوى المعرفة الحسية العاطفية التي تتحقّق بفعل ممارسة الأعمال وتكرارها.

وفي مقابل التراث يقع التجديد والحداثة التي تتماهى مع الحقيقة المتحوّلة والمتغيّرة للإنسان والعالم، والتي تؤدّي في نهاية المطاف إلى التراث الغالب. إنّ هذا التعريف للتراث ينسجم مع الأنطولوجيا المادية والمعرفة الحسية والعلمية التي

تتنظم حول محور المعطيات التجريبية على شكل نظريات قابلة للإثبات أو الإبطال، وما إلى ذلك. في هذه الرؤية تمّ التنبؤ بموت السنّة بشكلٍ سابق، كما تمّ التبشير في نهاية المطاف بظهور أمرٍ متجددٍ على خلافها. إنّ هذا التعريف يعمل على إطلاق رصاصة الرحمة على التراث حتى لو كان فيه أملٌ في الحياة، ويتركه جثّة هامدة على قارعة الطريق، بحيث لن يكون مصيرها سوى الزوال والاضمحلال^١.

إنّ كثيراً من المستنيرين قد قبلوا بهذا المعنى من التراث، بيد أنّ التراث من وجهة النظر الدينية يرادف الدين والشريعة، ويتطابق مع الإرادة التشريعية لله ﷻ. إنّ التراث نمطٌ من الحياة والعيش لا يمكن للعقل وحده أن يتكفّل بمعرفته، بل هناك تدخلٌ من الوحي والشهود في بيانه والتعريف به أيضاً. إنّ الإنسان المحروم من الشهود الإلهي لا يمكنه معرفة التراث إلّا بوساطة العقل والنقل فقط. إنّ التراث أسلوبٌ من أساليب العمل والسلوك الذي يقوم على أساسه إصلاح معاش الإنسان ومعاده، ويصل بوساطته إلى السعادة والفلاح^٢.

وقد كان طه حسين يستخدم التراث بكلا هذين المعنيين؛ فهو من جهةٍ يطالب بعصر نهضةٍ وتجديدٍ في مصر، ومن جهةٍ أخرى يسعى إلى إعادة قراءة التراث الديني في تمايز بنيوي بالنسبة إلى سائر المؤسسات الاجتماعية مثل السياسة. وقد سعى في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر ١٩٧٣م)، إلى تحديث وتجديد الثقافة والتعليم في مصر. وفي كتابيه (الفتنة الكبرى)، و(مرآة الإسلام)، سعى إلى إعادة إنتاج القيم

١. پارسانيا، سنت، ايدثولوژي، علم، ٢٠ - ٢٣.

٢. م. ن، ٣٠.

الأخلاقية للإنسان الحديث ضمن الأدبيات القصصية والمآثر التاريخية في عالم الإسلام.

يُصَفُّ طه حسين في أعماله بالضعفة والخضوع التام تجاه الغرب ونظريات المفكرين الغربيين. ويعدُّ الشعر والأدب العربي في قبال الشعر والأدب الغربي ضعيفاً وهزياً، ويتنقده الآراء الاجتماعية لأمثال ابن خلدون بالقياس إلى آراء عالم الاجتماع الفرنسي دوركهايم. وهو يدعو إلى تجديد وتحديث مصر بشكل كامل. إنَّ الحدائثة التجديد يمثلان مصطلحاً جامعاً للثقافة والحضارة الغربية^١، يتعلقان بأساليب من الحياة أو المؤسسات الاجتماعية التي ظهرت في أوروبا منذ القرن السابع عشر للميلاد فما بعد، ثم بسطت سيطرتها على العالم بالتدريج^٢. إنَّ الإشراف على المعلومات والرقابة الاجتماعية والقوة العسكرية والثورة الصناعية، وبالتالي الرأسمالية (تراكم الثروة والإنتاج التجاري التنافسي)، تعدُّ من الأبعاد التأسيسية للحدائثة والتجديد^٣.

إنَّ الحدائثة ثقافةٌ وحضارةٌ تُعرض — من خلال تأصيل الحياة الدنيوية في هذا العالم — عن الأبعاد المقدَّسة والمتعالية للوجود، وبالمقارنة مع نفي القداسة عن العالم تصرَّح جهاراً بإنكار الأصول والقواعد الثابتة للوجود، وتعدُّ الأصول الثابتة نتيجة للمعتقدات المقدَّسة في العالم، مع أنَّ الحدائثة في أعمق طبقاتها الوجودية تستفيد

١. پارسانيا، أنواع وأدوار روشنفكري بانگاہ به روشنفكري حوزوي، ٢٣.

٢. گیدنز، پیامدهای مدرنیت، ٤.

٣. م. ن، ٧٢.

الفصل الأول: المسائل العامة ❖ ١٥

من مبادئ وأصول ثابتة! ومن بين الأصول الثابتة لها في البُعد الأنطولوجي هو العلمانية أو الدنيوية والنظر إلى هذا العالم بوصفه أمرًا دنيويًا، وهي في البُعد الأثرولوجي إنسانيةً، وتعمل على تأصيل الإنسان الدنيوي الذي يعيش في هذا العالم، كما أنّها في البُعد الإستمولوجي عبارة عن التنوير. إنّ التنوير — بما هو ركنٌ أصيلاً في الإستمولوجيا الحديثة — لا يؤمن بالوحي والشهود بوصفها مصدرًا معرفيًا، وبعد غلبة الشك تخلى عن مدّعياته في معرفة العالم، وتقيّد بحدود علم المعرفة وقيوده. والحداثة تختزل مفهوم العلم، بوجه عام، بما هو قابل للاختبار والتجربة فقط^١.

بيد أنّ هذه الأبعاد للحداثة في المواجهة الأولى مع العالم الإسلامي قد وقعت موردًا للغفلة من قبل بعض المفكرين من أمثال طه حسين. إنّ هذه الطائفة من المفكرين الذين وضعوا تجديد العالم الإسلامي على سلّم أعمالهم وأولوياتهم، لم يكونوا يدعون إلى التخلي عن الدين صراحةً، ولكنهم كانوا يخططون إلى إعادة قراءة الدين والدعوة إلى فصل الدين عن السياسة. إنّ طه حسين لا يرى الدين سماويًا، ويعمل على نقد القرآن الكريم بوصفه كتابًا أدبيًا، ويعدّ القرن الهجري الثاني هو قرن الشكّ والفجور. وعلى الرغم من مدّعياته الكثيرة القائمة على تصفية التفكير والثقافة الغربية، إلاّ أنّه يعتنق حضارة الغرب بقضها وقضيضها بما تشتمل عليه من الخير والشر، ويعمل على تأويل وجود إبراهيم وإسماعيل، وهجرتهما إلى شبه الجزيرة العربية وإقامة بناء الكعبة، ويعتبر فتح المسلمين لمصر غزوًا استعماريًا من قبيل الغزو

١. پارسانيا، أنوع وأدوار روشنفكري بانگاه به روشنفكري حوزوي، ٢٤-٢٥.

الاستعماري الرومي والفارسي والإنجليزي على حدّ سواء^١. وهو بوصفه مولعًا بحب الغرب إلى أقصى الحدود يرى أنّ طريق التكامل يكمن في الذوبان في هذا الغرب. وكان يؤمن بالديمقراطية ويعارض الخلافة، وكان يعتقد بالفصل بين المؤسسات والفصل بين الدين والسياسة، ويؤمن بسنّ القوانين وإرساء الدعائم الثقافية. وكان طه حسين يذهب الى الاعتقاد بأنّ مصر تندرج ضمن زمرة المجتمعات الغربية بالكامل؛ وذلك لأنّه كان يرى أنّ مصر قد تأثرت على الدوام بروما القديمة خصوصًا وبالغرب عمومًا، وكان يعدّ الإمبراطورية العثمانية العقبة الكأداء الوحيدة التي تحول دون تجديد مصر. وحيث كان حاصلًا على شهادة الدكتوراه في الأدب، وكان من جهةٍ مطلعًا على أساليب النقد الأدبي، ومن جهةٍ أخرى على دراية بأفكار ابن خلدون، فقد عدّ مسألة الخلافة بوصفها نقطة بداية التحوّل والسبب المهم والمؤثر في التخلّف المادي للمسلمين، وقد سعى إلى بيان الوضع الراهن في مصر من خلال الدراسة التاريخية، وبيان الواقع الاجتماعي للخلافة في صدر الإسلام، والأحداث المهمة الأخرى من قبيل مقتل الخليفة الثالث.

يصل عدد مؤلّفات طه حسين إلى أكثر من خمسين مجلدًا، وهي تتراوح ما بين الأعمال الأدبية، والكتب والمقالات التاريخية والتحليلية. وقد عمد إلى تحليل ومناقشة التراث الإسلامي والأبحاث الاجتماعية والثقافية بأسلوب انتقادي، وقد وضع مسألة تخلّف العالم العربي عمومًا وتخلّف مصر خصوصًا — في ضوء الاتجاه الاجتماعي التاريخي — نصب عينيه، ومن خلال تأصيل الحواضن السياسية عمد

١. الجندي، محاكمة فكر طه حسين، ١٠ - ١١.

الفصل الأول: المسائل العامة ❖ ١٧

إلى بيان موضوع الخلافة في صدر الإسلام وشرح الأحداث التي أفرزتها. وسوف نسعى في هذه الدراسة إلى بحث ونقد مشروعه الفكري - ولا سيّما بيانه حول عدم تقدّم مصر وطرق الحلّ التي يقترحها للخروج من هذه الحالة - بأسلوب معرفي.

السابقة التاريخية

لقد تنوّعت الأعمال التي اتخذت من فكر طه حسين موضوعًا لبحثها، فبعضها تناول بالدراسة والتحليل أبحاثه الأدبية، أو توجّهاته في كتابة التاريخ، أو تأثيره بالمنهج الديكارتّي. وبعضها الآخر تناول نظرياته وأساليبه وإشكالاته في تفسير القرآن، بينما انصرف قسمٌ منها إلى مناقشة آرائه الاجتماعية، سواء في ما يتعلّق بمسألة الخلافة، أم الأحداث المفصلية في صدر الإسلام، أم في قراءته للواقع المصري الراهن. كما ركّزت بعض الدراسات على نقد آرائه ومواقفه في الميادين الأدبية والاجتماعية والسياسية.

الدراسات العربية حول طه حسين

لقد ألّف الأستاذ الدكتور عباس علي السوسوة (١٩٧١ م)، كتاب (دراسات لسانية بالمنهج التاريخي) في بيان الاتجاه التاريخي لطله حسين. كما ألّف خيرى شليبي (حوالى عام ١٩٧٣ م)، أحبّ كتبه إليه بعنوان (محاكمة طه حسين). وقال في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه: «إنّ شهرته قد طبقت الآفاق بالفعل. لا يمرّ وقتٌ يقصر أو يطول إلّا وأقرأ مقالاً عنه هنا أو هناك من المحيط إلى الخليج، وحتى في بلاد الفرنج... ففي أكثر من صدفة تقع في يدي جريدة أو مجلة أجنبية، فأجد على صفحةٍ منها كلاماً كثيرًا

يتوسطه غلاف هذا الكتاب...». وقد عمد المؤلف في هذا الكتاب إلى وصف الجدل المحترم بسبب كتاب (في الشعر الجاهلي) لطله حسين في عقد العشرينات من القرن العشرين للميلاد، وشرح تفاصيل محاكمته سنة ١٩٢٦ م. وقد ورد في تقريره أنّ بعض علماء الأزهر الشريف وسائر المؤسسات الدينية الأخرى قد تقدمت بالدعوى عليه لدى المحاكم بسبب كتابه في الشعر الجاهلي، وساقوا أربعة أدلةٍ لاتهمه بالإلحاد، وحرمانه من الحقوق الجامعية وإلغاء حقه في التدريس.

لقد أشار خيرى شلبي في هذا الكتاب إلى تحقيقات النيابة العامة بشأن أزمة طه حسين، وقام بجمع كلمات المدّعين عليه التي ورد تقريرها في مضبطة التحقيق، ثم عمل على تحليل استجواب مؤلّف كتاب (في الشعر الجاهلي). وبطبيعة الحال فإنّ خيرى شلبي قد عبّر عن استغرابه من أنّ يمثّل شخصٌ مثل طه حسين أمام المدّعي العام في الدولة؛ ليتمّ استجوابه في تهم منسوبة إليه. والأعجب من ذلك أنّ الاتهامات الموجهة إليه هي من السنخ الفكري^١. ثم قام بعد ذلك بدراسة وتقرير طريقة بحث قضية طه حسين وأدلة المدّعين ومرافعة النائب العام.

وقد بحث عاطف العراقي في كتاب (ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة)، زوال المجتمع التقليدي من وجهة نظر طه حسين. وقد أشار البدر اوي زهران (١٩٨٢ م) في كتابه (أسلوب طه حسين في ضوء الدرس اللغوي الحديث) إلى أسلوب كتابة طه حسين وتأثره الأسلوبى واقتباساته اللفظية من نص القرآن الكريم في كتاب الأيام. وقد بحث مصطفى عبد الغنى (١٩٨٩ م) في كتابه

١. خيرى، محاكمة طه حسين، ٣٨.

طه حسين وثورة يوليو: صعود المثقف وسقوطه)، التطوّرات والتناقضات الفكرية لطه حسين. كما بحثت مرضية كهندل جهرمي و غلام رضا كريمي فرد (١٣٩٦هـ.ش)، في مقالة (تطوّر النقد عند طه حسين)، تحوّل أساليب النقد الأدبي عند طه حسين وتاريخ النقد الأدبي في العالم الإسلامي. وقد بحث علي قاسم محمد الخرابشة (٢٠١٢ م) في كتابه (المناهج النقدية في دراسات طه حسين النقدية)، الأساليب النقدية في المشروع الفكري لطه حسين.

ويعدّ كتاب (من أعلام النقد العربي الحديث والمعاصر دراسة في المنهج)، عبارة عن سلسلة محاضرات الأستاذ الدكتور محمد لخضر زبادية (٢٠١٧ م)، التي بحث فيها آراء طه حسين بالإضافة إلى بيان الاتجاه النقدي في العالم العربي.

الأعمال النقدية حول آراء طه حسين

لقد سعى أنور الجندي في كتابه (محاكمة فكر طه حسين) إلى جمع كافة الانتقادات الواردة على أعمال طه حسين. وقد عمد في هذا الكتاب إلى توجيه واحدٍ وثلاثين تهمة إلى طه حسين، ثم عمل بعد ذلك على محاكمته عليها. وقد قام في الباب الأول من هذا الكتاب تحت عنوان (الأدب العربي واللغة العربية) بتخصيص أحد عشر فصلاً في نقد ومناقشة آراء طه حسين. وفي الباب الثاني تحت عنوان (تاريخ الإسلام والسيرة)، قام بنقد أعمال طه حسين ضمن ستة فصول. وفي الباب الثالث قام بدراسة ونقد (الفكر الإسلامي) ضمن سبعة فصول.

وقام محمود مهدي الإسطنبولي (١٤٠٣ هـ)، في كتابه (طه حسين في ميزان العلماء والأدباء) بجمع آراء كثيرٍ من العلماء والمفكرين حول نقد مؤلفات وأعمال

طه حسين. ويمكن الإشارة من بين هذه الأعمال إلى (نقد كتاب في الشعر الجاهلي) لمؤلفه ناصر الدين الأسد، و(نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر)، بقلم زكي مبارك ومحمد محمد حسين، و(نقد كتاب الشيخان) بقلم محمد عمر توفيق، و(نقد كتاب على هامش السيرة) بقلم غازي التوبة، و(نقد كتاب الأربعة بقلم) رفيق العظم، و(نقد كتاب مع المتنبي)، بقلم محمود محمد شاكر، و(نقد كتاب الفتنة الكبرى) بقلم غازي التوبة، و(نقد كتاب من بعيد) بقلم غازي التوبة، و(طه حسين في ميزان التشكيك) بقلم إبراهيم عبد القادر المازني، و(جهل طه حسين بمنهج ديكرت) بقلم محمد أحمد الغمراوي، و(إصلاح المعاهد الدينية والدكتور طه حسين) بقلم محمد خضر حسين، و(طه حسين في أحضان الاستشراق) بقلم أنور الجندي، و(مظاهر علاقة طه حسين بالفكر الفرنسي) بقلم الأب كمال قلّة، و(الحضارة الغربية في ميزان طه حسين ومحمد إقبال ومفكري العرب) بقلم محمد مهدي الإسطنبولي، و(جهالات طه حسين) بقلم أحمد محمد جمال.

وفيما يتعلّق بالأعمال الموجودة في الردّ على كتاب (في الشعر الجاهلي) لطله حسين، يمكن لنا أن نشير إلى كلمات الشيخ محمد الخضري^١.

إنّ كتاب (المعركة تحت راية القرآن) من تأليف مصطفى صادق الرافعي، يُعدّ من الكتب المعروفة في نقد كتاب (في الشعر الجاهلي)، وقد تمّ تأليفه بأسلوبٍ لاذع. كما يُعدّ كتاب (النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي) لمؤلفه محمد أحمد الغمراوي، وكتاب (بعث الشعر الجاهلي) لمؤلفه محمد الخضر حسين، من جملة هذه الأعمال أيضًا.

الفصل الأول: المسائل العامة ❖ ٢١

ويُعد كتاب (الشهاب الراصد) لمؤلفه محمد لطفي جمعة، وكتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) لمؤلفه محمد فريد وجدي، وكتاب (محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية في كتاب في الشعر الجاهلي) لمؤلفه محمد الحضري، وكتاب (النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي)، لمؤلفه محمد أحمد العراوي، و(مقدمة في كتاب الرافي: كتابة التاريخ لا تكون بالافتراض ولا بالتحكم)، لمؤلفه شكيب أرسلان، من بين الأعمال الصادرة في موضوع الردّ على كتاب (في الشعر الجاهلي) لطفه حسين^١.

وقام علي قاسم محمد الخرابشة (٢٠١٢ م) في كتابه (المناهج النقدية في دراسات طه حسين النقدية)، بدراسة الأساليب الغربية التي ظهرت في مستهل القرن العشرين للميلاد في أعمال بعض المفكرين من أمثال: ميخائيل نعيمة، وطه حسين، ومحمود عباس العقاد، وإبراهيم المازني، ومحمد النويهي. ويمكن ملاحظة تأثير ذلك في منهج وأسلوب النقد الأدبي لطفه حسين في كتاب (في الشعر الجاهلي). وقد عدّ الأبعاد النقدية لطفه حسين — بسبب الحجم الكبير للدراسات التي قام بها في مختلف الحقول الأدبية والنقدية — حاذقة وعميقة وذات أبعادٍ متعدّدة.

وقامت محبوبه بادريستاني (٢٠١٥ م) في كتاب (طه حسين في نقد كتاب في الشعر الجاهلي)، ببحث ودراسة الموضوع والشواهد التاريخية وأسلوب طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي)، وقد وصلت إلى نتيجة مفادها: أنّ طه حسين قد اتبع المنهج الديكارتي في هذا الكتاب.

١. الجندي، محاكمة فكر طه حسين، ١٤٨.

وقد عمد عباس علي السوسوسة (١٩٧١ م) في كتاب (دراسات لسانية بالمنهج التاريخي)، وعاطف العراقي في كتاب (ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة)، إلى بحث ومناقشة زوال المجتمع التقليدي من وجهة نظر طه حسين. وقد قامت مرضية كهندل جهرمي مع غلام رضا كريمي فرد (١٣٩٦ هـ ش)، في مقالة (تطور النقد عند طه حسين)، بتتبع تحول الاتجاه النقدي في المسيرة العلمية لطله حسين. وقد ذهبوا إلى الاعتقاد بأن الناقدين العرب في بداية القرن العشرين للميلاد قد انقسموا في النقد الأدبي إلى مدرستين رئيسيتين، وهما: المدرسة القديمة التي تقوم بالنقد اللغوي، والمدرسة الحديثة التي تتعرض إلى التجربة الشعرية والتصوير الفني. وهما يريان أن طه حسين يعدّ من طلائع المدرسة الثانية. إن طه حسين منذ بداية القرن العشرين للميلاد، ومن خلال البدء بالبحث في مورد المسائل الفكرية والحضارية والسياسية الجديدة، حيث كان قد سلك اتجاهًا عقلائيًا، فقد أدّى دورًا كبيرًا في ثقافة مصر، وخاض كثيرًا من النزاعات والصراعات مع المعاصرين له. إن دراسة حياة ومسيرة طه حسين تثبت أن نشاطاته العلمية قد انطلقت من خلال النقد الأدبي والآراء النقدية الحديثة التي ذكرها والأعمال النقدية الكثيرة التي كان لها دورٌ في تأسيس المذهب النقدي الحديث في نقد الأدب العربي. وقد قدّم جلال أميني (١٣٩٣ هـ ش) أطروحةً علميةً بعنوان (ترجمة كتاب «من أعلام النقد العربي الحديث والمعاصر، من طلائع النقد العربي الجديد») الذي هو سلسلة محاضرات علمية لمحمد لخضر زبادية؛ قدّم فيها نظراتٍ حول بعض كبار النقد العربي المعاصر، وحدّد فيه أوائل الكتابات ونماذج التجديد وطلائع

النقد العربي الجديد، مع تقديم رؤيةٍ شاملةٍ حول معطياتهم الأدبية. وقد تعرّض في هذا الكتاب إلى دراسة الأساليب العلمية لبعض الناقدين العرب المعاصرين ومصادرهم الفكرية. من قبيل: مناقشة مدرسة العودة الأدبية ورموز هذه المدرسة من أمثال: أحمد مرصفي، وجرجي زيدان، ومصطفى صادق الرافعي، والتعرّف على جهود الباحثين الناقدين التجديديين وأساليب النقد العربي المعاصر، وبعض رموز هذه المدرسة من أمثال: أحمد ضيف، وطه حسين، ومحمد مندور، حيث يمتلك كلّ واحدٍ منهم أسلوبه الخاص في البحث الأدبي. وقد تعرّض محمد لخضر زبادية (٢٠١٧ م) في كتابه بعنوان (من أعلام النقد العربي الحديث والمعاصر، دراسة في المنهج)، إلى نقد منهج طه حسين.

الإطار النظري للبحث

إنّ المنهجية المنبائية هي المنهجية التي ترى أنّ المسألة هي نقطة بداية العلم، وتعدّ العناصر المعرفية الفردية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية مؤثّرة في تبلور المسائل والنظريات العلمية بنسبتين: نسبة داخلية، ونسبة خارجية^١.

١. العناصر المعرفية

إنّ منهج المعرفة المنبائية لا يعدّ جميع أنواع المعرفة واقعة تحت تأثير المجتمع بمقدار واحد. إنّ المعارف الشهودية بالإضافة إلى المعارف الحسية والجدلية والخطابية، وكذلك الاختلافات الفردية في الأبعاد التحفيزية والخصائص الشخصية في مختلف

١. پارسانيا، «نظريه وفرهنگ».

الثقافات، تمنح الاتجاه المذكور هذه الظرفية الاستيعابية للقول بالمعارف الخالصة وما بعد الثقافية.

وفيمَا يتعلّق بالمعارف المتأثرة بالمجتمع في ضوء النسبة الداخلية أو الخارجية، تبحث كذلك — من خلال الاتجاه النقدي — في صدق أو كذب المنهج المعرفي وآفاته وعيوبه^١.

٢. العناصر الفردية

إنّ بؤر اهتمام الأفراد بدورها تقع — من وجهة نظر المنهجية البنائية — تحت تأثير المجتمع أيضًا؛ وذلك لأنّ بؤرة الرغبات أو المسألة بوصفها نقطة انطلاق العلم تعدّ ظاهرة تتبلور بفعل عدم التهاهي ضمن مجموعة ثقافية؛ ولهذا السبب فإنّها تعدّ أمرًا نسبيًا وتاريخيًا^٢.

إنّ التواصل والتعاطي العلمي بين العلماء، ولا سيّما بين الأشخاص من ذوي التوجهات المختلفة يعدّ عنصرًا أساسيًا في خلق الحوافز وازدهار الطاقات؛ وذلك لأنّ تلاقح الأفكار يعدّ عنصرًا مهمًا في تطوير العلم، ولا يمكن لذلك أن يتحقّق إلا في ضوء التواصل بين العلماء والمفكرين. ومن هنا يتعيّن على العلم أن يستفيد من عنصر التواصل الفكري سواء في حقل النماذج المبرمجة أم في حقل النماذج غير المبرمجة^٣. ويمكن لهذا الارتباط والتواصل العلمي أن يتمّ عبر قراءة أعمال

١. م. ن، ٤٨.

٢. م. ن، ٥٥.

٣. م. ن، ٤١.

العلماء والمفكرين الآخرين، أو من طريق التخاطب وتبادل الرسائل أو المناظرات والمشاركة في المؤتمرات والندوات العلمية والتعليمية.

٣. العناصر السياسية

إنّ العناصر السياسية والاقتصادية تؤثر في العلم عادة على نحو تركيبي. وبطبيعة الحال فإنّ العنصر السياسي - بسبب حاجة الحكومات سوف يكون له - سوف يكون له في العلم تأثيرٌ جادٌ ومستقلٌ أيضًا؛ بيد أنّ تأثير العناصر السياسية في الثقافة من وجهة نظر المنهجية المبنائية يكون متفاوتًا في الثقافات المختلفة. إنّ الثقافة الدنيوية كما تتبع الاتجاه الحسي في طبقاتها العميقة، تتجه في الوقت ذاته نحو تقدّم الإرادة الإنسانية على الحقيقة والعلم أيضًا، وتعمل بالتدريج على بسط سيطرة السياسة على البنية الداخلية للمعرفة العلمية^١.

٤. العناصر الثقافية الاجتماعية

يذهب بعض علماء الاجتماع إلى الاعتقاد بأنّه ليس بمقدور أيّ منتجٍ ثقافي بشري أن يتمّ تحليله بشكلٍ مناسبٍ من زاوية فاقدة لعنصر الزمن^٢. ومن هذه الزاوية تمّ الاهتمام بالبعدين الاجتماعي والثقافي في المعطيات الذهنية. وفي الأبعاد الاجتماعية يتمّ بحث المنزلة، والطبقة، والجيل، والدور المهني، وطرق الإنتاج، والبنى الجماعية، والأوضاع التاريخية، والمصالح، والانتماء القومي، والنشاط الاجتماعي، وتركيبية

١. توكل، جامعه شناسي علم، ٣٣.

٢. پارسانيا، «نظريه و فرهنگ».

٣. مولكي، علم و جامعه شناسي معرفت، ٢٨.

السلطة، والمسارات الاجتماعية (التنافس والتضادّ وما إلى ذلك). وفي الأبعاد الثقافية يتم بحث القيم، والأخلاق والأوضاع الخاصة بالعقيدة، والروح الوطنية، وروح التاريخ، ونوع الثقافة، والذهنية الثقافية، والفلسفة الكونية وما إلى ذلك^١. كما أنّ النظام القيمي، والنظام التعليمي، والطبقات الاجتماعية تعدّ بدورها من بين أبعاد العناصر الثقافية والاجتماعية المؤثرة في المعرفة أيضًا.

كما أنّ النظرية — من وجهة نظر المنهجية المنبثقة — تستفيد بدورها من الخلفيات المعرفية والأرضيات الوجودية الأخرى التي تحتوي في الغالب على أبعادٍ تحفيزية وغير معرفية، بل إنّ تأثير هذا النمط من الخلفيات والأرضيات ليس بأقل من الأرضيات المعرفية. ولا بدّ من الالتفات بطبيعة الحال إلى أنّ تأثير الأرضيات المعرفية والدوافع والعناصر غير المعرفية الفردية والاجتماعية في تكوين النظريات العلمية في ظلّ الظروف والشرائط الثقافية والتاريخية المختلفة ليس واحدًا، وفي الحدّ الأدنى لا يتمّ الاعتراف رسميًا بهذه التأثيرات في جميع الظروف على وتيرة واحدة^٢. وعلى هذا الأساس فإنّ تأثير الأرضيات المعرفية يكون أكثر فاعليّة في الثقافات التي تعترف رسميًا بالحقائق العلمية بغض النظر عن المعرفة والوعي الفردي والاجتماعي، ويكون للتأملات العقلية والمدرجات الشهودية والوحيانية حضور حيّ بالنسبة إلى تلك الحقائق بين النخب العلمية. في هذا النوع من الثقافات تحافظ

١. عزيزاده وآخرون، جامعه شناسي معرفت: جستاري در تبیین رابطه ساخت و کنش اجتماعی

و معرفت های بشري، ٥٧-٥٨.

٢. پارسانیا، «نظريه وفرهنگ»، ٥٤.

الفصل الأول: المسائل العامة ❖ ٢٧

الخلفيات المعرفية على أفضليتها وتفوقها على الدوافع والعناصر غير المعرفية، ولكن في الثقافات – التي تذهب بسبب هويتها الدنيوية والعلمانية وتأثير النزعة الحسية فيها إلى تحديد وتقييد عالم الحقائق الذي هو ذات العالم الأول – تزيد مساحة تأثير العناصر غير المعرفية^١. ولكن لا يمكن الحديث في أيّ واحدةٍ من هذه الثقافات عن عنصرٍ حاكم؛ وذلك لأنّ الضغوط السياسية والاقتصادية والثقافية لا تسلب الإنسان حريته واختياره، وبالتالي فإنّ الفرد في نهاية المطاف هو الذي يحسم قراره في التماهي مع المجتمع أو مقاومته والوقوف بوجهه.

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية

إنّ المراد من الخلفيات غير المعرفية – كما أوضحنا في القسم الخاص بالإطار النظري – هو دراسة وبحث الخصائص الفردية، والأرضيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لتكوين نظرية طه حسين.

السيرة الذاتية

وُلد طه حسين في مصر سنة ١٨٨٩ م. وقد كان أبوه يعمل موظفًا في شركة زراعية، وكان يشجّع أولاده على طلب العلم. وكان رجلًا كريمًا وكثير السفر. وكان بيت والد طه حسين يستضيف كثيرًا من الناس؛ ابتداءً من شيوخ الطريقة إلى معلم الكتاب الذي كان يعلم طه حسين القرآن، وصولًا إلى المفتشين والعاملين في سلك الدولة حيث يصادف مرورهم في تلك القرية^١. وقد أدّى ذلك إلى أن يألف طه حسين الحضور الدائم في المجالس العامة، وأن يكون في بعض الأحيان موضعًا للاهتمام وتوجيه الأسئلة إليه، ومطالبتة بتلاوة القرآن الكريم في المجالس. بيد أنّ مقامه – بطبيعة الحال – لم يصل أبدًا إلى مقام أخيه الأكبر الذي كان يدرس في الأزهر الشريف. من ذلك – على سبيل المثال – أنّ أخاه كلما كان يعود من القاهرة

١. الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ٣٣٦.

إلى قريته، كان يحظى باستقبالٍ جماهيريٍّ عام؛ حيث يخرج إليه الناس ويلبسونه حُلَّةً فاخرةً، ويركبونه على حصان، وكانوا يواكبونه إلى حين وصوله إلى منبر المسجد الجامع لكي يلقي خطب الجمعة. إنَّ هذا النوع من الأمور كان قد شجَّع طه حسين وجعله يتوق بشكليٍّ أكبر إلى للدراسة في الأزهر الشريف.

لقد كان والد طه حسين ووالدته قد بايعا شيوخًا للطريقة في الشمال، وكان هذا الشيخ ينزل في كلِّ عامٍ ضيفًا عليهم ومعه المئات من المريدين، وكان هذا الأمر يرهق كاهل أسرة طه حسين ماديًّا ويضطرها إلى إنفاق أموال طائلة. وكان طه حسين يعدُّ هذا الرجل محتالًا، وكان والده على علم بذلك، ولم تكن أمه كذلك ترخَّب بحضوره في بيتها تمام الترحيب. وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ الإكثار من مجالسة أصحاب الطريقة كان قد ترك تأثيرًا على طه حسين وجعله يميل إلى العرفان والتصوِّف.

لقد استمع طه حسين منذ صغره إلى كثيرٍ من القصص، وكانوا قد قرأوا عليه كثيرًا من الكتب، ولكن أكثر ما شغل اهتمامه من بين جميع ذلك هو السحر والتصوِّف والعرفان، وقد لجأ عدَّة مرَّات إلى ممارسة الأذكار والأوراد من أجل الحصول على العصا السحرية التي سمع عنها في حكاية الحسن البصري، ولكن دون جدوى.

في عام ١٩٠٢م، شهدت مصر انتشارًا لجائحة فتكت بكثيرٍ من الناس، وحصدت أرواح العديد من السكَّان المصريين. وكان من بين ضحايا هذه الجائحة شقيق طه حسين، وهو شابٌ وسيِّمٌ وحنون لم يتجاوز الثامنة عشرة سنة وكان قد أكمل لتوّه دراسته في المرحلة الإعدادية وقد قبل للالتحاق بكلية الطب، وقد

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٣١

أدركه الأجل في يوم عيد الأضحى. لم ينس طه حسين آهات أخيه عند النزاع الأخير ونحيب والدته حزناً على ولدها اليافع أبداً. وقد تركت هذه الفاجعة — بالإضافة إلى موت أخته الصغرى قبل ذلك بقليل — أثراً لا يمحو في حياة طه حسين. لقد كان بكاء الوالدين وسائر أفراد الأسرة كلما جلسوا على مائدة الطعام، وذهاب الأسرة بجمعها إلى الجانب الآخر من نهر النيل لزيارة أهل القبور، قد تحوّل إلى عادة ثابتة تضاف إلى سائر العادات التي طبعت عليها حياة أسرة طه حسين.

وفي هذا الشأن كان طه حسين قد عاهد الله عز وجل أن يصلي الفرائض اليومية في كل يومٍ مرتين، وأن يصوم في كل سنةٍ شهرين، مرةً أصالةً عن نفسه ومرةً نيابةً عن أخيه، الذي مات بعد ثلاث سنواتٍ من بلوغه سن التكليف، ولم يكن — من وجهة نظر طه حسين — ملتزماً بالقيام بالأحكام الشرعية. لقد سهر طه حسين في الكثير من الليالي، وظلّ مستيقظاً إلى الصباح يتلو سورة الإخلاص لأخيه، ورأى عند نومه كثيراً من الكوابيس، وعاش لذلك حالة من الاضطراب.

الخصائص الفردية

لقد كانت بعض الأحداث التي وقعت في مرحلة طفولة طه حسين مهمة جداً، وقد تركت تأثيراً ملحوظاً في شخصيته وفي مستقبله العلمي.

إنّ تأثر طه حسين بجده الذي كان يحبي الليالي بالعبادة، والتخيلات والأوهام الطفولية بشأن تواجد الجنّ وطوافهم حول الدار وتقليدهم لأصوات الديكة، وتعرّضه للسخرية من قبل أخوته عند إسقاطه الطعام على ثيابه أثناء الأكل الأمر

الذي أصابه بعقدة الخجل من تناول الطعام أمام الآخرين^١. واستماع القصص من الحكواتيين وأصدقاء والده، وهمسات النساء المصريات ولا سيّما والدته، والتوجهات الصوفية لأهل القرية وجدّه، والأذكار والأدعية التي كان الآخرون يقرؤونها ويسمعها منهم، تعدّ من جملة هذه الأمور. وقد ترعرع طه حسين في ظلّ هذه الأجواء، وقد حفظ كثيرًا من الأساطير والمأثورات التاريخية^٢.

إنّ نمط حياة طه حسين، وإصابته بالعمى، ودراساته وأسفاره الكثيرة، قد جعلت منه شخصيةً فريدةً من نوعها. وكان يسوؤه أن يتعرّض للإهمال والاستهزاء من قبل الآخرين، ويمقت السؤال والطلب، وكانت له كثيرٌ من القراءات، ويتمتع بروح ناقدة. لم يكن طه حسين يطلب شيئًا من الآخرين أو يتوجّه لهم بالسؤال أبدًا؛ وذلك لأنّه كان يخشى من أن يوصف بالجهل أو الخوف، أو أن يتمّ انتهاره ولا يحصل على إجابة عن سؤاله. ولم يطلب من أحدٍ أبدًا أن يقرب له الطعام الذي كان على المائدة بعيدًا عن متناوله، ولم يسأل أخاه أبدًا أن يصحبه معه إلى الندوات والاجتماعات التي كانت تعقد في الأزهر الشريف، ولم يسأل أخاه أبدًا عن مصدر صوت العصا الذي كان يسمعه في منتصف الليل لعابر سبيل، أو أصوات الحشرات التي كانت تهجم عليه في الليالي الحالكة.

لقد كان طه حسين يطرب لصوت الناي والمزمار ويحب الغناء، وكان يأنس في قريته بهلاهل وزغاريد النساء القرويات في قريته ويصغي عندما يضربن في

١. طه حسين، الأيام، الفصل الرابع.

٢. م. ن.

الدفوف. وإنّ المتعة التي كان يحصل عليها عند سماعه لأصوات المزامير والغناء لم تكن بأقل من المتعة التي يحصل عليها حينما يحضر في الدروس التي كانت تلقى في الأزهر. وقد حدث ذات مرّة أن شهد الطابق الأعلى الواقع فوق حجرة لبعض الطلاب في الأزهر حفلة عرس، وارتفعت الأصوات هناك بالغناء والأهازيج والزغاريد والنفخ في المزامير، الأمر الذي امتعض منه كثيرٌ من الطلاب، واضطروا إلى ترك حجراتهم والخروج منها إلى أماكن بعيدة مثل المسجد وحجرات الأصدقاء الآخرين، في حين بقي طه حسن جامدًا في مكانه مستغرّبًا في سماع أصوات الموسيقى حتى نسي الطلاب والدرس والبحث وحتى وقت الطعام أيضًا.

ويبدو أنّه قد حفظ القرآن في الكتّاب عندما كان صغيرًا قبل أن يكمل السنة التاسعة من عمره، ولكنّه فشل في اختبار الحفظ. ومن بين أكثر خواطره مرارة أنّه على الرغم من تلقيه بالشيخ لحفظه القرآن الكريم بحسب الظاهر، إلاّ أنّه لم يتمكن في حضور أصدقاء والده من قراءة السور التي طلب منه قراءتها عن حفظ، الأمر الذي عرّضه للاحتقار من قبل معلم الكتّاب. وانخرط ثانية في زمرة الأشخاص الذين لم يتمّ تصنيفهم ضمن الحفاظ، ولم يحصلوا على لقب (الشيخ). وقد حدث ذلك في حياته مرارًا، حتى إنّ لا يمكن القول في نهاية المطاف بأنّه كان حافظًا للقرآن. بيد أنّ الممارسة والتكرار الكثير من قبله لآيات القرآن قد أدت إلى رسوخ مفاهيم الآيات ولا سيّما المسائل التاريخية للقرآن الكريم في ذهنه، وقد ساعده هذا الأمر كثيرًا في تأليف الآثار العلمية.

لقد كان طه حسين شديد الحبّ للقراءة. وفي عطلة الصيف — التي كانت تعد من أسعد الأوقات بالنسبة إليه — كان يغتنم فسحة الوقت ويشغلها بقراءة الأعمال المترجمة من اللغة الفرنسية والإنجليزية، وكذلك النصوص في مسائل تاريخ الأدب وتاريخ الحضارة، وكتابات يعقوب صروف في مجلة المقتطف، ورشيد رضا في صحيفة المنار، وكذلك أعمال قاسم أمين وعبد الله الذي كان يُعرف بـ (الإمام) أيضًا، ويقرأها بشغف عارم.

لقد أصيب طه حسين بمرضٍ عندما كان في الخامسة من عمره، وقد فقد على أثره حاسة البصر، وأخذ يعاني من العمى. وكان لذلك بحاجة إلى المساعدة من الآخرين في مواصلة الدراسة، وفي القراءة وفي تأليف الكتب، وفي كتابة المقالات. فكان على الدوام بحاجة إلى من يأخذ بيده في الطريق من المنزل إلى المدرسة في القاهرة، أو إلى من يرافقه في أسفاره إلى فرنسا. وإنّ الطريقة الوحيدة في قراءته للمصادر العلمية كانت تتم من خلال قراءتها عليه من قبل شخصٍ آخر، ولم يكن بمقدوره تأليف الآثار العلمية إلا بطريقة إملاء مطالبه على شخصٍ ليكتبها بدوره على الورق. يُضاف إلى ذلك أنّ توجيه الإهانات له من قبل الآخرين — ولا سيّما أساتذته — بسبب معاناته من العمى وفقدان البصر، كان يتسبب له بكثيرٍ من الأذى وقد ترك تأثيره فيه إلى حدّ كبير.

يحتاج الإنسان دائمًا إلى أن يكون محطّ اهتمام الآخرين ورعايتهم؛ ولذلك فإنّ تعرّضه للإهمال أو التجاهل أو النبذ والطرْد والسخرية والاستهزاء، يترك جرحًا كبيرًا وغائرًا في روح المرء ونفسه؛ ولهذا السبب نجد الإنسان يسعى أبدًا لكي

يتماهى مع الآخرين ليحصّن نفسه من التعرّض إلى هذا النوع من الأذى. ولكن طه حسين لم يكن بمقدوره تلبية هذه الحاجة عادة. ومن بين الأحداث التي تكررت في مرحلة طفولة طه حسين مرارًا، وكان لها أثرٌ ثابتٌ في روحه، أنّه كان بسبب عماء بحاجةٍ دائمةٍ إلى الآخرين ليأخذوا بيده وإرشاده إلى الطريق. بيد أن مختلف المرشدين سواء في القرية أم في الأزهر الشريف كانوا يأخذون بيده دون أن ينسوا بينت شفة، ويسحبونه بعنفٍ عند نقله من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، ثم يتركونه هناك. وقد عبّر طه حسين عن هذا النوع من المعاملة القاسية بنفسه بقوله: كانوا يتركونني كما لو كنت جسدًا بلا روح^١.

وعلاوةً على معاناته من الإهمال، كان طه حسين كثيرًا ما يتعرّض إلى السخرية والاستهزاء أيضًا. وقد أشكل ذات مرة في الدرس على أستاذه في الأزهر، وحيث لم يكن الأستاذ قادرًا على الجواب فقد استعاض عن ذلك بالسخرية منه وإضحاك الآخرين، وقد أدّى هذا الأمر إلى أن ينتقل في اليوم التالي إلى درس أستاذٍ آخر، وتكرّر معه هناك ذات الشيء أيضًا.

إنّ الامتناع عن شرب الماء وعدم تناول ما يكفي من الطعام في حضور الجمع، والوحدة في الليالي وفي ظلمة حجرات الأزهر وانتظار عودة أخيه الذي خرج من الحجرة للدرس أو المباحثة، والبكاء الذي ربما كان هذا الشقيق على علم به، ولكنّه لم يرقم أبدًا بالإعلان عن علمه به، قد أصاب طه حسين بعقد تمّ كتبها في مرحلة الطفولة، وكان يمكن لهذه العقد أن تترك أثرًا سلبيًا في شخصيته وفي مستقبله، ولكنها أدّت في الغالب إلى التصعيد.

١. طه حسين، الأيام.

وقد أحجم — مثل أبي العلاء المعري — عن السؤال والطلب، ولكنه — خلافاً له — لم يجبس نفسه في البيت، وأخذ يواصل الدراسة بجهدٍ وسعي تام، وأخذ ينتقد كل شيء، وأخذ يغيّر واقعه في النواحي الإيجابية.

السيرة العلمية

لقد بدأ طه حسين دراسته الابتدائية في الكتاب، بيد أن تحصيله العلمي العام لا يمكن حصره بالكتاب، بل كان كلما سنحت له الفرصة أخذ العلم من شقيقه الذي كان يدرس في الأزهر، أو من المفتش الزراعي الذي أقام في قريتهم لفترة من الزمن. وبدعمٍ مطلقٍ من أبيه في البيت والمدرسة وفي المسجد وفي بيت المفتش، ومجالس العلماء، وحلقات الذكر، أخذ يتعلم القرآن الكريم وأصول القراءة وقواعد الألفية وغيرها من المناهج الأخرى، ثم صار يفتخر في الكتاب على سائر الطلاب ويسخر من معلم الصبيان بسبب جهله بالمسألة الكذائية أو عدم معرفته بالقراءة والتجويد أو وجود إشكال في فهمه لتلك القاعدة. وقد ساعده تنوع الأشخاص الذين أخذ عنهم العلم على خلق أرضية الإبداع وتوفير القدرة لديه على نقد الآخرين.

لقد كان طه حسين شديد الرغبة والشغف بتحصيل العلم في الأزهر الشريف، بيد أن عدم وفاء الوالد عن غير قصد بعهوده المتكررة بشأن إرساله إلى القاهرة، كان قد دفع طه حسين إلى اليأس وعدم أخذ وعود والده وشقيقه على نحوٍ جاد، ولكن حدث في نهاية المطاف سنة ١٩٠٢م، أن توجه طه حسين برفقة أخيه إلى القاهرة وكان له من العمر في حينها ثلاث عشرة سنة، وأخذ يدرس هناك في الأزهر الشريف. وقد عاش هناك أوقاتاً عصيبة، فلم تكن نوعية الطعام في الأزهر مرغوبةً

بالنسبة إليه، إذ كان هذا الطعام عبارةً عن الخبز الذي كان يحتوي على حصيات ونشارة الخشب، بل حتى الحشرات أحياناً – وكانت عصارة الدبس الأسود هي الشيء الوحيد الذي يمكن تحلية الخبز بها – ثم إنّ القليل من اللبن الزبادي الذي كان يُضاف إلى قائمة الطعام أحياناً، كان أخوه الأكبر يأخذ حصته منه أيضاً. وقد كانت حجرته هناك ضيقه والطريق إليها مليئة بالحفر، ولم تكن مرصوفة، وكان يتعين عليه سلوك هذا الطريق يومياً من الحجرة إلى قاعة الدرس ذهاباً وإياباً، وقد شكّل له ذلك كله مصدر إزعاجٍ دائم. ولكنّه بطبيعة الحال بعد عودته إلى قريته الأم بعد ذلك بسنة، أخذ يختلق لوالديه صورة مثالية عندما سألاه عن وضعه في القاهرة، كي لا يتألماً أو يساورهما القلق بشأنه^١.

لقد حضر طه حسين دروس الحديث والنحو لمدة من الزمن، ثم شارك في اختبار بسيط ليثبت بحسب المصطلح حفظه للقرآن الكريم، وخضع كذلك للفحص الطبي، وتمّ قبوله بوصفه طالباً رسمياً في جامعة الأزهر. ليحضر لاحقاً في دروس أخرى من قبيل: الفقه والقراءة والمنطق.

وحيث كان شقيقه أكبر سنّاً منه، وقد سبقه في الانتساب إلى جامعة الأزهر، فقد كان ينفق جلّ وقته مع زملائه وأصدقائه، وكان طه حسين يضطر لذلك إلى المكث في حجرته المظلمة وحيداً، وأن يستمع إلى مختلف الأصوات وهي في معظمها أصوات ناشزة ومزعجة، و ينتظر فترةً طويلةً حتى يعود أخوه من أمسياته. ولكن بعد مجيء ابن خالته وتربه في أيام الطفولة إلى القاهرة وانتسابه هو الآخر إلى

الأزهر الشريف وانتقاله للعيش في ذات الحجرة التي يسكنها طه حسين، تنتهي مرحلة عزلته. وحيث كان مضطراً بسبب العمى إلى البقاء وحيداً في الحجرة لفترة طويلة، وأن يجلس على حصيرة قديمة خصّصت له، ولم يكن يتحرّك داخل الحجرة كثيراً، فقد أسعده حضور ابن خالته في ذات الحجرة كثيراً. فكان يسير معه في جميع الطرق المؤدية من حجرته إلى الأزهر الشريف ومكان عقد الدروس المتنوعة، وكانا يقضيان مسافة الطريق بالحوار والمزاح، وكان هذا الصديق الحميم — الذي كان في الحقيقة بمنزلة العين الباصرة لطله حسين — يصف له معالم البيئة التي يعيش فيها والطرق التي يسلكها.

وقد كانت هناك فائدة أخرى ترتبت على حضور هذا الصديق القديم. فلم يعد طه حسين يعاني من البقاء جائعاً. فعلى الرغم من الجراية القليلة التي كان يجريها عليهما أخوه الأكبر، كانا قد تمكنا من تدبير أمرهما والتخطيط للحصول على أنواع الأطعمة والمأكولات الشهية، من قبيل: ضروب الحلوى، والذرة والقمح المنقوع في اللبن، والحلوى وعصارة السمسم، والتين الناقع، والجبن، والبقلاء والكراث وما إلى ذلك من الطعام الذي تهفو إليه أفئدة جميع الأطفال. وقد انعكس هذا التغيّر جبراً على طه حسين وجعله أكثر وفرةً وامتلاءً، واستعداداً للمشاركة في الدروس اليومية بنشاط وحيوية^١.

بيد أن المناخ التعليمي في الأزهر لم يكن مناخاً مؤاتياً سواء من الناحية العلمية أم من حيث أخلاق الأساتذة. كما كان عدم الإشراف على مبيت الطلاب وتفشي

بعض الانحرافات الأخلاقية هناك، من بين المسائل الأخرى التي أشار إليها طه حسين أيضًا. وفي مدّة حضور طه حسين في الأزهر الشريف، استقال الشيخ محمد عبده عن رئاسة الأزهر بسبب الأحداث السياسية؛ وذلك لأنّ الأزهر قد شهد في هذه المرحلة فضاء مغلقًا؛ من ذلك — على سبيل المثال — أن تدريس وتداول بعض كتب المعتزلة، مثل كتاب الكامل للمبرّد، كان يُعد ذنبًا كبيرًا لا يُغتفر.

يقدم طه حسين وصفًا سلبيًا عن أخلاق علماء عصره سواء في ذلك معلمو الصبيان أم شيوخ الطريقة الذين يقيمون على أطراف القرى أم الطلاب الذين يشاطرونه ويشاطرون أخاه السكن في الحجرات في الأزهر الشريف. وقد ازدحم ذهنه بأنواع الحالات من الأخلاق الفظة وغلظة القلب، وانخفاض المستوى العلمي والمعرفي، والتعامل القاسي مع الطلاب، وعدم التنافس الشريف، والغيبة والسخرية من الآخرين والاستهزاء بهم وتقليد أصوات الأساتذة، وما إلى ذلك^١. ومن ناحية أخرى فإنّ البيئة الدراسية لطله حسين وطلاب الأزهر لم تكن بمنأى تام عن الأدناس والمعاصي، ولم تكن جميع أوقاتهم مكرّسة لطلب العلم، بل كان هناك بعض المنحرفين الذين يترددون على حجرات الطلاب، وكانوا يعملون بأقوالهم وأفعالهم على دعوة الطلاب إلى سلوك طريق الانحراف أيضًا. وقد أثرت هذه النظرة السلبية لطله حسين تجاه الأزهر في رغبته نحو الانتقال إلى الجامعة ومواصلة دراسته في فرنسا.

لقد درس طه حسين منذ عام ١٩٠٢ م، حتى عام ١٩٠٨ م، في الأزهر الشريف^١، حيث حضر دروس الفقه، وأصول الفقه، والنحو، والمنطق، على يد أساتذة من أمثال: محمد عبده، ومحمد بخيت (مفتي مصر)، ومحمد حسين العدوي، ومحمد مصطفى المراغي، ومحمد راضي، وعاشور الصديفي^٢. وأما الأزهر الشريف فلم يكن هو ذلك الشيء الذي يلبي طموح طه حسين. فلم يمكث في الأزهر سوى أربع سنواتٍ فقط، وقد برم بتكرار الدروس وأضجرتة الأوضاع التي كانت سائدة هناك إلى حدود السأم، واتخذ قراره النهائي والحاسم بالانتقال إلى الجامعة. وقد تعرّف في الجامعة على الأساتذة الأجانب القادمين من أوروبا وسائر البلدان الإسلامية الأخرى، بل كان له مع بعضهم تواصلٌ أبعد من الدروس الجامعية. من ذلك — على سبيل المثال — أنه قد اصطحب معه أحد أساتذته الفرنسيين إلى الأزهر ليحضرًا معًا حصة في التفسير، وقد اتفق أن كان موضوع الدرس يدور حول الجبر والاختيار. وقد أشكل طه حسين هناك على الأستاذ حتى وصل الأمر بينهما إلى التنازع والشجار. وكان بعد الحصص الدراسية ينظم بعض المواعيد لأساتذته الأجانب لإجراء لقاء مع شيوخ الأزهر.

وقد عمل طه حسين من أجل الحصول على درجة الدكتوراه على البحث والتحقيق في مورد آراء الشاعر التشاؤمي العربي الشهير أبي العلاء المعري. فكان زملاؤه يقرأون له أعماله وكتبه وآراءه، وكان بدوره يحتزن المطالب حول أبي العلاء

١. الجندي، طه حسين حياته وفكره، ٢١.

٢. آيتي، «مقدمة»، ٩.

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٤١

في ذهنه، وبعد مدّة وجد نفسه مستعداً لإملاء أطروحته العلمية، فأخذ يملئها على زميله وزميله يكتب ما يمليه عليه. وبمساعدة من زميل آخر له قام بتكثير نسخ أطروحته العلمية، وقدم للجامعة خمس نسخ منها ليصبح بذلك أول طالب جامعي مصري يقدم أطروحته للحصول على شهادة الدكتوراه، وتمكّن في نهاية المطاف من الدفاع عن أطروحته حول السيرة الذاتية لأبي العلاء المعري والجغرافية العربية والمزاج الديني للخوارج، ونال شهادة الدكتوراه سنة ١٩١٤م بدرجة جيد. وكان بذلك أول طالب يحصل سنة ١٩١٤م، على أول شهادة على مستوى الدكتوراه في الأدب العربي، وكان له من العمر في حينها خمس وعشرون سنة. وكان العنوان الدقيق لهذه الأطروحة هو (تجديد ذكرى أبي العلاء).

مواصلة الدراسة في فرنسا

كان الشيخ جاويش هو الذي زرع في رأس طه حسين فكرة الدراسة في فرنسا. فقد كان يتعلم اللغة الفرنسية ويتحدّث مع أسرته على الدوام بشأن رغبته في مواصلة الدراسة والزواج في فرنسا؛ حين أعلنت الجامعة عن شروط المنحة الدراسية لمواصلة الدراسة في فرنسا. وقد قدّم طه حسين طلبين تفصيليين في هذا الشأن على مدى عامي ١٩١٣، و١٩١٤م، وقد شرح في كلا الطلبين مؤهلاته وإمكاناته ليثبت أهليته لكي يتم اختياره بوصفه طالباً يلتحق بمنحة إلى الجامعة في فرنسا، ولكنه أخفق في كلتا المرتين، ولم تجده الجامعة أهلاً للحصول على هذه المنحة بسبب عدم امتلاكه لشهادة الإعدادية (الدبلوم)، وبسبب إعاقة العمى، وضعفه في اللغة

الفرنسية، والنفقة الإضافية التي كان يجب أن ترصد للشخص الذي يرافقه بسبب إعاقة. بيد أن طه حسين لم يكن ليتخلى عن هذا الطموح وكان مصرًا على تحقيق هذا الحلم. فأخذ يعمل جاهدًا على تقوية لغته الفرنسية، وسعى من أجل الحصول على شهادة الدكتوراه في حقل الأدب ليستحوذ على اهتمام اللجنة المعنية في هذا الشأن. حتى تمت الموافقة أخيرًا على مواصلته للدراسة في فرنسا، التي كُتب لها أن تتحقق بعد مدّة من التأجيل بسبب احتدام الحرب بين فرنسا وألمانيا (في الحرب العالمية الأولى).

وبعد إلقاء الحرب أوزارها توجّه طه حسين برفقة شقيقه — الذي تقبل تحمّل نفقاته المالية الخاصة — ليكون مساعدًا لأخيه في فرنسا، وطالبن آخرين، وأقاموا جميعًا في مدينة مونبليه النائية، لبدأ دراسته في حقل الأدب والتاريخ، ويلتحق بعد ذلك بجامعة السوربون ويواصل دراسته هناك. وقد عاد إلى مصر عدّة مرّات بسبب الحروب والمشاكل المالية التي تعاني منها الجامعة وكان في ذلك قد أُلّف الألم والعنت. ولكنه نجح في نهاية المطاف في الحصول على البكلوريوس من جامعة السوربون، وأن يختار — بمشورة من عالم الاجتماع الفرنسي الشهير إميل دوركهايم — فلسفة ابن خلدون، لتكون عنوانًا لأطروحة العلمية تحت إشرافه وأستاذ مستشرق آخر باسم كازانوف. وبعد إتمام الأطروحة كان يتعيّن عليه في ضوء وعدٍ قطعه على نفسه لجامعة مصر بتقديم نصّ أطروحة إليها لتعمل على تأييدها أولاً، ومن هنا فقد أرسل نسخةً منها إلى الجامعة، وقد عرضت أطروحة على الدكتور لطفى السيد الذي قرأها بدوره وعبر عن اغتباطه وإعجابه بها.

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٤٣

وقد صدف أن توفي إميل دوركهايم قبل دفاع طه حسين عن رسالته، وحلّ محله الأستاذ بوغلييه ليحضر في جلسة الدفاع. وقد أقيمت هذه الجلسة بطبيعة الحال، ونالت الأطروحة درجة القبول، ولكن كان لا يزال على طه حسين أن يحصل على شهادة البكالوريوس في التحقيقات العليا، وأن يكتب أطروحةً في التاريخ أيضًا. فكتب في عام ١٩١٧م أطروحته تحت عنوان (الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون). وقد حصلت هذه الأطروحة على جائزة السيناتور من كلية دو فرانس^١. وفي عام ١٩١٩م، عاد طه حسين إلى مصر، وباشّر التدريس في جامعة القاهرة. وبعد ذلك رجع إلى فرنسا ليحصل على شهادة الدكتوراه في حقل التاريخ من جامعة السوربون.

التدريس في الجامعة

عندما عاد طه حسين من فرنسا إلى مصر لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره. وقد بدأ عودته من فرنسا وإقامته في مصر بالفقر وتراكم الديون، وجّهز أثاث منزله بوساطة سمسار لتجهيز البيوت الأمر الذي أحزن زوجته الفرنسية. ومنذ عام ١٩١٩م، أخذ يدرس مادة التاريخ الإغريقي والرومي في جامعة القاهرة، وبعد مدّة تولى منصب رئاسة كلية الأدب في هذه الجامعة. وقد تمّ اختياره عدّة مرّات رئيسًا لكلية الآداب منذ عام ١٩٢٥م، إلى عام ١٩٣٢م، ولكنه كان يتعرّض للعزل من هذا المنصب في كلّ مرّة بسبب مخالفة أوامر

١. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الإجتماعية، ٧.

الدولة. وفي نهاية المطاف خاض تجربة التقاعد القسري سنة ١٩٣٢ م^١.
لقد تمّ استدعاء طه حسين للمثول أمام المحكمة بسبب عددٍ من الشكاوى
والدعاوى التي صدرت بحقه من قبل المراكز العلمية والمهمة مثل الأزهر الشريف،
متهمة إياه بالإلحاد. وقد قام المدّعي العام في مصر بطرح تلك التهم والشروط
اللازم توفرها لإثبات الجرم، وعمل على تطبيقها على مدعيات طه حسين في كتابه
(في الشعر الجاهلي)، ثم قال بأنّ الشرط الأخير المتمثل بالنية الإجرامية لطه حسين
غير قابل للإثبات، وعمد إلى تبرئته، وأصدر قراراً بهذا المضمون: تبعاً للشكاوى
المتعددة التي وصلت إلينا من مختلف الأشخاص حول كتاب طه حسين تحت عنوان
(في الشعر الجاهلي)، يبدو أنّه لا ينبغي فصل عبارات طه حسين - المذكورة في متن
الشكاوى - عن نصّه الأصلي، بل يجب تفسير تلك العبارات ضمن ذات النص،
لكي تتضح نيّة المؤلف. إنّ نتيجة الأبحاث والتحقيقات تثبت خطأ طه حسين في
هذه المسائل، والأهمّ من كلّ هذه الأخطاء عبارة عن الخلط بين الدين والعلم.
وأما بشأن سائر التهم الأخرى فإنّ بحثه لا يتعارض مع الدين، ولا نجد الاتهامات
الأخرى واردة عليه. وهكذا فإنّ محمد نور - المدّعي العام لمصر في سنة ١٩٢٧ م -
لم يجد طه حسين مجرمًا في نواياه، ولم يصدر حكمًا بإدانته من هذه الناحية^٢.

إنّ طه حسين بالإضافة إلى تدريسه في الجامعة و رئاسة الجامعة، تمّ تنصيبه سنة
١٩٤٢ م معاونًا في وزارة الثقافة. وما بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٥٢ م، تولّى منصب

١. آيتي، «مقدمة»، ٣٩.

٢. خيري، محاكمة طه حسين، ٥١ - ٩٩.

وزير التربية والتعليم في مصر، ولكنه اعتزل السياسة لاحقاً بعد سقوط التشكيله الوزارية لحزب الوفد^١. لقد أحدث طه حسين تحوّلاً ملحوظاً في التربية والتعليم خلال توليه لمنصبه في هذه الوزارة. حيث أعلن عن مجانية التعليم في المرحلة المتوسطة والفنية، وكان يخطط لجعل الدراسات العليا هي الأخرى مجانية أيضاً، ولكن ملك مصر في حينها قد رفض ذلك^٢. وفي الأيام الأخيرة من حياته حصل طه حسين على جائزة حقوق الإنسان من الأمم المتحدة. وقد كانت وفاته عام ١٩٧٣م، عن عمر ناهز الرابعة والثمانين عاماً.

الخلفيات الاجتماعية

تعدّ مصر بلدًا له تاريخٌ قديم، وحضارةٌ عريقةٌ تمتدّ لأربعة آلاف سنة، وهي تمثّل جسراً للتواصل بين القارة الآسيوية والأوروبية. وقد شهدت هذه المرحلة الطويلة تحولاتٍ جوهريةً متعددةً على مستوى الدين واللغة، وتبعاً لذلك على مستوى الهوية المصرية. ومن بين هذه المراحل تعد المراحل الثلاثة، وهي المرحلة الفرعونية، والمرحلة المسيحية، والمرحلة الإسلامية، من أهمّ المراحل التاريخية في مصر^٣. وفي المرحلة الإسلامية، نشر الفاطميون المذهب الشيعي في مصر، إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي، الذي كان على المذهب الشافعي، فأنهى الحكم الفاطمي وأعاد الغلبة للمذهب السني، ثم ترسّخ هذا الاتجاه لاحقاً في عهد الدولة العثمانية. وبطبيعة

١. خديوجم، مقدمة على: طه حسين، آن روزها، ١٢ - ١٣.

٢. آيتي، مقدمة على: طه حسين، آئينه اسلام، ١٤.

٣. هيكل، الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة، ١١٨.

الحال ما تزال هناك بعض الآثار الباقية حتى الآن، التي يمكن مشاهدتها في الثقافة المصرية الموروثة عن المرحلة الفاطمية والمذهب الشيعي وسائر الفرق الإسلامية الأخرى. يمكن العثور على آثار سيطرة مختلف السلالات المتنوعة على ثقافة مصر — على سبيل المثال — في الاحتفالات الخاصة بشهر رمضان المبارك لدى المصريين. وتعود جذور بعضها إلى مختلف المراحل الفرعونية والقبطية والإسلامية. كما تنقسم جذورها الإسلامية بدورها إلى أقسام مختلفة أيضًا، حيث يعود بعضها إلى إبداعات الفاطميين، وبعضها الآخر إلى الإمبراطورية العثمانية، وإلى سائر الأمم الأخرى.

المواجهة مع الغرب

مع دخول نابليون بونابرت إلى مصر سنة ١٧٩٨م، وقعت أول مواجهةٍ شاملةٍ لمظاهر الحضارة الغربية الجديدة مع العالم الإسلامي في هذا البلد. وحدث بعد ذلك سنة ١٨٨٢م، أن تمَّ احتلال مصر على يد الإنجليز أيضًا. وما تزال التركة الاستعمارية مشهودةً في رواسب الأنظمة السياسية في مصر إلى الآن. ومن بين هذه الرواسب: الحدود المصطنعة، وإيجاد طبقة من النخب الحكومية، وقانون تعدد الأحزاب، والمؤسسات الليبرالية الديمقراطية الضعيفة والمفتقرة إلى الدعامة، والنظام العلماني الذي يدعو إلى فصل الدين عن السياسة^١.

سرعان ما تعرّض الإسلام عبر مصر إلى مسار التحوّلات الجديدة في الغرب بعد عصر النهضة، ومنذ ذلك الحين إلى الآن تواصل التحدي الحضاري للغرب والإسلام في مختلف أشكاله بين الإسلاميين والحكومات العلمانية والخطابات

١. تامپسون، رسالته ومدرّيته: نظريته الاجتماعي رسالته، ٥٩.

السياسية وغير السياسية حول الدين. وقد شهدت الساحة السياسية في مصر تنافسًا بين أربعة تياراتٍ فرضت وجودها في مصر على النحو الآتي: التيار المعرب، والتيار الإسلامي، والتيار القومي الغربي، والتيار القومي المصري^١. إنَّ لمصر سابقةً علمية تعود إلى المراحل المتقدّمة والمتأخّرة. إنَّ المسلمين في مصر وإن كانوا في الغالب على مذهب أهل السنّة، ولكنّهم يجوبون أئمّة الشيعة، ويكثّون احترامًا خاصًا لأهل البيت^٢. وقد عمد سيّد قطب في كتاب (معالم في الطريق) إلى وصف المجتمع المصري بقوله: «نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كلّ ما حولنا جاهلية؛ تصوّرات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافةً إسلاميةً ومراجع إسلاميةً وفلسفةً إسلاميةً وتفكيرًا إسلاميًا، هو كذلك من صنع هذه الجاهلية»^٣.

النسبة التاريخية لمصر مع الغرب القديم والحديث

لقد ذكر طه حسين بعض الأسئلة حول نسبة تقييم الهوية المصرية بالقياس إلى البلدان الشرقية والغربية، ومن بين هذه الأسئلة السؤال القائل: هل الشخص المصري في الإدراك والتفكير أقرب إلى الشخص الصيني والياباني أو هو أقرب إلى الشخص الإنجليزي والفرنسي؟ ثم سعى بعد ذلك في معرض الإجابة عن هذا السؤال إلى التعريف بالهوية المصرية بوصفها ذات طابعٍ شرقيّ في الغالب. وهو

١. عنایت، اندیشه سیاسی در اسلام معاصر.

٢. عنایت، سیری در اندیشه سیاسی عرب از حمله ناپلئون به مصر تا جنگ جهانی دوم.

٣. سیّد قطب، معالم في الطريق، ١٧ - ١٨.

يرى أنه لا يوجد في الآثار التاريخية ما يشهد للقول بأن العقل المصري كان على صلة بالشرق. بيد أن البلدان الشرقية المتاخمة لمصر قد تركت تأثيراً كبيراً في الحياة العقلية والسياسية والاقتصادية لمصر. وبطبيعة الحال فإن مصر في الماضي لم تكن على نسبة مع البلدان الشرقية القريبة فقط، بل أقامت توازناً سياسياً واقتصادياً مع البلدان الأوروبية القريبة أيضاً. وباختصار فإن صلة مصر بالشرق الأقصى وبلدان مثل إيران تمثل علاقة حربٍ ونزاعٍ مورثٍ للأحقاد، وعلاقتها بالشرق الأدنى واليونان كانت علاقةً مؤثرة^١.

لقد عمد طه حسين إلى توظيف مصطلح العقل اليوناني والعقل المصري وما إلى ذلك، أكثر ممن سواه من المفكرين في العالم الإسلامي، وعمل على إجراء المقارنة بينها. لقد كان لمصر - من وجهة نظره - بنحو عام، تأثيرٌ في الحضارة اليونانية وفي مختلف مجالاتها، من قبيل: العمارة والفن على سبيل المثال. وبطبيعة الحال فإن اليونان لم تتأثر بمصر فقط، بل قد تأثرت أيضاً بسائر بلدان الشرق الأدنى (في حوض البحر الأبيض المتوسط) أيضاً.

وفي المقابل كان العقل المصري قد تأثر بالعقل اليوناني بشكلٍ أكبر، دون تأثره بالشرق الأقصى مثل الصين واليابان والهند. بيد أن المصريين - بطبيعة الحال - يعدّون أنفسهم شرقيين بنسبة أكبر. كما يميل الغربيون بدورهم إلى التعريف بالمصريين بوصفهم من الشرقيين. بيد أن مصر كانت هي البلد الإسلامي الأول الذي تمكن من استعادة هويته القديمة، وقاوم في مواجهة الفرس والإمبراطورية

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ١٧ - ١٩.

الرومية الشرقية والغربية والعرب، وحافظ على عقله وهويته الغربية^١.
يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ العقل المصري كان يتعامل حتى عصر الإسكندر المقدوني مع العقل اليوناني، وكانت هناك خصائص مشتركة بينهما. وعندما فتح الإسكندر البلدان الشرقية، اكتسبت مصر شبهًا أكبر باليونان. وكانت مدينة الإسكندرية في ذلك العصر مدينةً يونانيةً ولم تكن شرقية. وحتى بعد أن استسلمت مصر لروما بقيت الإسكندرية محافظةً على طابعها وثقافتها اليونانية والإغريقية. وفيما يتعلق بعلاقة مصر بالشرق يذهب طه حسين إلى الاعتقاد أيضًا بأنه كما جاءت المسيحية من الشرق وبسطت سيطرتها على أوروبا ولكنها لم تتمكن من تحويل العقل والثقافة الأوروبية إلى شرقية، كذلك الإسلام لم يتمكن من تحويل الثقافة والعقل المصري إلى ثقافةٍ وعقلٍ شرقيين على الرغم من بسط سيطرته على مصر، وانتشار اللغة العربية في مصر. الشيء الآخر أنّ الإسلام والمسيحية قد عملا بشكلٍ مماثلٍ في المواجهة مع الفلسفة الإغريقية والتعامل معها، فقد أثرا كلاهما في الفلسفة، وتأثرا بها، وأخذتا يتفلسفان^٢.

إنّ خصوصية الثقافة المصرية – من وجهة نظر طه حسين – هي أنّ مصر بالنظر إلى هويتها العريقة والحديثة القائمة على أساس الوحدة الوطنية، ترسم أفضل الآمال والتطلعات والأهداف والغايات^٣. وفي ضوء بيانه للهوية الغربية

١. م. ن، ٢١-٢٤.

٢. م. ن، ٢٥.

٣. م. ن، ٢٩٥.

لمصر، يقول بوجود دورٍ محوريٍّ لمصر ضمن البلدان العربية، ويرى أنّ العرب وإن كانوا يقرأون الصحف والمقالات والكتب المصرية، ولكن يجب تسهيل هذا الأمر عليهم. ومن بين ذلك أنّه يجب توفير الأرضية لقبول الطلاب من سائر البلدان العربية للدراسة في مصر، وتوفير الإمكانية لهم من أجل الدراسة والإقامة في مصر. كما يجب على مصر أن تفتح المدارس الابتدائية في البلدان العربية الأخرى، ولا سيّما في سوريا ولبنان وفلسطين. إنّ هذا الأمر بالإضافة إلى المرجعية الفكرية يحتوي على مصالح اقتصادية كبيرة. وبطبيعة الحال فإنّ الدولة لوحدها لا تستطيع القيام بهذا الأمر، ويجب على الأفراد أن يسهموا في هذا الشأن أيضًا.

الخلفيات السياسية

إنّ الخلفيات السياسية المؤثرة في السيرة الذاتية والفكرية لطه حسين في مصر، تحتوي على الدولة الاستبدادية وانهيار الإمبراطورية العثمانية، والحضور الغربي والاستعماري في مصر.

الاستبداد

كان الحكام المستبدون في البلدان الإسلامية—ومن بينها مصر—يتربعون على سدّة الحكم، ويعملون على توظيف حكّام السلاطين من أجل خداع أذهان المجتمع الإسلامي وإضفاء الشرعية على أنفسهم وملكهم، وكانوا يصفون أنفسهم بأنّهم خلفاء النبي الأكرم ﷺ. وقد بيّن السيد جمال الدين هذه الحقيقة بقوله: «كنت

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٥١

من بين الذين فتحوا أعين المصريين لينظروا إلى حقوقهم... ودعوتهم إلى الاعتقاد بأنّ الحاكم وإنّ وجبت إطاعته ولكنّه يبقى من البشر، ويمكن له أن يخطئ وأن تغلب عليه الشهوات، وإنّ الشيء الوحيد الذي يردعه عن الطغيان والانسياق وراء شهواته، إنّما هو نصيحة الأمة له».

وقد ذهب الشيخ محمد عبده - وهو تلميذ السيد جمال الدين - إلى القول بأنّ أحد أسباب الاستبداد الداخلي عبارة عن صمت العلماء بذريعة الحيلولة دون سفك الدماء، ولهذا الأمر جذور في الموروث التاريخي عند علماء أهل السنّة، إذ هناك إجماع بينهم على حرمة الخروج على خليفة المسلمين ووجوب إطاعته. وقد عدّ الشيخ محمد عبده هذا الأمر بأنّه يشكل بذرة زوال الأمّة، وينشأ ذلك عن تعطيل الاجتهاد، ويقول في هذا الشأن: «يجب على الفقهاء في كلّ عصر أن يمارسوا الاجتهاد بما يتناسب مع ظروف الزمان والمكان... ويجب على الفقهاء أن يتعرفوا على أوضاع عصرهم، وأن يصدروا الأحكام على تلك الأمور بما يتوافق مع قدرة الناس على اتباعهم فيها»^١.

إنّ الشيخ محمد عبده لا يرى تقليد فتاوى العلماء السابقين ممهدًا للاستبداد الداخلي فحسب، بل ويراها كذلك سببًا في الطعن على الأفكار الدينية للمسلمين، وتعرّض هذه الأفكار في مواجهة العالم الجديد وتطابق الإسلام مع العلوم الحديثة إلى هيب الإفراط والتطرّف أيضًا. لقد أدّى هذا الأمر ببعض الأشخاص إلى أن يتقمصوا دور علماء الدين، ويعملوا على تأويل وتفسير الأصول الإسلامية على

١. رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ٢: ١٨٠.

مقاساتهم وأذواقهم الشخصية، وأن يخرجوا الإسلام عملياً من الساحة الاجتماعية في العالم الحديث. ومن ناحية أخرى فإنّ ذات هؤلاء العلماء المقلدون حيث كانوا قلقين من الجمود الفكري وسطحية علماء الإسلام، فإنّهم كانوا يصفون كلّ ظاهرة جديدة في العالم الحديث بوصفها مخالفةً لتعاليم الإسلام؛ ولذلك فقد ذهب الشيخ محمد عبده إلى الاعتقاد بأنّ المفتاح لحلّ جميع هذه المشاكل يكمن في فتح باب الاجتهاد في العصر الراهن، وقال في ذلك: «يجب على العلماء أن يعتقدوا الاجتماعات فيما بينهم ويتذكروا، ويتفقوا حول الأمور المناسبة والجديرة بالعمل، وإن كان هناك رجحان لبعض المسائل — لأسبابٍ مكانيةٍ أو زمانيةٍ خاصّة — عليهم أن ينبهوا إلى ذلك. وهذا — بطبيعة الحال — ليس حكماً كلياً، والدليل على ذلك ما ذكرناه آنفاً. ثم إنّه لا يجب اتخاذ كلّ ما ينقله الفقيه، واعتباره مبنى للعمل في كل زمان ومكان»^١. وكان طه حسين يكتنّ احتراماً وتقديراً خاصاً للشيخ محمد عبده، وكان متأثراً به إلى حدّ ما، وقد عملت كلمات الشيخ محمد عبده على تعزيز وتقوية توجهه الانتقادي.

لقد شكّل انهيار الدولة العثمانية واستقلال الدول التي كانت خاضعة لسيطرتها، منعطفاً مهمّاً في التحوّلات السياسية والاجتماعية. بيد أنّ رؤية الشعوب المسلمة لهذه الحادثة من جهة ثانية كان لها أبعاد أخرى أيضاً. من ذلك — على سبيل المثال — عندما قامت إيطاليا بإعلان الحرب على تركيا بوصفها واحدةً من البلدان الإسلامية، قرر طه حسين وسائر الطلاب الآخرين مقاطعة دروس أستاذهم الإيطالي للتعبير عن

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٥٣

الاعتراض على السياسة الإيطالية؛ ولهذا الغرض فإنهم تركوا قاعدة الدرس بمجرد وصول الأستاذ الإيطالي إليها. بيد أن ذلك الأستاذ قال لهم: إن ما تقومون به من ردة فعلٍ يُشبه ذلك الزوج الذي قام بإخصاء نفسه لمعاقبة زوجته. وقد ترك هذا الكلام تأثيرًا بالغًا فيهم، واتخذوا قرارًا بعدم القيام بهذا الأمر بتاتًا.

لقد كان العصر الذي عاش فيه طه حسين زاخرًا بالأحداث الملتهبة بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، وارتفاع ذروة المواجهة بين العالم الإسلامي ومسألة الحداثة والتخلّف. وقد تعرّف مصر — بعد هجوم نابليون بونابارت وحضور المستشرقين الأوروبيين ولا سيّما الفرنسيين منهم — على طبقاتٍ من الثقافة الغربية. وهناك من ذهب إلى الاعتقاد بأنّ الجهود اللاحقة للعالم العربي — ولا سيّما المصريين منهم — من أجل فهم ماهية الحداثة، كانت ذات ماهية ثقافية.

الاستعمار

لقد قام المستعمرون القادمون من بعض البلدان الأوروبية باستعمار مناطق واسعة من العالم واستولوا عليها بمختلف الذرائع الكاذبة، واستوطنوا فيها وأخذوا ينهبون خيراتها ويسرقون ثرواتها. يذهب بعض المنظرين إلى الاعتقاد بأنّ ظاهرة الاستعمار تعود إلى أزمةٍ سحيقة، ويرون أنّ ما قامت به الحكومات والدول والأمم القديمة مثل الفينيقيين والإغريقين والرومان في منتهى المطاف من خلال تأسيس القواعد في خارج بلدانهم بغية الاستفادة منها للتجارة أو خوض الحروب أو نشر ثقافتهم يُعدّ نوعًا من مظاهر الاستعمار^١. ومنذ ذلك الحين أخذ الاستعمار

١. گاژدان، تاريخ اجتماعي روسيه وشورى، ٢: ٤٩.

يظهر على أشكال متنوّعة. ويمكن عدّ ظهور الاستعمار القديم من خلال تأسيس الدول الأوروبية المقتدرة في تلك المرحلة التاريخية، ونعني بذلك إنجلترا وفرنسا والبرتغال وإسبانيا وما إلى ذلك.

وبعد السيطرة على الممرّات المائية حول الأجزاء الجنوبية الشرقية من القارة الأفريقية (سنة ١٤٨٨م)، والتعرّف على وجود القارة الأمريكية سنة ١٤٩٢م، الذي سمّي اكتشافاً زوراً وهتاناً، بدأت الرحلات البحرية من أجل الاستعمار والاستيلاء على المناطق الجديدة. وقد كانوا في بداية الأمر يهدفون إلى استخراج المعادن الطبيعية، والذهب، وعاج الفيل، وغيرها من الأشياء الثمينة، ولكنهم توسّعوا بعد ذلك شيئاً فشيئاً في الأنشطة الاستعمارية بدوافع اقتصادية من قبل: التجارة ونقل المواد الخام والمعادن والزراعة إلى الأراضي الأوروبية وبيع البضائع والمنتجات الأوروبية. لم يكن للأبعاد الاقتصادية من الاستعمار واستغلال البلدان الأوروبية للبلدان والمجتمعات الأخرى أن تستمر من دون تدخل الأبعاد السياسية والعسكرية.

سرعان ما أدركت الدول الاستعمارية أنّها إذا أرادت أن تواصل استغلالها للبلدان المستعمرة، فعليها أن تبسط سيطرتها السياسية عليها، بل يجب عليها أن تسيطر حتى على ثقافتها أيضاً. وقد تحقّق هذا الأمر في المناطق والمجتمعات التي هي من قبيل المجتمعات المحلية في أمريكا وأفريقيا وأستراليا التي شكّلت مراكز للقوى الاستعمارية، وكانت الثقافة والحضارة المحلية للسكّان هناك من الضعف، بحيث إنّها قد انهارت في مستهل الغارات الاستعمارية، بسهولة تامّة ودون عوائق تذكر. لقد تمّ تأسيس مقرّات مركزية للسلطة في هذه البلدان خاضعة لإشراف المستعمرين

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٥٥

بشكلٍ تام. لقد عمد المستعمرون عادة في هذه البلدان — بالإضافة إلى المؤسسات التقليدية والمحلية — إلى إقامة مؤسساتٍ وأساليبٍ وشبكةٍ من العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية الجديدة، وهي تصبّ في الحقيقة في تلبية احتياجاتهم الاستعمارية، ولا تهدف إلى تلبية حاجة السكان الأصليين في تلك المناطق^١.

وبعد الحرب العالمية الثانية وتأسيس (منظمة الأمم المتحدة)، ولا سيّما في عقد الخمسينيّات والستينيّات من القرن العشرين للميلاد (١٩٥٠ — ١٩٦٩م)، أخذ العالم يشهد تقدماً سريعاً للتيارات والحركات الرافضة للاستعمار، وظهرت قوى تدعو إلى محاربة الاستعمار وتطالب بالاستقلال السياسي في التاريخ. بحيث زاد عدد البلدان ذات العضوية في منظمة الأمم المتحدة، وقد عمدت هذه البلدان ذات الأغلبية في الجمعية العامة إلى وضع المسائل الخاصة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية في مركز اهتمام الأمم المتحدّة.

وقد تبلور استعماراً آخر تحت مسمى الاستعمار الحديث، لأغراض من قبيل تصدير الثروات إلى البلدان المستعمرة ونبد الأساليب العسكرية والحرب، والسلطة الفيزيقية، وسجلت حضورها في البلدان المستعمرة بواسطة الأساليب الاقتصادية، وجعلتها تابعة لها. والمراد من ذلك هو نوعٌ من الاستعمار الذي ظهر بثوبٍ جديدٍ، وأخذ يواصل أهداف الاستعمار القديم (الذي بدأ منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر للميلاد) من طريق فرض الهيمنة والسيطرة

١. إلهي، إمبرياليسم وعقب ماندغي، ٦٧؛ طلوعي، فرهنج جامع سياسي، ١٥١؛ علي بابائي،

فرهنج علوم سياسي، ١: ٤٣.

الاقتصادية والثقافية^١. في الاستعمار الجديد لا يقوم المستعمر بممارسة الحكم بشكل مباشر، وإنما يعمل على تنصيب حكوماتٍ محليةٍ تابعةٍ له. حيث يمنحهم المستعمر استقلالاً سياسياً بحسب الظاهر، وفي الباطن يبقي على تبعيتهم السياسية والاقتصادية ويواصل استغلالهم ونهب خيراتهم. إنَّ الاستعمار الجديد أو الخفي يعمل على توظيف واستخدام ذات الأساليب الإمبريالية الواضحة التي تقوم على أساس بثِّ التفرقة بين الدول والحكومات الجديدة، وإثارة النعرات القبلية والطائفية والنزاعات المحلية والصراعات الإقليمية^٢.

إنَّ حماة المستعمرين وذات المستعمرين أنفسهم في الاستعمار ما بعد الحديث لا يحضرون مباشرة، ولكن يعملون على استهداف الهوية الثقافية للمستعمرات من طريق وسائل الإعلام لتجريد أبناء هذه المستعمرات من ثقافتهم. وبذلك يبسطون سيطرتهم عليهم. وقد انتهج المستعمرون هذه السياسة منذ أواسط القرن العشرين للميلاد من أجل مواجهة الحركات المطالبة بالاستقلال. إنَّ الاستعمار ما بعد الحديث أو التسلُّط الجديد، يقوم على أساس إحداث التغيير في الرؤية والعقيدة والثقافة والآراء والتمتنيات والسلوكيات والأفكار السياسية والثقافية، وقد تمَّ تأسيسها بهدف إحداث التغيير اللامرئي واللامحسوس لثقافة وهوية الشعوب. ويعدُّ إضعاف أسس الاتحاد الوطني، وتشديد الاختلافات الداخلية، وتحييد الشعوب عن ثقافتهم وهويتهم الوطنية، وإظهار المستعمرين للرأي العام

١. فريد، فرهنگ علوم سياسي، ٧٢.

٢. آقابخشي، فرهنگ علوم سياسي، ٢٢٤.

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٥٧

بوصفهم أناسًا يحبون الخير، من أهم محاور توصيف الاستعمار ما بعد الحديث. في هذا النوع من الاستعمار تتقدّم السيطرة الثقافية على السيطرة العسكرية، ويقع الخطاب الأصلي فيه على عاتق وسائل الإعلام، وليس على عاتق المعدات العسكرية. وقد يتمّ استخدام المعدات العسكرية — بطبيعة الحال — في هذا النوع من الاستعمار أيضًا، ولكن هذا الاستخدام العسكري بدوره إنّما يهدف إلى تعزيز سيطرة وسائل الإعلام أيضًا. وفي هذا النوع من الاستعمار يتمّ السعي إلى الاستحالة الثقافية وتغيير الثقافات^١. في هذه المرحلة من خلال تقديم نظريات التنمية وجعل البلدان الغربية في مقام القدوة، يتمّ التخلّي عن مفهوم الاستعمار، وتبدأ البلدان المستعمرة بنفسها تطالب بالتبعية للمستعمرين. كما يسعى طه حسين إلى التآسي بالأوروبيين ولا سيّما الفرنسيين منهم، واتخاذهم نموذجًا يُحتذى ويستحق الاقتداء.

ولكن كان هناك تيارٌ آخر في مصر أيضًا، من ذلك — على سبيل المثال — أنّ الاستراتيجية العامة للشيخ محمد عبده تبعًا للسيد جمال الدين، كانت تقوم على ثلاثة محاور رئيسة، وهي: اليقظة، والعودة إلى الإسلام الأصيل، وإقامة الاتحاد بين المسلمين. وقد بذل السيد جمال الدين جهودًا مضيئة لم يعرف خلالها الكلل، وقام بأسفارٍ كثيرة إلى القارات الثلاثة المهمّة (وهي القارة الآسيوية، والأفريقية، والأوروبية) من أجل تحقيق هذه الأهداف، وحقّق في هذا الشأن بعض النجاحات من خلال التدريس وإلقاء الخطب والكلمات والمحاضرات وكتابة المقالات، ونشر الصحف والمجلات وتربية الطلاب الأذكياء والشجعان. إلّا أنّ طيفًا من المستنيرين

١. أكسفورد، نظام جهاني: اقتصاد، سياست وفرهنگ، ٢١٣.

من أمثال طه حسين، كانوا يسعون إلى تغريب مصر. وكان يسعى إلى التعريف بأوروبا بوصفها صديقةً لمصر وليست مستعمرة، بل يعدّ مصر في الأصل غربية. إنّ طرق حلّ طه حسين في إصلاح أوضاع مصر إنّما هي في الحقيقة سعيٌّ من أجل السير على الخطى نفسها التي سبق للغربيين أن سلكوها.

التيارات والأحداث السياسية

إنّ التيارات المطالبة بالاستقلال السياسي في البلدان العربية المهمّة — مثل العراق ومصر — هي في الغالب ذات مناشئ حديثة. وإنّ المفاهيم التي هي من قبيل الحرية والاستقلال قد تمخّضت بدورها في صلب الأفكار الحديثة أيضًا. وكان من بين أهم الأحزاب الناشطة والمؤثرة في حقل الاستقلال السياسي في مصر هو حزب الوفد الذي يتبنى توجهات القومية العربية. وكان طه حسين قريبًا جدًا من كبار قادة هذا التيار، وكانت أعماله ترفد الخلفية النظرية لهذا التيار والجماعات المتماهية مع هذا التيار. وقد تمّ الإعلان رسميًا من قبل حزب الوفد عن أصول ومفاهيم من قبيل: الحرية، والقومية، وفصل الدين عن السياسة، والنظام الديمقراطي للدولة، وقد ألزم هذا الحزب نفسه بهذه المفاهيم. وفي ظلّ انهيار الخلافة العثمانية والسعي إلى الحصول على الاستقلال ومكافحة الجهات الاستعمارية للحكومات العربية القائمة، كان هذا النوع من المفاهيم والأفكار يعدّ تقدميًا ومغريًا للغاية. إنّ طه حسين بوصفه كاتبًا وأديبًا مستنيرًا كان يرى جميع هذه الجهود تابعةً للقبول بمباني الحداثة. إنّ الاستقلال مهم بالنسبة إلى طه حسين، ولكنه لا يراه غايةً نهائيةً، بل هو مجرّد وسيلة للوصول إلى المدنية وتغيير نمط الحياة المصرية.

لقد تزامنت عودة طه حسين من فرنسا بتوفّر الأراضيات لتحقيق الاستقلال لمصر. وفي هذا المسار كان هناك تنافسٌ حادٌّ بين حكومة عدلي باشا وحزب الوفد برئاسة سعد زغلول، وكان هذا التنافس يحول دون الاستقلال. وفي البداية كان هناك اختلاف حول تسمية تغيير النظام السياسي في مصر سنة ١٩٥٢ م. كان هناك من يقول بإحداث التحوّل السياسي، وذهب بعضٌ آخر إلى القول بالثورة، وكان طه حسين هو أوّل من أطلق على هذه الأحداث عنوان الثورة^١. وقد أدّت هذه الثورة إلى كثيرٍ من الأحداث السياسية والاجتماعية.

الخلفيات الاقتصادية

لقد كانت مصر تعاني كثيرًا من المشاكل والمعضلات الاقتصادية الكبيرة آنذاك. وقد كان طه حسين يمثل نموذجا للفرد المصري المنتمي إلى الطبقة السفلى من المجتمع. لقد كانت الحالة الاقتصادية لأسرة طه حسين متوسطة الدخل، وكان منزل الأسرة يستقبل كثيرًا من الضيوف. وكان والده يحصل على نفقات الحياة بصعوبةٍ ومشقةٍ بالغةٍ من أجل الإنفاق على ضيوفه وعلى تعليم أولاده مهما كلفه ذلك.

وفي الأزهر الشريف كذلك لم تكن الحالة الاقتصادية للأساتذة والطلاب جيدةً أو متوازنة. فقد كانت أحذية الطلاب في الأزهر تُسرق على الدوام وكان يتعيّن على الطلاب أن يراقبوا أحذيتهم كي لا تطالها السرقة. وكان دَخَل طه حسين وشقيقه عبارة عن النقود التي كان والدهما العجوز يرسلها إليها من القرية إلى القاهرة في كلّ سنة. وكانت حالتها المادية من الضيق بحيث تأثرت إلى حدٍّ كبيرٍ بسبب شرائها

١. كُرَيْم، طه حسين فكر متجدّد، ٤٤.

دُرَجًا قديمًا للكتب. وقد وصف طه حسين الحالة الاقتصادية للطلاب الساكنين معه ومع أخيه وفي الحجرات المجاورة بأنّها كانت مترديةً للغاية. كما لم يكن الوضع الاقتصادي للساكنين في تلك المنطقة أفضل حالًا منهم.

كان كلّ شخصٍ حاصلٍ على شهادة من الأزهر يحصل في صباح كلّ يومٍ على بضعة أرغفة من الخبز، وفي ضوء الدرجة الحاصل عليها في شهادته يحصل على راتبٍ شهري يتراوح ما بين ٧٥ قرشًا و ١٥٠ قرشًا. وكان الأستاذ من الدرجة الأولى في تلك المرحلة يتقاضى راتبًا شهريًا قدره ثلاثة جنيهاتٍ ونصف الجنيه. وكانت جراية الخبز والراتب الشهري يختلف في كلّ رواق في الأزهر. والذي كان يترك الدراسة كان يتعيّن عليه الحصول على الرزق من القراءة في مجالس العزاء أو تلاوة القرآن الكريم في بيوت الناس.

وكانت مكافأة طه حسين على قبول أطروحته على مستوى الدكتوراه بدرجة جيّد، وتخرّجه من الجامعة عبارة عن عشرين جنيه مصري، ما يعادل الراتب الشهري لشقيقه أو ما يحصل عليه والده شهريًا بعد عملٍ شاق. وكان بإزاء دراسته في فرنسا يحصل من الجامعة على اثني عشر جنيهًا في الشهر. إنّ هذا المبلغ على الرغم من أنّه كان ينبغي أن يغطي كذلك نفقات شقيقه — الذي كان من الضروري أن يرافقه في فرنسا — يُعدّ كافيًا بالقياس إلى وضعها في الحياة في مصر؛ وذلك لأنّ مستوى المعيشة في فرنسا — أو في الحدّ الأدنى في مدينة مونييليه — كان منخفضًا ورخيصًا. وقد علم لاحقًا — بطيبة الحال — أنّ والده العجوز بدوره كان من حين لآخر يرسل إلى أخيه الأكبر مبلغًا من المال يصل في بعض الأحيان إلى عشرين جنيهًا

مصريًا ليكون نفقه له ولأخيه في فرنسا، ولكنه كان ينفق هذا المقدار من المال على أسرته دون أن يخبر أباه بذلك.

الأنشطة العلميّة والتوجّهات النقديّة

لقد كتب طه حسين عشراتٍ من الكتب والمقالات في مختلف الحقول والمجالات، من قبيل: الأدب، والرواية، والسير الذاتية بقلمه، بالإضافة إلى التاريخ التحليلي، والانتقادات السياسية والاجتماعية، وترجمة بعض الكتب والنصوص المسرحية أيضًا. وكان مضمون بعض مقالاته في الحقيقة والواقع نصوصًا لحوارات أجريت معه في الإذاعة. وفي حقل الأدب كان أغلب مقالاته قد تمّ جمعها ضمن كتب تمّ نشرها على شكل سلسلة من المقالات. وأمّا مقالاته الاجتماعية السياسية، وأعدادها كثيرة جدًا، فهي ليست كذلك.

لقد كان طه حسين وافر النشاط، ولم يكن يترك القراءة والكتابة سواء في السفر أم الحضر. بل لم يكن يتخلّى عن العمل حتى في الأسفار الترفيهية التي كان يقوم بها مع أسرته لطلب الاستجمام في المنتجعات. من ذلك يمكن لنا أن نشير — على سبيل المثال — إلى كتابه (مع أبي العلاء في سجنه ١٩٣٨م)، الذي ألفه طه حسين — بعد قراءة آثار أبي العلاء المعرّي التي كان قد أخذها معه — أثناء تلك الرحلة الاستجمامية. وقد تمّت ترجمة بعض أعمال طه حسين إلى اللغة الفارسية والإنجليزية والفرنسية والعبرية والصينية والروسية والأردية أيضًا.

من الضروري النظر إلى تاريخ نشر هذه الأعمال وترتيبها، من أجل الفهم الدقيق لنظريات طه حسين وتحولاتها المحتملة. إنّ أعمال طه حسين بحسب ترتيب تاريخ

صدورها وانتشارها على النحو الآتي: ذكرى أبي العلاء (١٩١٤م)، وأطروحته على مستوى الدكتوراه في جامعة مصر، وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية (١٩١٧م)، والذي يمثل أطروحته على مستوى الدكتوراه من جامعة السوربون الفرنسية. والظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الآلهة وأثرها في المدينة (١٩١٩م)، ودروس التاريخ القديم في الجامعة المصرية (١٩١٩ - ١٩٢٤م)، ويحتوي هذا الكتاب على أبحاث قام بتدريسها بعد عودته من فرنسا بوصفه أستاذًا لمادة التاريخ اليوناني والروماني القديم. وصحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان (١٩٢٠م)، والواجب القديم (١٩٢١م) لمؤلفه جول سيمون، والذي ترجمه طه حسين مع محمد رمضان من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. ونظام الأثنين (١٩٢١م) لأرسطو والذي ترجمه طه حسين من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية. وروح التربية (١٩٢١م) لمؤلفه جوستاف لوبون، وقد ترجمه طه حسين من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. وقصص تمثيلية لجماعة من أشهر الكتاب الفرنسيين (١٩٢٤م)، وقادة الفكر (١٩٢٥م).

وحديث الأربعاء (١٩٢٥ - ١٩٢٦م)، وهو عبارة عن سلسلة مقالاته التي صدرت له في جريدة السياسة. وفي الشعر الجاهلي (١٩٢٦م)، وفي الأدب الجاهلي (١٩٢٧م)، وهو كتاب (في الشعر الجاهلي) نفسه بعد حذف فصول منه، وإضافة فصول أخرى إليه. وفي الصيف (١٩٢٨م)، والأيام (١٩٢٩م)، ودعاء الكروان (١٩٣٤م)، ومن بعيد (١٩٣٥م)، ومن حديث الشعر والنثر (١٩٣٦م)، والقصر المسحور (١٩٣٧م)، والحبّ الضائع (١٩٣٨م)، ومستقبل الثقافة في مصر (١٩٣٨م)، ومن الأدب التمثيلي اليوناني (١٩٣٩م)، ولحظات (١٩٤٢م)، وعلى

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٦٣

هامش السيرة (١٩٤٣م) الذي يراه طه حسين في الغالب عملاً أدبياً وكتابات عاطفية لا ينظمها ترتيب مسبق ولا يعدّه عملاً علمياً.

وصوت بارييس سلسلة قصصية تمثيلية (١٩٤٣م)، وأحلام شهرزاد (١٩٤٣م)، وشجرة البؤس (١٩٤٤م)، وجنة الشوك (١٩٤٥م)، وفصول في الأدب والنقد (١٩٤٥م)، وصوت أبي العلاء (١٩٤٥م)، وعثمان (١٩٤٧م)، والقسم الأول من الفتنة الكبرى الذي يتناول فيه أسباب وقوع الثورة على الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

ورواية زديج أو القضاء (قصة شرقية ١٩٤٧م). وإندربيه جيد: من أبطال الأساطير اليونانية (١٩٤٧م)، ورحلة الربيع (١٩٤٨م)، والمعذبون في الأرض (١٩٤٨م)، ومراة الضمير الحديث (١٩٤٩م)، والوعد الحق (١٩٥٠م)، وجنة الحيوان (١٩٥٠م)، وألوان (١٩٥٢م)، وبين بين (١٩٥٢م)، وعلي وبنوه (١٩٥٣م)، والقسم الثاني من كتاب الفتنة الكبرى، والذي تعرّض فيه إلى تحليل تداعيات الثورة ضدّ عثمان بن عفان، وفترة حكم الإمام علي عليه السلام، والأحداث التي تلت ذلك، وصولاً إلى ثورة عاشوراء.

وشرح لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري (١٩٥٥م) الذي كتبه بمساعدة الأستاذ إبراهيم الأبياري. ومن هناك (١٩٥٥م)، وخصام ونقد (١٩٥٥م)، ونقد وإصلاح (١٩٥٦م)، ورحلة الربيع والصيف (١٩٥٧م)، ومن أدبنا المعاصر (١٩٥٨م)، ومراة الإسلام (١٩٥٩م)، ومن لغو الصيف (١٩٥٩م)، ومن أدب

التمثيل الغربي (١٩٥٩م)، وأحاديث (١٩٥٩م)، والشيخان أبو بكر وعمر بن الخطاب (١٩٦٠م)'.^١

ويمكن تقسيم أعماله من الناحية الموضوعية إلى أقسامٍ أخرى أيضًا، وقد قام أنور الجندي بتقسيم أعمال طه حسين إلى ثلاثة أقسام، وهي: قسم الأدب العربي واللغة، وقسم تاريخ الإسلام والسيرة، وقسم الفكر الإسلامي.^٢

١. السيرة الذاتية لطفه حسين بقلمه

إنَّ أعمال طه حسين التي هي من قبيل: الأيام، وفي الصيف، ومن بعيد، والأديب ورحلة الربيع، هي في الغالب تمثّل السيرة الذاتية لحياة طه حسين بقلمه. إنَّ كتاب الأيام في ثلاثة أجزاء عبارة عن السيرة الذاتية لطفه حسين بقلمه، وقد تمّت ترجمته إلى أكثر من عشر لغاتٍ من اللغات الحية في العالم. إنَّ طه حسين لا يأتي على ذكر اسمه في هذا الكتاب بشكلٍ صريح، وإنَّها يشير إلى نفسه بأوصاف من قبيل: (الطفل)، و(صاحبنا)، و(الشاب)، أو يعبر عن نفسه بضمير الغيبة. وقد تحدّث في الجزء الأول عن حياة أسرته ودراسته في الكتاب، وتحدّث في الجزء الثاني والثالث من هذا الكتاب عن دراسته في الأزهر وفي جامعة القاهرة وجامعة مصر، والرحلة إلى فرنسا.

٢. الأعمال القصصيّة والروائيّة

إنَّ بعض أعمال طه حسين، من قبيل: جنة الحيوان، ودعاء الكروان، والقصر

١. عيد، طه حسين العقل والدين بحث في مشكلة المنهج، ٢٦ - ٣٤.

٢. الجندي، محاكمة فكر طه حسين، ١٠.

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٦٥

المسحور، والمعدّبون في الأرض، من بين الأعمال التي كتبها طه حسين بأسلوب الأدب القصصي والروائي وتناول فيها توصيف وتحليل الموضوعات والمسائل الاجتماعية. وحيث كان طه حسين بطبعه كاتباً أدبياً، فقد اتسمت سائر أعماله العلمية في كثيرٍ من الموارد بصبغةٍ قصصيةٍ وأدبية.

إنّ كتاب (المعدّبون في الأرض)، عبارةٌ عن مجموعةٍ قصصيةٍ ترصد آلام وأوجاع الطبقات الاجتماعية في مصر ومعاناتها بسبب المشاكل والمنغصات الاجتماعية التي عاشها الشعب المصري في عقد الأربعينات بشكلٍ عام. وقد رصد في هذا الكتاب ظاهرة الفقر والأوبئة، والشرخ الطبقي، والجهل وعدم المساواة، والظلم بأسلوبٍ قصصي مع وصفٍ دقيقٍ للتفاصيل؛ بحيث يصل القارئ إلى فهمٍ عميقٍ للأوضاع التي كان يعاني منها الفرد المصري في تلك الحقبة الزمنية.

٣. الأعمال المترجمة

لقد ترجم طه حسين بعض الأعمال من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. ومن بينها كتاب الواجب لجول سيمون، وأندروماك لمؤلّفه راسين. كما يحتوي كتاب النقد والإصلاح (١٩١٧م)، لطه حسين على قصصٍ لكاتب فرنسيين وألمان مترجمة إلى اللغة العربية، وتمّ العمل على تحليلها.

٤. الأعمال النقدية والاتجاه النقدي

إنّ المزاج النقدي لطه حسين — الذي يعود بجذوره إلى مرحلة طفولته — قد طغى على جميع أعماله تقريباً، بيد أنّ بعضها بشكلٍ عامٍ قد تمّ تأليفه في ضوء الاتجاه النقدي

البحث. ومن بين هذه الأعمال: تجديد ذكر أبي العلاء، وحديث الأربعاء، وفي الشعر الجاهلي، وحافظ وشوقي، ومن حديث الشعر والنثر مع المتنبي، ولحظات، وفصول في الأدب والنقد، ونقد وإصلاح. ويمكن تقسيم أعماله النقدية إلى أقسامٍ متنوّعة، من قبيل: النقد الأدبي، والنقد الاجتماعي، ونقد التراث.

النقد الأدبي

لقد ذكر طه حسين الأبحاث الأدبية في البرامج الإذاعية، والحوارات والمذكرات الكثيرة والمبعثرة، وقد انتشر جزءٌ كبيرٌ منها ضمن سلسلة من خمسة عشر مجلداً، وعنوانات من قبيل: بين بين (١٩٢٥م)، وأحاديث (١٩٥٧م)، وتقليد وتجديد (١٩٧٨م)١، ونقد وإصلاح (١٩٨٧م).

وقد تناول طه حسين في بعض هذه الأعمال بحث المسائل الاجتماعية والثقافية والسياسية أيضاً. من ذلك — على سبيل المثال — أن كتاب (تقليد وتجديد ١٩٧٨م)، حصيلة عشرين برنامجاً إذاعياً حول موضوع التقليد والتجديد في الأدب العربي عبر التاريخ، وقد تمّ تدوينه بواسطة شكري فيصل. وقد بحث طه حسين في هذا الكتاب التطور الأدبي في مختلف المراحل منذ صدر الإسلام إلى المرحلة المعاصرة، مع بيان النسبة بين الأدب والسياسة، وتأثير الشعراء البارزين.

وقد عمد طه حسين في كتاب نقد وإصلاح (١٩٨٧م)، إلى نقد قصص بعض الكتاب الفرنسيين والألمان والجزائريين والمصريين، وتناول فيه تأثير بعض الفلاسفات من قبيل الوجودية وما إلى ذلك. كما تناول في هذا الكتاب المقارنة بين

١. طه حسين، تقليد وتجديد.

الأدب المسرحي في مصر وعند المسلمين وبين الغرب، وتعرض إلى الحديث عن تاريخ الشعر العربي، والنهضة الأدبية المعاصرة في مصر، وأساليب انتقال الأدب إلى الأجيال اللاحقة، وتحدث عن ترجمة الفلسفة وعدم ترجمة الأدب والشعر الإغريقي إلى اللغة العربية. والنقطة الأخيرة تعبر عن دقة طه حسين وعمق نظره اللامحة. فإنّ ترجمة الفلسفة الإغريقية واليونانية إلى اللغة العربية في عصر الترجمة، وعدم ترجمة الأعمال الخاصة بالأساطير والأدب وغير ذلك من الموضوعات، مسألة مهمّة وجديرة بالاهتمام والتحليل. خلافاً لهذه المرحلة التي يتمّ فيها انتقاء واختيار الأعمال الغربية على نحو غير شعوري، ومن دون رعاية التوجيهات العلمية.

وإنّ كتاب (مع أبي العلاء في سجنه)، يندرج بدوره ضمن هذه المجموعة من الكتب. وقد ذكر في الفصل الأول من هذا الكتاب أنّه قد سبق له قبل ربع قرن أن ذكر سيرته بالتفصيل، ولا ينوي في هذا الكتاب أن يعيد تكرار تلك الأبحاث^١. وقد اعترف بأنّ هذا الكتاب — بسبب حبه لأبي العلاء المعري — لن يكون كتاباً علمياً ونقدياً، وسوف يكون أقرب إلى الكتابة العاطفية حول صديق، ويمكن له أن يكون شبيهاً بالكتاب الذي يرفع التعب عن القارئ ويغنيه من عناء قراءة الكتب العلمية^٢. بيد أنّه يتعرّض إلى وصف آراء أبي العلاء المعري الخاصّة بالأبحاث الفلسفية والمسائل الوجودية التي كانت تشغل اهتمام المعري، ويعمل في الحقيقة على رسم أهمّ المسائل التي تفرض نفسها على المفكّر المسلم، وطريقة التعامل معها.

١. طه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، ١٧.

٢. م. ن، ٢٢.

يسعى طه حسين في أعماله الأدبية إلى توظيف الأساليب الحديثة في التحليل التاريخي، ليصل بوساطتها إلى إعادة قراءة ونقد التراث الإسلامي. وقد سبق لهذا الأسلوب أن تمّ توظيفه بنحوٍ عامٍّ في قراءة التراث اليهودي والمسيحي، وكان طه حسين بدوره يرغب في أن يكون مشروع إعادة لتجربة عصر التنوير، ولكن فيما يتعلق بالتراث الإسلامي هذه المرّة. وربما نشأت هذه الرغبة عنده بتأثير من رينيه ديكارت. وكذلك كلام لطفي السيد الذي قال له ذات مرّة: إنك ستصل في مصر إلى المنزلة التي وصل إليها فولتير في فرنسا.

النقد الاجتماعي

إنّ الطائفة الأخرى من أعمال طه حسين تختص بالتحليل والنقد في مختلف الحقول الاجتماعية والسياسية والثقافية، أو اتجاه وأسلوب أشخاص من أمثال ابن خلدون. وحيث إنّ أغلب أعمال طه حسين ذات توجهٍ نقديّ، فإنّ الأعمال التي يرد ذكرها في هذه الطائفة سوف تتداخل وتتماهى مع أعماله الأخرى. ومن بين هذه الأعمال يمكن ذكر العنوانات الآتية:

الفتنة الكبرى، ومرآة الإسلام، وفي الصيف، ومن بعيد، وأديب ورحلة الربيع، وتجديد ذكر أبي العلاء، وحديث الأربعاء، وحافظ وشوقي، ومن حديث الشعر والنثر مع المتنبي، ولحظات، وفصول في الأدب والنقد، ونقد وإصلاح، وعلى هامش السيرة، والوعد الحق وفلسفه ابن خلدون الاجتماعية.

إنّ طه حسين في كتاب الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون — بوصفه في طليعة المفسرين لابن خلدون — يقدمُ فيها نقدياً لمقدمة ابن خلدون. وقد سعى من خلال

نقده لتفسير المستشرقين لابن خلدون أن يثبت الروح العربية الحاكمة على الفضاء الفكري لابن خلدون^١. وقد تعرّض بنحوٍ تامٍ وصريحٍ في ضوء الاتجاه النقدي إلى بحث حياة ابن خلدون وآرائه في المقدمة. إنّ ابن خلدون من وجهة نظر طه حسين شخصٌ أناني ورجسي يسعى إلى توظيف الدين، واتّخاذ وسيلةً للحصول على مصالحه الشخصية، وهو بالإضافة إلى ذلك يستسهل خيانة السلاطين من أجل الوصول إلى منزلة أرفع.

وإنّ مفهوم الوطن عند ابن خلدون هو حيث يحصل على حياةٍ مرفّهة ويكون المقام المناسب معدًّا بالنسبة له^٢. إنّ طه حسين من خلال دراسته النقدية لأسلوب المقدمة، يضع ابن خلدون خارج دائرة علماء الاجتماع؛ وذلك لأنّ أسلوب ابن خلدون — من وجهة نظره — لم يتحرّر من قيود عادات عصره، وعليه لا يمكن عدّه أسلوبًا علميًا. ومن هنا فإنّ ما قام به ابن خلدون لا هو من العلم ولا هو من التاريخ، بل يجب تسميته فلسفة اجتماعية^٣. إنّ ابن خلدون — من وجهة نظر طه حسين — لا يلتزم في مقدمته بأسلوب واحد، بل يلجأ تارةً إلى الأسلوب التجريبي، وتارةً يبحث ميتافيزيقيًا، وتتجلّى أبعاده الكلامية في أسلوبه تارةً أخرى أيضًا^٤.

لقد صدر كتاب (مستقبل الثقافة في مصر عام ١٩٣٧ م)، بالتزامن مع الاستقلال النسبي لمصر عن إنجلترا. وقد تعرّض في هذا الكتاب إلى بحث المستقبل الثقافي

١. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ٦.

٢. م. ن، ٢٥.

٣. م. ن، ٦٥.

٤. م. ن، ٦٢ و٦٣.

لمصر، واستعرض فيه شدة شغفه وتعلقه بالغرب. وقد استنتج من سيطرة الفرس على مصر لعدة قرون قبل الميلاد ومقاومة المصريين في مواجهة هذه الثقافة الأجنبية، مقدمة لإثبات تعلق المصريين بالعالم الغربي. وهو يرى أن الثقافة المصرية تنتمي إلى الغرب، ويذهب إلى الاعتقاد بأن الإسلام لم يتمكن هو الآخر من التأثير في ماهية الثقافة المصرية أيضاً. ويقترح في نهاية المطاف على المصريين بأن يسلكوا مسار الأوروبيين ولا سيما الفرنسيين منهم، لكي يصلوا إلى مراتبهم ومستوياتهم، وأن يتشاركوا معهم في حضارتهم بقضيتها وقضيضها، حسناتها وقبحها، وحلوها ومرها، والمحبوب منها والمذموم فيها، أو ما يكون مصدرًا ملدحهم أو ذمهم^١. ويحتوي هذا الكتاب على أهم أبحاثه حول بنية ومضمون النصوص التعليمية والمعلمين في النظام التعليمي في مصر، ونسبة الدراسات الابتدائية والمتوسطة والعالية.

نقد التراث في ضوء الاتجاه الحديث

يعمد طه حسين في الغالب إلى جعل التراث الإسلامي موضوعاً للنقد والتحليل في ضوء التوجهات الحديثة. وإن أعمالاً من قبيل: الفتنة الكبرى، ومراة الإسلام، وفي الشعر الجاهلي، تندرج ضمن هذه المجموعة من الأعمال. إنه يبحث في هذه الأعمال — بشكلٍ عامٍ — عن جذور المشاكل التي تعاني منها مصر أو العالم الإسلامي حالياً في المسائل السابقة، وينشد تحقيق الحداثة المصرية والعودة إلى مصر الغربية من طريق إحداث التحوّل الجذري للنظام التعليمي من أجل إعداد جيلٍ يتناسب مع ظروف ذلك العصر. إن تأكيد طه حسين على تحوّل النظام التعليمي بوصفه نقطة رئيسة في

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٥٤، نقلاً عن فخري، ٣٧٣.

الانطلاق نحو تكامل المجتمع أو سقوطه وانحطاطه، مسألة صارت لاحقاً مورداً لاهتمام الكثير من العلماء والمفكرين من أمثال: نقيب العطاس، وجابر العلواني، وإسماعيل راجي الفاروقي، وآية الله الشيخ مهدي كني، وآية الله السيد الأردبيلي، وآية الله السيد منير الدين الهاشمي، والعلامة الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي أيضاً.

لقد بحث طه حسين في كتاب (الفتنة الكبرى) أسباب الاختلاف القائم بين المسلمين، وهو الاختلاف الذي لا يزال قائماً، وقد يبقى إلى الأبد^١. يمكن عدّ هذا الكتاب من بين الكتب التمهيدية في حقل علم الاجتماع التاريخي. وقد سعى طه حسين في قسم من هذا الكتاب إلى بحث تطابق سيرة عثمان بن عفان مع الكتاب والسنة وسيرة الخليفين الأولين. وهذه الطريقة أخذ يبحث عن شرعية خلافة عثمان بن عفان، وقد ذهب في ذلك إلى الاعتقاد بأن عثمان حيث لم يلتزم بالعهد الذي قطعه للمسلمين على نفسه، لم تكن إطاعة المسلمين له واجبة. وإلا لما جاز للمسلمين معصيته ناهيك عن التمرد والخروج عليه وقتله^٢. وقد عمد طه حسين في الجزء الأول من هذا الكتاب إلى تحليل الأحداث التي أدت إلى مقتل عثمان بن عفان^٣. يرى طه حسين أنّ إضاعة عثمان لخاتم النبي الأكرم ﷺ، قد أدت إلى سوء ظنّ المسلمين به، وقد بقيت هذه المسألة حاضرةً في ذاكرتهم^٤. يذهب طه حسين في

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١: ١ و٢.

٢. م. ن، ١٩٧-١٩٩.

٣. م. ن، ٦٥-٩٥.

٤. م. ن، ٢٠٠-٢٠١.

هذا الكتاب بشكلٍ عامٍّ إلى الدفاع عن عثمان بن عفان، ويردّ على الأدلة الموجهة ضدهً واحدةً بعد واحدة، أو يعمل على تأويلها وتبريرها.

وقد تعرّض طه حسين في كتاب (مرآة الإسلام) إلى بحث تاريخ صدر الإسلام. وقد عمد في الكتاب الأول منه إلى بحث الأوضاع السياسية والاجتماعية للعرب قبل الإسلام، والبعثة ومسار الدعوات السرية والعلنية للنبي الأكرم ﷺ، ومواجهة النبي الأكرم ﷺ مع اليهود والنصارى والمنافقين، وبحث الخلافة بعد رحيل النبي الأكرم ﷺ. وقد أشار في الكتاب الثاني إلى سيرة النبي الأكرم ﷺ والأبحاث الدائرة حول الكتاب والسنة، وبعد ذلك تحدّث عن تاريخ الخلفاء وحكم معاوية، والاختلافات المذهبية، وظهور الفرق المذهبية والاجتماعية من قبيل: الباطنية، والتصوّف، وظهور المذاهب الأربعة، وتطوّر العلوم وأفولها.

وقد سعى طه حسين في كتابه المعروف (في الشعر الجاهلي ١٩٢٦م) — من خلال إظهار النقد الأدبي الحديث — إلى تحليل التراث الأدبي العربي والإسلامي. إنّ هذا الكتاب يعدّ عملاً نقدياً وثمره لتعاطي الذهن الناقد لطله حسين ونص من الماضي في ضوء الاستعانة بالمنهج الديكارتى. لقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٥م، وأثار زوبعةً كبيرةً من النقاش والجدل. وبسبب الآراء التي ذكرها في هذا الكتاب تم تكفيره من قبل الأزهر الشريف، وسُحب كتابه من الأسواق. وقد ذهب طه حسين في هذا الكتاب إلى الاعتقاد بأنّ ما كان يُعرف في تاريخ العرب بوصفه من الشعر الجاهلي، إنّما يعود تاريخه إلى ما بعد الإسلام، وقد تمّ انتحاله من قبل بعض المفكرين المسلمين بدوافع قبلية وسياسية.

الفصل الثاني: الخلفيات غير المعرفية ❖ ٧٣

إنّ هذه الآثار تعمل من وجهة نظره على بيان الوضع الاجتماعي والسياسي في صدر الإسلام. إنّ هذا الادّعاء القائل بأنّ النصوص المتعلّقة بالجاهلية قد تمّ تدوينها بعد الإسلام ولا سيّما في عصر الخليفة الثاني بدوافع البحث عن هوية جديدة للعرب في قبال العجم، قد حظي باهتمام المفكرين اللاحقين وقبولهم من أمثال محمد عابد الجابري^١ أيضًا.

١. الجابري، «عابد الجابري وعقلانيت انتقادي در تهافت بر فلسفه مشرق».

الفصل الثالث: الأسس المعرفية لطفه حسين

إنَّ أغلب العلماء والمفكرين إنما يستقون أسسهم المعرفية بنحوٍ غير شعوري من الفضاء العلمي السائد في المجتمع أو النُخب المؤثرة. وقد تأثر طفه حسين بدوره بكثيرٍ من الشخصيات، وقد أثنى على بعض العلماء المصريين أيضًا. وكان يشعر بالتماهي والتعاطف مع بعض الأشخاص من أمثال أبي العلاء المعري. ولكنّه كان في الغالب متأثرًا بالمفكرين الغربيين.

لقد كان أبو العلاء المعري من بين الأشخاص الذين تركوا تأثيرهم على طفه حسين. وقد تحدّث محمد إقبال اللاهوري في مناسبة، وقال إنّه وقف وآخرون على قبر أبي العلاء المعري في الذكرى الألفية له، وإنّ طفه حسين طلب في ختام المناسبة أن نتركه وحده لبضعة دقائق مع جدّ أبي العلاء المعري؛ كي يبثه لواعج نفسه ويناجيه. إنّ الشبه الكبير القائم بين أبي العلاء المعري وطفه حسين من حيث إصابتها بالعمى في الصغر، والمحن التي كابدها كلّ واحدٍ منهما بسبب حالتها الخاصة، جعلت طفه حسين يأنس بآثار المعري إلى حدّ كبير. وقد صرّح مرارًا وتكرارًا بحبّه ومودّته لأبي العلاء المعري^١. وقد كان طفه حسين كلّما شعر بمتعة الحياة، أو رأى السعادة بادية على أولاده وزوجته حيث يكونون في أحضان الطبيعة، ينتقل ذهنه

١. طفه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، ١٨، و٥٧.

سريعاً إلى أبي العلاء المعري ويبدأ بالتحاور معه ومناجاته. لقد كان المعري شديداً التشاؤم تجاه الدنيا، وينظر إلى ملذاتها بريية، وكان طه حسين يدخل معه على الدوام في مناظرة ذهنية وفكرية^١.

لقد كان أبو العلاء المعري - باعتراف طه حسين - شاعراً وفيلسوفاً متشائماً يُسيء الظن بالدنيا، وكان منكرًا لوجوب كثيرٍ من العبادات^٢. وأما حجم التأثير الذي تركه حبّ طه حسين لأبي العلاء المعري في أفكاره وإيانه، فهذا الأمر يحتاج إلى مزيدٍ من البحث والتحقيق.

لقد عمد طه حسين في مقدمة كتابه (مع أبي العلاء في سجنه)، إلى التعريف بالمستشرق الفرنسي المعروف ماسينيون بوصفه صديقاً له، وأنها كانا يتحاوران في المسائل العلمية^٣.

يعمد طه حسين على توظيف المنهج الديكارتي. وكان يميل إلى أداء ذات الدور الذي لعبه رينيه ديكارت في التراث الفلسفي الغربي، وإعادة إبداعه ولكن بالنسبة إلى التراث الإسلامي، وأن يؤسس بذلك لنوعٍ من الفهم الحديث والفلسفة عن التراث الإسلامي والعربي، وأن يعمل على إثراء أسس الحداثة من الناحية النظرية. ولكن ردود الأفعال تجاه مشروعه كانت من الحدة بحيث اقتنع أخيراً بضرورة إعادة النظر في الخطة الكاملة لمشروع التجديد. وهناك - بطبيعة الحال - من ذهب

١. م. ن، الفصل الأول.

٢. م. ن، ١١٨ - ١١٩.

٣. م. ن، الفصل الأول.

إلى القول بأنّ توظيف طف حسين للمنهج الديكارتى إنّما كان أسلوباً مضللاً، إذ إنّ المنهج الذى سار عليه طف حسين يختلف عن منهج رينيه ديكارت إلى حدّ كبير^١. كما قد استفاد طف حسين من آراء إميل دوركهايم أيضاً، وقد اختار رسالته على مستوى الدكتوراه بمشورة منه. وكان فى كثيرٍ من الموارد — ومن بينها نقده لابن خلدون واتهامه بالسذاجة والقصور وفساد الأسلوب — متأثراً بأستاذه اليهودى إميل دوركهايم^٢.

اتجاه طف حسين

إنّ طف حسين من المفكرين المجدّدين، وهو من الرعيل الأول الذى ترك تأثيراتٍ كبيرةً على من جاء بعده من المفكرين. وحيث إنّ مواجهة المسلمين مع الغرب الحديث قد شملت جميع أنحاء العالم الإسلامى وقد شغلت أذهان كثيرٍ من المفكرين بها^٣؛ كان من الضرورى الاهتمام بموقف طف حسين تجاه الغرب من أجل تعيين موقعه من التيارات الفكرية فى العالم الإسلامى. يتم تقسيم المفكرين فى العالم الإسلامى إلى طائفتين، وهما: علماء ما قبل المواجهة مع الحداثة (المتقدّمون)، وعلماء ما بعد المواجهة مع الحداثة (المعاصرون).

هناك من بين المفكرين المعاصرين من سلك مسار المتقدّمين من دون خوضٍ ونزاعٍ وبحثٍ حول الغرب والحداثة عبر السكون أو النبذ أو المواجهة. بينما قام

١. الجندي، محاكمة فكر طف حسين، ١٣٨.

٢. م. ن، ١٥.

٣. علمى، «مصاحبه با حجت الاسلام دكتور جعفر علمى در جريان شناسى اعتزال نو»، ٣٨.

بعضهم بنبذ التراث دون الالتفات المباشر إليه، وعدّوا الغرب برمّته أمراً مطلوباً. وذهبت مجموعةٌ ثالثةٌ — لأسبابٍ مختلفةٍ — إلى القول بعدم جدوائية التبعية البحثية للغرب، ولكنها تسعى إلى التبرير الديني والثقافي للغرب. وذهبت مجموعةٌ رابعةٌ إلى السعي إلى انتقاء المفاهيم من الغرب في ضوء الاتجاه النقدي والفعال. ويمكن تسمية هذه الأنواع الأربعة من المجموعات على الترتيب، بـ(الجماعة التقليدية المعزول)، و(الجماعة المعاصرة المجرّدة)، و(الجماعة المعاصرة الكامنة)، و(الجماعة التقليدية الناشطة).

إنّ طه حسين في بداية نشاطه العلمي كان منخرطاً في المجموعة الحديثة بشكلٍ واضحٍ، ولكنه بعد تأليف كتاب (في الشعر الجاهلي)، وما تبع ذلك من تبعاتٍ وتداعياتٍ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ حادةٍ، أخذ يراعي جانب الحذر إلى حدّ ما وصار يميل إلى التيار الحديث الكامن. ولكن لا بدّ من الالتفات بنحوٍ عامٍّ إلى أنّ المفكرين المسلمين في بداية المواجهة مع الغرب قد تعرّضوا للإصابة بنوعٍ من الحيرة والضياع أيضاً؛ وذلك لأنّ الماهية والعمق العلمي والفلسفي للغرب لم يكن قد تبلور بشكلٍ واضحٍ. ولا سيّما بالنسبة إلى المفكرين من أمثال طه حسين الذي انتقل من دراسة غير مكتملةٍ في المدارس الدينية مثل الأزهر الشريف إلى الجامعة، ثم انتقل بعد ذلك إلى مواصلة الدراسة في الغرب، يجب أن نرصد تحليلاً مختلفاً بالنسبة لهم؛ وذلك لأنّه لم يكن بمقدورهم أن يصلوا إلى فهم العمق الفكري والفلسفي للغرب والتعرّف على نقاط قوته وضعفه.

التحليلات الاجتماعية

لا يمكن عدّ ظه حسين عالم اجتماع بالمعنى الدقيق للكلمة. بيد أنّ بعض تحليلاته الاجتماعية تنطوي أحياناً على بُعدٍ بياني، وتأتي هذه التحليلات تبعاً للتعميمات العالمية الشاملة. إنّ مهمة عالم الاجتماع — من وجهة نظر ظه حسين — عبارة عن فهم المجتمع وذاته بشكلٍ مستقلٍّ عن تأريخه؛ ولهذا السبب فإنّه لا ينظر إلى علم العمران لابن خلدون بوصفه علماً. وذلك لأنّه يتعد عن علم الاجتماع سواء من حيث الموضوع أم من حيث الاستفادة من المناهج غير التجريبية، وأن عنوان الفلسفة الاجتماعية هو الأنسب لها. يذهب ظه حسين إلى الاعتقاد بأن ابن خلدون على الرغم من انتقاده للفلسفة، إلّا أنّه قد عمل على توظيف الفلسفة والاستفادة منها في مجال عمله^١.

إنّ ظه حسين في كتاب (الفلسفة الاجتماعية لابن خلدون)، ينسب القول بسيادة أصل العلية والقانون على الظواهر التاريخية إلى ابن خلدون، ويرى في اعتقاد ابن خلدون بجهالة القبول بالصدفة أو الأسباب الخفية من جهة، والاعتقاد بالآثار الخارقة ونسبتها إلى الله والإيمان بمعجزات الأنبياء، وكذلك قدرة الساحر على تغيير القوانين الطبيعية من طريق الطلاسم، والأوراد والأدعية من جهةٍ أخرى، يرى في ذلك كلّهما متناقضاً. إنّ ظه حسين لا يرتضي بتدخل الأسباب الخارقة للعادة والسحر وما إلى ذلك في نقض قوانين الطبيعة، ويرى أنّ أضرار القبول بها أكبر من أضرار الإيمان بالقوانين الخفية^٢.

١. ظه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ٦١-٦٢.

٢. م. ن، ٦٢-٦٣.

إنَّ تاريخ الإنسان — من وجهة نظر ابن خلدون — بحثٌ اجتماعيٌّ، وللتعرّف عليه وفهمه يجب التعرّف على المجتمع الإنساني. وقد ذهب طه حسين إلى نقد هذا الرأي بالقول إنَّ ابن خلدون في فهم المجتمع الإنساني قد اكتفى بنظرةٍ سطحيةٍ إلى النصوص التاريخية، في حين كان يتعيّن عليه أن يستفيد من النظريات الحاصلة من خلال المشاهدة المباشرة إلى الوقائع^١.

يذهب طه حسين في رسالته المعروفة وفي كتابه في (الشعر الجاهلي) إلى القول بأنَّ البحث والتحقيق العلمي لا يمكن له أن يتحقّق إلا من خلال التخلّي عن المشاعر الدينية والوطنية^٢. إنَّ طه حسين يعمل على رعاية الحياد العلمي في كثيرٍ من الموارد. من ذلك أنّه — على سبيل المثال — ينظر بعين الشكّ إلى جميع الأمور التي تنسبها كلّ فرقةٍ إلى الفرق الأخرى. وفي كثيرٍ من الموارد لا يرتضي الكلام المنسوب إلى الشيعة من قبل خصومهم. إنَّ هذا الاتجاه منه بوصفه من الرعيل الأول للمستشرقين يحظى بأهميةٍ بالغّة؛ وذلك لأنّه يمهد الأرضية للحوارات العلمية والاستماع لكلام سائر الاتجاهات الأخرى.

إنَّ طه حسين على الرغم من رعايته للحياد العلمي، إلاّ أنّه فيما يتعلّق بالأحداث التاريخية يصدر الأحكام، ويرجّح من بين الاحتمالات ما كان هو الأكثر تناغمًا مع عقله. من ذلك — على سبيل المثال — أنّه في نقل الوقائع التاريخية وتحليلها، يأخذ توجهات مؤلّفي المصادر التاريخية ومذاهبهم بنظر الاعتبار، ثم يحكم بما يرتأيه عقله

١. م. ن، ٦٥.

٢. م. ن، ٣٧.

في مورد كلماتهم دون الالتفات إلى المستندات والوثائق التاريخية. إن هذا الأسلوب يمكن القبول به بطبيعة الحال إذا كان مراعيًا للوازمه، من ذلك — على سبيل المثال — لو أن مناوئًا للشيعة قال أو كتب شيئًا ضد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه لا يرتضيه. ومن ذلك مثلًا أنه ينسب هذه الحادثة التي تقول بأن الإمام عليًا قد قتل جماعة من المرتدين في الكوفة ثم أحرقهم، وقد لامة ابن عباس على ذلك، إلى خصوم الشيعة، ويرفض أن تكون صحيحة. ولكن قد يحدث في بعض الأحيان — بسبب عدم الأئس الذهني من قبل طه حسين تجاه ظاهرة ما — ألا يصدر بشأنها حكمًا صحيحًا. وعلى هذا الأساس يجب في هذا الشأن ملاحظة وبحث الوثائق والمستندات التاريخية أيضًا. من ذلك مثلًا أن طه حسين في مورد تأليف كتاب (اللزوميات) من قبل أبي العلاء المعري، يعتقد أنه حيث كان أبو العلاء أعمى، ولم يكن قادرًا على القراءة والكتابة، وأنه من جهة أخرى قد حبس نفسه في بيته على مدى خمسين سنة، بعد أن هجره تلاميذه ولم يعودوا يطرقون باب بيته، ويحتمل أن يكون خادمه كان في كثير من الأحيان يتركه وينصرف إلى شأنه، كان أبو العلاء يبقى بمفرده وحيث لم يكن لديه ما يفعله فإنه كان يجد متسعًا من الوقت للتلاعب بالألفاظ، وهكذا فإنه قد ألف كتاب (اللزوميات) على سبيل التسلية وتزجية الوقت^١.

ولكن هناك أيضًا كثير من الاحتمالات الأخرى التي يتجاهلها طه حسين، ومن بينها أن أبا العلاء المعري كان عندما يبقى وحيدًا ينشغل بتسلياتٍ أخرى أو يخلد إلى النوم، أو أي احتمالٍ آخر يمكن أن يخطر في ذهننا أو في ذهن طه حسين بعد مرور ألف عامٍ على رحيل أبي العلاء المعري.

١. طه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، الفصل السابع.

وكذلك فإنّ طه حسين في نقل بعض التقارير التاريخية والمقارنة بين التقارير المختلفة من دون الاستناد إلى دليل، يذهب — من خلال نسبة الغلو إلى بعض القراءات التي تنقل عن المدافعين عن واقعة ما، ونسبة العصبية إلى التقارير التي ينقلها المخالفون لواقعة ما — إلى قراءة النوايا ويسعى إلى القبول بالحدّ الوسط بوصفه هو التقرير المنطقي.

يُعدّ طه حسين من المخضرمين من طلائع الاتجاه الاجتماعي. فهو يعمل على توظيف علم الاجتماع أو علم الاجتماع التاريخي في تحليلاته دون أن يأتي على ذكر عنوان هذين العلمين. من ذلك — على سبيل المثال — أنّ جميع الاتجاهات الفردانية تعدّ مقتل الخليفة الثالث حادثةً فردية، إلا أنّ طه حسين يسمّي ذلك ثورة، ويقوم على هذا الأساس بتحليل الخلفيات والأسباب الاجتماعية لهذه الثورة. ومن بين الشواهد على اتّخاذ الاتجاه الخاصّ بعلم الاجتماع التاريخي أيضًا، اهتمام طه حسين بهذه النقاط، وهي أنّ المستقبل الثقافي لمصر يرتبط بماضيها السحيق جدًّا، ولكي نبتعد عن الأوهام أو كي لا نجنح مع الخيال يجب علينا أن نفهم مستقبل مصر في الارتباط مع الأزمنة الماضية البعيدة والنظر إلى واقعها الراهن أيضًا، ففي هذه الصورة فقط يمكن أن نأمن من الوقوع في الخطأ عند إصدار الأحكام.

إنّ السؤال الأصلي الذي يذكره طه حسين في هذا الشأن هو: هل تنتمي مصر إلى الغرب الثقافي أم إلى الشرق؟ إنّ هاتين الثقافتين المتعارضتين تضع إحداهما قدميها الراسختين في أوروبا القديمة، بينما تسجّل الأخرى حضورها في الشرق

البعيد^١. إنَّ المحاصيل والمتوجات الثقافية يتمّ تقسيمها اليوم ضمن تقسيمٍ كليّ إلى قسمين، وهما القسم المادي (أو الفيزيقي)، والقسم المعنوي (أو الذهني)، حيث القسم المادي منها يشمل الأشياء والأدوات والأبنية وسائر المتوجات المادية، والقسم المعنوي منها الذي يعدّ الجزء الأصلي منها، يشمل أمورًا من قبيل: العلوم، والمعتقدات، والقيم، والأهداف، والأساطير، والأدبيات، والفنون، والكتابات، والمعايير والنماذج والأمثلة، والسلوكيات.

إنَّ إطلاق مصطلح الثقافة على العناصر المادية إنّما يأتي من مجرد اعتبار الحيثية المفهومية المدرجة والروح المعنوية التي تمّ نفخها في أجسامها. ومن هنا فإنّ فهم الثقافة بوصفها نظامًا مفهوميًا جامعيًا لا يتنافى مع إطلاقها على العناصر المادية، والفيزيقية. كما يتم في بعض الأحيان النظر إلى الثقافة مجردة عن جوانبها المادية، ويطلق عليها عنوان (الحضارة)^٢. يؤكّد طف حسين على مصطلح النظام التعليمي؛ وذلك لاعتقاده بأنّ التطوّر والتقدّم المادي يحتاج إلى إصلاح المعتقدات والقيم والأهداف بوصفها من العناصر المعنوية في الثقافة.

١. طف حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ١٧.

٢. آشوري، تعريفها ومفهوم فرهنك، ١١٤؛ رابرتسون، درآمدي بر جامعهه، ٥٦.

الاتجاه النقدي

إنَّ أحداث عصر حياة طه حسين، جعلته ينشأ منذ طفولته ليكون صاحب شخصية ناقدة. فقد أنكر في صغره رؤية عالم قريته بشأن حفظ القرآن الكريم، وتعرّض للشتم والاعتراض من قبل ذلك العالم وناله سخطٌ شديدٌ من أمّه^١. وكان هناك سببٌ آخر في الأزهر الشريف عمل على تطوير روح النقد لديه. كان طه حسين في مسيره إلى قاعة الدرس ينتبه بشكلٍ خاصٍّ إلى أصوات مختلف الأساتذة؛ كان أساتذة الأزهر في الصباح الباكر يتكلمون بصوتٍ منخفضٍ يشوبه الخمول والنعاس، ويسألون الله المغفرة لمؤلف الكتاب الذي يدرّسونه للطلاب، ولكنهم في وقت الظهيرة يتحدثون بأصواتٍ صاخبةٍ يطغى عليها شيء من الكسل الناجم عن التخمة، ويشنون هجومًا لاذعًا في نقدهم لأصحاب تلك الكتب. إنَّ هذه المقارنة أثارت التعجّب والدهشة لدى طه حسين، وكان الحبور والنقد الكامن في الباطن لهذا السبب يظهر إلى العلن.

وفي أول عطلة للأزهر الشريف بعد سنةٍ كاملةٍ من الدراسة عاد طه حسين إلى قريته، وقد وجه نقدًا لاذعًا لمعلم الكتاب الأمر الذي عرّضه لغضب المعلم وغضب أمّه على السواء. ثم انتقد الأدعية والمناجاة التي كان والده يدعوها وقد أحزن ذلك أباه. ثم أخذ بعد ذلك يوجه الانتقادات الشديدة إلى الجلسات الودية لوالده في حانوت الشيخ محمد عبد الواحد، ورئيس فقهاء المدينة، وقاضي المدينة، والمحكمة أيضًا، حتى أصبحت انتقاداته موضع حديث الناس في الأزقة والأسواق. وكان

١. طه حسين، الأيام، ٦٥.

طف حسين يرى حرمة التوسل بالأنبياء والأولياء وينكر المعاجز والكرامات. الأمر الذي أثار غضب أهل القرية عليه. وكان أبوه على الرغم من عدم رضاه على ما يعتقدوه ولكنه كان يفتبط بنزاعه مع فقهاء المدينة ويشعر لذلك بالفخر. وبذلك أخذ طف حسين يحظى باهتمام الناس في القرية، ولم يعد ذلك الشخص الذي يثير الشفقة. إن إشكاله على أستاذه في الأزهر وعجز الأستاذ عن الجواب، غير من نظرة زملائه إليه، وصار بعد ذلك مرجعاً يقصدونه ل طرح الأسئلة عليه. وقد زاد ذلك من ثقته بنفسه. وكان يترفع عن تسقط الأساتذة لعترات بعضهم وأقويل الطلاب تجاه بعضهم في غيابهم، وكان على الدوام يبحث عن الأساتذة العلماء لينهل العلم من معينهم. ولكنه قلماً كان يعثر على أستاذٍ يستطيع الإجابة عن جميع تساؤلاته، وقلماً كان هناك كتابٌ لم ينتقل لإكمال دراسته عند أستاذٍ آخر بسبب عجز الأساتذة عن تدريسه. وقد أدّى به ذلك إلى قراءة بعض الكتب بنفسه دون الاعتماد على أستاذ.

إن النزعة الانتقادية التي كان يندم عليها أحياناً، كانت تعرّضه لسخرية أساتذته، حتى تعرّض في نهاية المطاف إلى التهديد بالطرد من الأزهر، ولكنه مع ذلك لم يتخلل عن النقد، وكتب مقالةً عنيفةً ضدّ شيوخ الأزهر، ولكن لم يتمّ نشرها بطبيعة الحال. وبعد ذلك بمدّة قصيرة أخذ يتواصل مع بعض الصحف، وأخذ ينشر مقالاته ذات الاتجاه المعتدل في صحيفة لطف السيد، ومقالاته الأشدّ عنفاً ضدّ الأزهر في صحيفة الحزب الوطني وصحيفة المعلم بإدارة الشيخ عبد العزيز جاويش. حيث كان الشيخ جاويش يشجعه على كتابة الانتقادات الحادة، بينما يدعوه لطف السيد إلى انتهاج الاعتدال. وقد قال له لطف السيد ذات مرّة: إنك ستصل في مصر إلى المقام الذي

وصل إليه فولتير في فرنسا، وقال له ذات مرّة: أنت أبو العلاء المعرّي بالنسبة لنا. ولم يتخلّ عنه الشيخ جاويش بدوره، وفي الذكرى السنوية لتأسيس الحزب الوطني التي كانت تقام بالتزامن مع احتفال العام الجديد في مصر، أجبره على قراءة أشعاره ومنحه مكانةً رفيعة، وبعد ذلك بمُدّة قصيرة أسّس (مجلة الهداية)، ومنحه فيها منصب رئيس هيئة التحرير. وقد عمد طه حسين في مجلة الهداية إلى التعرّض لرشيد رضا بالكلام العنيف والشديد؛ بحيث إنّه يشعر بالخجل من ذلك لاحقاً. إنّ انتقاداته الحادّة واللادعة أدّت في نهاية المطاف إلى تواطئ الأساتذة في الأزهر على إسقاطه في الامتحان. وهو الامتحان الذي كان يؤهّله إلى الحصول على شهادة التخرّج من الأزهر الشريف في حالة النجاح.

إنّ طه حسين على الرغم من طبيعته الناقدة، كان متطرّفًا في أحكامه التاريخية. من ذلك — على سبيل المثال — أنّه بعد نقل رواية الحسن البصري حول مقتل معاوية بن أبي سفيان يقول: «إني أترك ذلك إلى الله، ويستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾^١. وقد صرّح بأنّه لن يقول شيئًا بشأن صلاحية وأهلية يزيد في الخلافة^٢.

وقد صرّح طه حسين بأنّه لا يخشى من نقد الآخرين والتعريف بنقاط ضعفهم وإشاعة ذلك على العلن. وإنّه ليس نادمًا على هذا النقد الذي سبق له أن قام به في الأزمنة الماضية، وكذلك فإنّه لا يخشى من غضب الأشخاص ومواجهة الأفراد

١. النساء: ٤٨ و١١٦.

٢. طه حسين، علي وبنوه، ٥٢.

الذين انتقدهم سواء في هذه الدنيا أم في دار الآخرة^١. إنَّ ظه حسين يشكر الله ويشعر بالغبطة من أنَّ الأوضاع السياسية وتغيّر الأحوال لم تؤدِّ به إلى الخوف، ولم تمنعه من البحث عن الحقيقة. بل ليس مهماً بالنسبة له حجم الثمن الذي يتعيّن عليه دفعه من أجل قول الحقيقة، وأنّه سوف يقوّلها مهما كلف الأمر^٢.

ومن الناحية الأسلوبية عمد المفكر المصري إلى طرح مسائل تحكي عن الأساليب التي قام بتوظيفها على نحو ارتكازي. من ذلك - مثلاً - أنّه في كتاب (مع أبي العلاء في سجنه)، يسعى إلى الكشف عن أسباب تشاؤم المعري؛ ولهذا السبب فإنّه يقوم بتحليل حياته وآثاره، ويسعى في البداية إلى البحث عن توصيف وكذلك بيان المسألة بين تضاعيف أشعاره وكتاباتة. وقد سعى بعد ذلك - من خلال إجراء مقارنة بين أبي العلاء المعري وبين شاعرين آخرين وهما بشار بن برد وأبي الطيب المتنبي اللذين كان يُشبهان المعري في بعض الأمور ويختلفان عنه في أمورٍ أخرى - إلى اكتشاف سبب تشاؤمية أبي العلاء المعري وحسبه لنفسه في سجونٍ ثلاثة متداخلة سجن فقدان البصر، وسجن الجسد، وسجن البيت.

إنَّ ظه حسين بعد هذه المقارنة يصل إلى نتيجة عبّر عنها بقوله: إنّي أرى بشار بن برد قويّاً، ولكن قراءتي لآثاره وسيرته الذاتية تترك في قلبي غضباً وحنقاً عليه. وأرى فنّ المتنبي سامياً إلى حدّ ما، بيد أنّ التعرّف عليه لا يترك في قلبي أثراً. وأمّا أبو العلاء فإنّه يثير شغفي به، وشفقتي عليه في آنٍ واحد^٣.

١. ظه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، ٢١.

٢. ظه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٢٣٧.

٣. ظه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، ٤٢.

المباني الأنطولوجية

إنَّ لطفه حسين كلاً ما مختصراً فيما يتعلّق بنظرته إلى نظام الوجود. ولكنّه بنحو عامّ مفكّرٌ مسلمٌ كانت له دراساتٌ دينية، وعلى الرغم من اتّجاهه النقدي نحو الدين والتراث، ولكنّه يؤمن بالمبدأ والمعاد، وهو مفكّرٌ واقعيٌّ، ويميل إلى حدٍّ ما إلى الفلسفة الوضعية، ولكنّه يهتم ضمن تحليلاته بالقول بالأسباب الغيبية والقضاء والقدر أيضاً، والأعجب من ذلك كله أنّه على الرغم من اعتراضاته الجزئية، يذهب إلى القول بالمعجزة أيضاً.

كما أنّ طه حسين ضمن نقده لنظريات ابن خلدون في أطروحته العلمية التي كتبها على مستوى الدكتوراه، قد قبل بوجود المجتمع. ويحتمل أن يكون قد آمن بالوجود الحقيقي للمجتمع بتأثير من دوركهيم، ويعدّ الافتقار إلى الإدراك الواضح للتمايز بين المجتمع والفرد نقطة ضعف ابن خلدون^١. إنّ طه حسين في بيان الظواهر الاجتماعية منتبّهٌ تماماً إلى الأسباب والعلل والاجتماعية وكذلك إلى قصد ونوايا وتديبر الأفراد، ولكنّه في الوقت نفسه لا ينكر دور الأمور الغيبية والقضايا الإلهية أيضاً. من ذلك على سبيل المثال أنّه يعتقد بأنّ الأشخاص يدبّرون ويخطّطون لأموالهم، ولكنّ العلة الغيبية والقضاء المبرم هو الذي يحدّد النتيجة الأخيرة^٢. وقد عمد إلى توظيف هذا الأصل في بيان الأحداث التاريخية ولا سيّما ثورة عام خمسة وثلاثين للهجرة مراراً وتكراراً.

١. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ٦٤-٦٥.

٢. طه حسين، علي وبنوه، ٣٦.

لقد أضمر طه حسين في أفكاره ومختلف أعماله وآثاره نزعةً تقديريةً جوهرية. وهو في بيان الأحداث التاريخية لا يعمل على تبرير أخطاء أصحاب رسول الله ﷺ بسبب العمل باجتهدهم فحسب، بل ويعمل على تبرير أخطاء العلماء والمفكرين في أسلوب الحياة والمواجهة مع المسائل الاجتماعية متذرعاً لذلك ببحث القدر، وأن هذا هو الذي خبأه له القضاء^١.

إنّ البحث عن المعجزة بوصفها نوعاً من الواقعة والحادثة الخاصة في نظام الوجود والعلاقات التكوينية من بين الظواهر، وكذلك النظر إلى أصل العلية، يعدّ بحثاً أنطولوجياً. إنّ كثيراً من المستنيرين العرب كانوا ينكرون المعجزة، ويحيلون المعجزات المذكورة في القرآن الكريم إلى قوانين علمية غير معروفة، أو يعدّونها من الأساطير والقصص المأثورة لا أكثر. وقد اتخذ طه حسين موقفاً غامضاً في هذا الشأن. فهو من جهةٍ عندما يتحدّث — في تحليل وقائع صدر الإسلام — عن هجوم الأحباش على مكة وينقل قصة الأبايل، يقول: إنّه لا ينوي تأويل آيات سورة الفيل، وكأنّه يسعى إلى إفهام القارئ بأنّ ظهور هذه الآيات لا يمكن القبول به. ومن ناحيةٍ أخرى يعترزم أن يقبل بنص القرآن ويفهمه كما كان المسلمون في صدر الإسلام — عندما كان النبيّ الأكرم ﷺ يقرأ القرآن عليهم — يؤمنون به ويفهمونه^٢. ومن بين هذه الوجوه في أعماله حديث القرآن عن أمورٍ ومسائل لم يسبق لأحدٍ أن تحدّث حولها، من قبيل التوحيد والشرك والبشارة والإنذار وأحكام هذه الأمور، وذلك

١. انظر على سبيل المثال: طه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، ٤٩ - ٥١.

٢. آيتي مقدمة على: طه حسين، آيينه اسلام، ٣٧.

من قبل شخصٍ أميٍّ لم يسبق له أن حصل على تعليمٍ يؤهّله للقيام بهذا الدور. والوجه الآخر من إعجاز القرآن الكريم يكمن في أسلوبه؛ فلا هو من النثر ولا هو من الشعر، بل هو أسلوبٌ خاصٌّ يتفرد به دون غيره من أساليب البيان الأخرى. إنّ هذا الأسلوب أذى حتى بالذين ينكرون القرآن، ويكذبون آياته بعقولهم، إلى أن يميلوا إليه بقلوبهم ويشعرون بالطمأنينة والسكينة عند سماعه. وإنّ الوجه الآخر من أوجه إعجاز القرآن عبارة عن خلوده. فحتى الشعوب غير العربية يندهشون وتأخذهم الحيرة والإعجاب عندما يقفون عند آيات القرآن الكريم.

المباني المعرفيّة والإبستمولوجيّة

إنّ طه حسين مرتبٌ تماماً من الناحية المعرفية والإبستمولوجيّة، ولا يمتلك مباني متقنّة في هذا الشأن. فهو من جهةٍ بيدي ميلاً إلى الظاهراتية، ومن جهةٍ أخرى يضع النزعة الشكّية الصورية على سلّم نشاطه. ويسعى إلى فصل العلم عن الدين، وفي الوقت الذي يعمل معه على القبول بالواقعية، يعدّ المعرفة متأثرةً بالمجتمع أيضاً.

النسبة بين العلم والثقافة

يمكن بشكلٍ عامٍّ أن ننسب نظرية إحاطة العلم بالثقافة إلى طه حسين. ولكن لا بدّ من الالتفات أولاً إلى أنّه يقول بفصل الدين عن العلم، وأنّ العلم التجريبي قد تغلب من وجهة نظره. وثانياً: يقول بمكانةٍ ومنزلةٍ خاصّةٍ للفلسفة الغربية تحديداً وليس لمطلق الفلسفة. وهو يرى أنّ مصر إنّها تتمكن من تحقيق التطوّر والتقدّم من خلال الرجوع إلى الفلسفة والعقل الغربي، وليس إلى الفلسفة الإسلامية ولا حتى

إلى فلسفة ابن رشد. وهو بخلاف المعتزلة الجدد، لا يهتم بابن خلدون والشاطبي وابن رشد، وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين العقلانيين في العالم الإسلامي، ويعدّ الرجوع إلى الفلسفة والعلم الغربي وحده هو الطريق إلى الخلاص.

وقد عمد في مقدمة كتاب (على هامش السيرة ١٩٣٣م) إلى وصف الناس في عصره بأنهم قد جعلوا العقل ملاكًا لكلّ شيء، ولا يقبلون بالأخبار وأجزاء من التاريخ إذا كان بالإمكان فهمها بوساطة عقولهم. إنهم لا يقرأون كتبًا مثل هذا الكتاب (على هامش السيرة)، وينهون الآخرين عن قراءته أيضًا. ولكن عليهم أن يعلموا أنّ العقل ليس كلّ شيء، وأنّ هناك ملكاتٍ أخرى موجودة في صقع وجود الإنسان أيضًا تدعو الفرد إلى الميل نحو هذا النوع من القصص المخالفة للعقل، حيث يجد الطمأنينة والسكينة في قراءتها^١.

يذهب طه حسين في شرح واقع مصر وبيان أسباب التخلف السائدة فيها - خلافاً لكثيرٍ من المفكرين الذين يؤكّدون في بيان هذه الظاهرة على الأسباب السياسية أو الاقتصادية - إلى التأكيد على عامل النظام التعليمي ومضمون العلم واللغة.

وقد عمد في كتاب (قادة الفكر) إلى بحث النسبة بين العلم والثقافة والحضارة ضمن بيانٍ تاريخي. إنّ قيادة العقل والتفكير قد بدأت - من وجهة نظرة - من الشعراء، وبعد انتقالها إلى الفلسفة، وفي بعض الأحيان إلى أصحاب السلطة وغيرهم، تركت تأثيرها في الثقافة، وبذلك عملت على إنشاء الحضارات. ولكي نفهم نظرية طه حسين فيما يتعلّق بالنسبة بين العلم والثقافة بنحوٍ أفضل، يجب قبل

١. طه حسين، على هامش السيرة، المقدمة.

كلّ شيءٍ أن نقوم بجولةٍ على النظريات الثلاث الموجودة في مصر بهذا الشأن. هناك آراء مختلفةٌ بشأن النسبة بين العلم والثقافة. يذهب الرأي الأول في ضوء بعض التعاريف إلى القول بأنّ الثقافة لم يكن لها أيّ تأثيرٍ داخليٍّ في العلم، وبعبارةٍ أخرى: إنّ الهوية والبنية الداخلية للمعرفة العلمية مستقلةٌ عن مختلف الثقافات. في ضوء هذا الرأي يحتوي العلم على هويةٍ غير شرقيةٍ وغير غربية، أو غير دينيةٍ وغير أيديولوجية. إنّ الثقافة ليست مؤثرةً في البنية الداخلية للمعرفة العلمية. الرأي الثاني يرى أنّ الثقافة عنصرٌ مقومٌ للعلم. طبقاً لهذا الرأي — مع الحفاظ على غلبة الثقافة على العلم — كما يكون للعلم نسبةٌ مع الهوية والبنية الداخلية للثقافة، تكون الثقافة مؤثرةً في هوية العلم وتعريفه ومصاديقه. إنّ التعريف الوضعي للعلم يقع ضمن حقل الرأي الأول، بينما تلتحق التعاريف العقلانية والدينية للعلم بالرأي الثاني^١. قد بحث طه حسين في كتابه قادة الفكر حول رؤيته بشأن النسبة بين العلم والثقافة في معرض الحديث عن موقع الشعر، والفلسفة، والسياسة، والدين، وسائر الموارد الأخرى.

يرى طه حسين للشعر مكانةً خاصةً في تاريخ التحولات الفكرية. وقد ذهب إلى الاعتقاد بأنّ الشعر كان له دورٌ مهمٌّ في جميع الأمم والحضارات السابقة، وأنّ ظاهرة الشعر تمثل القاسم المشترك بين اليونانيين والعرب. ومن هنا يمكن عدّ الشعراء — من وجهة نظره — بوصفهم قادة الفكر والمعرفة. لقد أكّد طه حسين — من خلال التعريف بكتابين وأثرين للشاعر الإغريقي الشهير هوميروس، وهما

١. پارسانيا، «نسبت علم وفرهنگ».

الإلياذة والأوديسة — على التأثير القصصي والحماسي لأشعاره في الحضارة اليونانية، ولكنّه يرى الشعر العربي الجاهلي مفتقرًا إلى هذا التأثير^١؛ وذلك لأنّ الشعراء العرب لم يتمكنوا من التأسيس للحضارة المناسبة لهم. وعلى كلّ حالٍ فإنّه بعد الذهاب إلى القول بالقيادة الفكرية للشعراء، سوف تكون مصادر الثقافة — من وجهة نظر طه حسين — أوسع من العلم.

لقد تقدّم طه حسين على بعض المفكرين من أمثال محمد عابد الجابري، وحسن حنفي^٢، ومحمد أركون، في الحديث عن الأنواع التاريخية للعقل، وقام بمقارنة العقل في مختلف الثقافات. إنّ دور الفلسفة في تاريخ التفكير وظهر الحضارات يعدّ بارزًا جدًّا من وجهة نظر طه حسين. وذلك لأنّه يرى أنّ القيادة الفكرية قد انتقلت بعد خمسة أو ستة قرونٍ من الشعراء إلى الفلاسفة. ومع ظهور الفلاسفة شهد الشعر تحوّلًا أيضًا وأصبح زاخرًا بالحكمة، وترك تأثيره في المجتمع. وهو يرى أنّ العقل اليوناني خالصٌ ومستقلٌّ عن العقل الشرقي. يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ العقل الإغريقي واليوناني في فهم وتفسير الوجود، قد أدّى إلى ظهور فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو، وأدّى بعد ذلك إلى تبلور فلسفة رينيه ديكارت، وإيمانويل كانط، وهيغل، وسبنسر.

وأما العقل الشرقي في ضوء التفاسير الدينية فقد تمّ قهره وأصبح مغلوبًا، وأدّى إلى الكهانة. ولكنّه بطبيعة الحال يخرج الأنبياء ﷺ من هذا المسار التاريخي.

١. طه حسين، قادة الفكر، هوميروس.

٢. حنفي، هموم الفكر والوطن.

الأمر الآخر أن اليونان قد حققت تشريع القوانين والنظم تبعاً للتطورات السياسية والاجتماعية، وأما الشرق فقد ظل إلى الآن يعاني من الحكومات المستبدة. لقد ظهر سقراط في بيئة زاخرة بالفسفسطة والنزعة الدنيوية والنفعية وعمل على تأسيس الفلسفة. وصار محطاً للأنظار بالتدريج وصار الناس يهرعون إلى لقائه من الشرق والغرب. وبعد موته انتشر تلاميذه وأخذوا يشيعون أفكاره، وبذلك فقد تبلورت ثلاث مدارس، وهي المدرسة الكلية، والمدرسة القورينية، والمدرسة الأفلاطونية. وقد ذهب الكليون إلى الزهد في الدنيا والتنسك، وسار الرواقيون بعد أرسطو على هذا النهج ذاته. بينما ذهبت المدرسة القورينية إلى التأكيد على أصالة اللذة، وسار الأبيقوريون بعد أرسطو على آثارهم^١.

وكان أفلاطون تلميذاً لسقراط، وقد عمل على التلفيق بين الفلسفة والأدب، وأخذ يعرض آثاره وأعماله على شكل قصص مسرحية فلسفية^٢. لقد عاش سقراط وأفلاطون في ظلّ الحرب والفوضى الاجتماعية، وقد أقاما فلسفتها على هذا الأساس، وسعيا إلى تقديم طرق حلّ لإصلاح المجتمع. وأما عصر أرسطو فقد كان هو عصر التقدّم والتطوّر. وقد أقام فلسفته — بشكلٍ مختلفٍ عن سقراط وأفلاطون — على أساس المنطق والاستدلال، وحيث كان المدّة من الزمن معلّماً للإسكندر نجل الملك، فقد قام بتخصيص جانبٍ من أعماله بالسياسة والأخلاق^٣.

١. م. ن، سقراط.

٢. م. ن، أفلاطون.

٣. م. ن، أرسطو.

إنّ الفلسفة — من وجهة نظر طف حسين — تؤدّي دورًا محوريًا في رطف الثقافة، وأما أن يكون طف حسين يُسمّى الفلسفة علمًا تحت تأثير الفلسفة الوضعية الفرنسية، فهذا ما لم نجد له إجابة صريحة في أعمال طف حسين. بيد أنّ النقطة الأهم هي أنّ طف حسين في نظره التاريخية إلى العقل، إنّها يعدّ العقل اليوناني وحده هو القادر على تأسيس الفلسفة، وأما العقل الشرقي فإنّما يوفر الأرضية للمصادر غير العلمية مثل الكهانة وما إلى ذلك.

إنّ قيادة التفكير التي انتقلت من الشعراء إلى الفلاسفة، قد انتقلت — بعد أرسطو في ضوء أفول نجم الفلسفة — إلى أصحاب السياسة. في القرن الرابع قبل الميلاد تعرض الشرق والغرب إلى الانحطاط وحدث هنالك انقلاب كبير. وقد حدث هذا الانقلاب الكبير على يد الإسكندر. يرى طف حسين أنّ الإسكندر لم يكن يهدف إلى فتح البلدان جغرافيًا، وإنّما كان ينشد القضاء على الاختلافات ونشر الفلسفة، وكان ما قام به الإسكندر في الحقيقة والواقع فتحًا عقليًا. وبعد الموت المفاجئ للإسكندر انهار الاتحاد السياسي المنشود له، بيد أنّ الفلسفة شقت طريقها في الشرق، وحدث تفاهمٌ حول التفكير بين الشرق والغرب. وأصبح التفكير الإغريقي عالميًا. ومن هنا يمكن عدّ الإسكندر واحدًا من قادة التفكير أيضًا.

وقد زعم طف حسين أنّ قيصر الروم قد أنجز ما كان الإسكندر قد بدأ بتحقيقه. فقد تمكّن من إحداث الاتحاد والتناغم العسكري، وعمل على تحقيق رؤية الإسكندر ولا سيّما في الغرب. وعلى الرغم من تعرّضه للقتل إلا أنّ تأثيره ظلّ

باقياً، وقد قبل الألمان بالنظام القيصري بتأثير من قيصر الروم. كما تأثرت الثورة الفرنسية بهذا النظام أيضاً، وترجع نابليون بونابرت في الحقيقة على عرش القيصر^١. إنَّ التوضيحات التي يقدمها طه حسين تثبت أنه لا يعدُّ النشاط السياسي البحث هو المصدر للعقل والثقافة، بل يرى النشاط السياسي إنَّما يمهد الأرضية للعقل والتفكير. إنَّ فتوح الإسكندر—من وجهة نظر طه حسين—لم يكن لها تأثيرٌ مباشرٌ في العقل والتفكير، وإنَّما شكَّلت أرضيةً لتطوير العقل الفلسفي.

وبعد قيصر انتشرت المسيحية وتغلَّبت على الفلسفة وصارت هي الدين الرسمي في الغرب. وبعد ذلك ظهر الدين الإسلامي ودخل في جدالٍ متبادلٍ مع المسيحية الغربية المدَّة طويلة، وأخذ كلُّ واحدٍ منهما يعمل على توظيف الفلسفة لصالحه. وأمَّا الفلسفة الإغريقية التي لم تتمكن من إقامة النظام السياسي، فقد صارت محطَّ الاهتمام في الغرب مرَّةً ثانيةً، وكان لها تداعياتٌ مختلفةٌ هذه المرَّة. وعلى هذا الأساس فإنَّ المسيحية في هذه المرحلة لم يكن لها سوى دور انتقال الفلسفة إلى الغرب، ولم يكن لها من دورٍ في قيادة العقل. وبطبيعة الحال فإنَّ طه حسين يختار صمتمًا ذا مغزى في مورد دور الدين الإسلامي في هذا الشأن. ولكن يمكن بطبيعة الحال أن نستنتج من ميله العام نحو الغرب والانتقادات التي يوجهها إلى التراث الإسلامي، أنه لا يرى مكانةً ملحوظةً للدين الإسلامي في خصوص قيادة العقل. إنَّ قيادة التفكير قد انتقلت من اليونان إلى الإسكندرية، وإلى روما، ومكة،

١. م. ن، قيصر.

٢. م. ن.

والمدينة [المنورة]، وبغداد، والقاهرة، وقرطبة. وكان لكل مرحلة قادتها الفكريون البارزون. وأمّا في العصر الحديث وبعد اختراع الطباعة، أعيد نشر أعمال الفلاسفة المتقدمين، ولم يعد نشاط محاكم التفتيش ممكنًا. وبعد الوصول إلى تقنية وصناعة الكهرباء، والسيارات، والأقمار الصناعية، والهواتف، فقد ظهرت حالة تمكّن فيها النوابغ والعباقرة من تولي القيادة بأنفسهم، وسرعان ما تمكّنوا من الحصول على اهتمام الناس. وفي الحقيقة لا يمكن الحديث هنا عن قائدٍ واحدٍ أو عن جغرافيةٍ واحدةٍ محددة. بل أصبح قادة التفكير متعدّدين، وصار لهم حضورٌ متميّزٌ في مختلف أصقاع الأرض^١. يتحدّث طه حسين في هذا القسم عن تعدّد قيادة العقل والتفكير وتنوّعها، ولكنّه مع ذلك يبقي على تأكيده على الدور الصارخ للفلسفة. وإنّ مراده من التنوّع والتعدّد في الغالب إنّما هو تعدّد المدارس الفلسفية الغربية وتنوّعها.

الموقع البنيوي التأسيسي للدين

إنّ طه حسين يذهب من جهةٍ إلى التصريح بمخالفة مشاركة الدين بوصفه مصدرًا للتقنين والتشريع، ويرى أنّ العالم الحديث والعقل الآلي هو الذي يمثل نقطة الانطلاق إلى التقنين. ولكنّه من جهةٍ أخرى يسعى إلى تقديم قراءةٍ حديثةٍ للتراث الديني. فقد قام في أعماله الكثيرة بإعادة قراءة تاريخ الإسلام وسعى إلى تقديم صورةٍ حديثةٍ عن التاريخ. من ذلك — على سبيل المثال — أنّه يصنع من النبي ﷺ بطلًا بالمعنى الحديث لأبطال الأساطير والقصص، ويعمل على التعريف بعثمان بن عفان بوصفه نموذجًا ورمزًا للضعف البشري.

١. م. ن، العصر الحديث.

وكذلك فإنه يعمل على تصوير المسلمين الأوائل في كتاب (الفتنة الكبرى) بوصفهم أشخاصاً ثوريين يطالبون بالعدالة حيث يرومون سلوك طريق ثالثٍ وسط بين الاشتراكية والرأسمالية. وهو يؤكد في ذلك على الأبعاد الشعورية والعاطفية والمعنوية للدين، ولا يميل إلى قيام مفهوم الأمة أو الشعب على أساس الدين، ويرى الدين عاجزاً في هذا المسار.

يذهب طه حسين إلى عدّ القرآن الكريم والسنة المطهرة والإجماع والاجتهاد والرأي بوصفها من مصادر الاستنباط. وهو يعدّ القرآن والسنة ركيزتين أساسيتين في الدين. وذلك لأنّ الله ﷻ قد أنزل المفاهيم الدينية في القرآن الكريم على رسوله على نحو الإجمال، وترك تفصيلها إلى العلم الذي ألهمه له. من ذلك — على سبيل المثال — أنّ أصل الصلاة قد ذكر في القرآن الكريم، ولكن تفصيلها وبيان كفيته كان منذ البداية متروكاً لرسول الله ﷺ.

ولكن لو لم يكن جواب المسألة موجوداً في القرآن الكريم أو السنة المطهرة، فيجب عندها الرجوع إلى إجماع أصحاب النبي الأكرم ﷺ. إنّ إجماع الأصحاب يحكي عن أنّهم كانوا على معرفةٍ وصليةٍ بأقوال النبي وأفعاله، وكان ذلك ناشئاً عن اجتهادهم. وإذا لم يكن هناك إجماعٌ في البين أيضاً، فيجب العمل بالرأي على نحو الإخلاص^١. إنّ طه حسين لم يتحدّث عن العلاقة بين العلم والدين بشكلٍ صريح، ولكن يُستنبط من فحوى كلامه أنّه يقول بالفصل بين العلم والدين.

وهو يرى أنّ ابن خلدون هو أول شخصٍ تمكّن من تحرير علم السياسة من

١. طه حسين، مرآة الإسلام، ١٠٠-١٠٤.

سيطرة الدين، وحقّق نجاحًا في تحليل السياسة بأساليب علمية مقبولة. ويذهب طه حسين إلى الاعتقاد بوجود تناقضات كبيرة بين النصوص الدينية ونتائج النشاطات العلمية والنظريات والقوانين العلمية المكتشفة.

إنّ طه حسين يبحث المسائل التاريخية والدينية بأسلوب علمي. ومن هنا فهو إنّما يعدّ القرآن الكريم بوصفه مصدرًا تاريخيًا بالنسبة إلى أحداث عصر النبي الأكرم ﷺ فقط، ولا يرى أحداث الأمم السابقة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ذات اعتبار تاريخي^١.

إنّ هذا المبنى يحكي عن اتجاهه نحو موقع الوحي من الزمان والمكان أيضًا. من ذلك — على سبيل المثال — أنّه يعتقد بأنّ المدينة المنورة بعد خلوّها من اليهود بعد فتح خيبر، لم تنزل على رسول الله ﷺ آيةٌ حول اليهود، إذ لم تعد هناك حاجةٌ إلى ذلك. وبطبيعة الحال فإنّه يعتقد بأنّ الآيات قد نزلت في السابق بالمقدار الكافي في بيان أوضاع اليهود في الدنيا والآخرة^٢. إنّ طه حسين لا يؤمن بالنزول الدفعي للقرآن الكريم^٣، ويرى أنّ مجرد الأحداث التاريخية والأوضاع السياسية والاجتماعية لتلك المرحلة هي الدليل على نزول الآيات.

إنّ كتاب (مرآة الإسلام) لطف حسين إنّما هو في الحقيقة تاريخ صدر الإسلام، وقد ألفه دون الرجوع إلى الكتب الأخرى أو في الحد الأدنى لم يُجل فيه إلى المصادر

١. طه حسين، في الشعر الجاهلي، ٢٦.

٢. طه حسين، مرآة الإسلام، ٤٦.

٣. م. ن، ٨٥.

التاريخية، وهو في الغالب يستند فيه إلى القرآن الكريم. وبطبيعة الحال فإنه قد ذكر فيه بعض المسائل من خارج آيات القرآن الكريم أيضًا، بيد أن الجزء الأكبر من الكتاب كان قد تمّ تدوينه من طريق التبويب الموضوعي لآيات القرآن دون أن يشير إلى الآيات إشارةً مباشرةً أو أن يذكر دليله على ترتيب نزول الآيات كما فهمها. من ذلك - على سبيل المثال - أنه يعمل على بيان الآيات التي نزلت في مورد اليهود بترتيبٍ خاصٍّ في تدوين تاريخ مواجهة النبي الأكرم ﷺ مع اليهود في شبه الجزيرة العربية، وهكذا الأمر بالنسبة إلى الآيات الخاصة بالنصارى والمنافقين وسائر الطوائف الأخرى.

النسبة بين المعرفة والمجتمع

يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بوجود تأثيرٍ وتأثيرٍ متبادلٍ بين المعرفة والمجتمع. فهو من جهةٍ يرى العلم والمعرفة واقعين تحت تأثير المجتمع. ولكنه لا يتجاهل دور الفرد، ولا يقول بأن العلم رازحٌ تحت تأثير المجتمع بشكلٍ كامل. بل يرى أن البيئة لها تأثير في المعرفة. ومن ناحيةٍ أخرى يتحدث أيضًا عن تأثير أنواع المعرفة في البيئة والمجتمع. ولكنه بطبيعة الحال لا يتحدث عمّا إذا كان تأثير المجتمع في المعرفة داخليًا أو خارجيًا، ويبقى الأمر مسكوتًا عنه من هذه الناحية^١.

وهو يرى أن الدين والفلسفة والثقافة وتجربة الحياة السياسية والمصالح الشخصية، تعدّ من بين العناصر المؤثرة في شخصية العالم وطريقة تفكيره. وهو يُشير في ذلك إلى ابن خلدون - على سبيل المثال - ويراه في الاتجاه المذهبي واقعا

١. طه حسين، قادة الفكر، بين عصرين، المقدمة.

تحت تأثير خلفاء الدولة الفاطمية والإدرسية، وتحت تأثير المصالح الشخصية، وهو يدافع نظرياً عن دولة الموحدين، ويسعى إلى إيصال نسبهم إلى النبي الأكرم ﷺ.

تأثير البيئة في طريقة التفكير

إنّ البيئة والدولة والحرب أو بسط الأمن والتطور، كلّ ذلك يترك تأثيره — من وجهة نظر طه حسين — في المجتمع. وقد بحث تأثير هذه العوامل في تبلور فلسفة اليونان وأفكار ابن خلدون.

في ضوء هذه الرؤية كان سقراط وأفلاطون يعيشان في ظلّ الحروب والفوضى الاجتماعية، وقد أقاما فلسفتيهما على أساس ذلك، وقد سعياً إلى تقديم طريقة حلّ من أجل إصلاح المجتمع. بيد أنّ عصر أرسطو كان عصر تقدّم وتطور؛ ولهذا السبب فإنّه قد أقام فلسفته — خلافاً لسقراط وأفلاطون — على أساس المنطق والاستدلال، وحيث كان المدّة من الزمن قد شغل في البلاط منصب المؤدّب للإسكندر نجل الملك، فقد خصّص جزءاً من أعماله للسياسة والأخلاق^١.

يرى طه حسين أنّ ابن خلدون كان يعيش في بيئة شبه بدوية؛ ولهذا السبب فقد تبلورت أفكاره على أساس تحليلات تتناسب مع ذلك المجتمع وتلك البيئة، وتغلّبت لديه الذهنية البدوية على الذهنية الإسلامية^٢. وقد آمن تحت تأثير تيار التصوّف والفلسفة الإسكندرانية — التي كانت شائعة في بيئته — بالأسباب الغيبية والسحر^٣.

١. طه حسين، قادة الفكر، أرسطو.

٢. طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، ٩٣.

٣. م. ن، ٤٢.

يرى طه حسين أنّ السلطات السياسية كانت تعمل على توظيف مختلف العلوم في ضوء احتياجاتها، بل كانت في بعض الأحيان تتصرّف في محتوى العلم أيضًا. وهو يرى أنّ الفلسفة التي تؤدّي دورًا مهمًّا في تطوّر الحضارة والوصول إليها لو وقعت تحت أغلال القوى السياسية والدوافع الكلامية، فإنّها سوف تفقد مكانتها. وهو يعدّ الترويج للمسيحية في الغرب قد شكّل عاملاً للتخلّف وتقييد الفلسفة. لقد انتشرت المسيحية في الغرب من جهةٍ وتغلّبت على الفلسفة، ومن جهةٍ أخرى ظهر الإسلام واحتدم هنالك نزاعٌ لفتراتٍ طويلةٍ بين الإسلام والمسيحية. وقد عمدت كلّ واحدةٍ من هاتين الديانتين على توظيف الفلسفة لمصلحتيهما^١، وقامت بالخطّ من موقعها ودورها. وكان التطوّر اللاحق الذي شهده الغرب يعود سببه إلى عودة الاهتمام من جديد بفلسفة اليونان وتحريرها من القيود والأغلال السياسية والأيدولوجية.

إنّ من بين الأمور التي تحول دون تطوّر العلم، التوجّهات الحكومية المغلقة والكبت السياسي. بيد أنّ تنوّع المرجعيات الفكرية وانتشار الآراء والنظريات على نطاقٍ واسع، من شأنه أن يتغلب على الأجواء السياسية الخانقة. كما حصل ذلك عندما انتقلت قيادة الفكر من اليونان إلى الإسكندرية وروما ومكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد والقاهرة وقرطبة، وكان لكلّ مرحلة قادتها الفكريون البارزون. إنّ هذا الانتشار الواسع كان يعود سببه في بعض الأحيان إلى توفّر الأدوات المناسبة، من قبيل ما نشهده حاليًا على مستوى انتشار شبكات التواصل الافتراضي. وأمّا

١. طه حسين، قادة الفكر، بين عصرين.

الفصل الثالث: الأسس المعرفية لطف حسين ❖ ١٠٣

في العصر الحديث وبعد اختراع الطباعة، فقد توفرت الأرضية لإعادة نشر أعمال الفلاسفة المتقدمين، ولم يعد نشاط محاكم التفتيش ممكناً. وبعد الوصول إلى تقنية وصناعة الكهرباء، والسيارات، والأقمار الصناعية، والهواتف، فقد ظهرت حالة تمكّن فيها النوابغ والعباقرة من تولي القيادة بأنفسهم، وسرعان ما تمكّنوا من الحصول على اهتمام الآخرين وتوليّ دفة القيادة بأنفسهم. وفي هذه الحالة لا يمكن الحديث عن مرجعية فكرية واحدة ضمن جغرافية محدّدة. بل أصبح قادة التفكير متعددين، وصار لهم حضورٌ متزامنٌ في مختلف أصقاع الأرض^١.

تأثير التفكير في البيئة

إنّ تأثير الفلسفة في ظهور الحضارات شديد الوضوح من وجهة نظر طه حسين. وهو من خلال نظريته التاريخية إلى العقل، يعدّ العقل اليوناني خالصاً ومستقلاً عن العقل الشرقي.

إنّ العقل اليوناني من وجهة نظر طه حسين قد أعدّ فلسفاتٍ متنوّعةً في فهم وتفسير الوجود؛ ابتداءً من الفلسفات الأرسطية، والأفلاطونية، والأفلاطونية المحدثّة، وصولاً إلى الفلسفات الجديدة في الغرب، وقد أدّى ذلك إلى ظهور التشريعات القانونية وإقرار النظم وإحداث التحوّلات السياسية والاجتماعية والوصول في نهاية المطاف إلى بناء الحضارة^٢.

وفي المقابل فقد اندحر العقل الشرقي أمام التفاسير الدينية، وأفضى في نهاية

١. م. ن، العصر الحديث.

٢. م. ن، سقراط.

المطاف إلى الكهانة؛ ولهذا السبب ظهرت الحكومات الاستبدادية^١. وقد أدى ذلك إلى حدوث التخلف منذ الأزمنة القديمة إلى يومنا هذا. بيد أن الشواهد التاريخية تنقض هذه النظرية.

الشكّ الصوري

إنّ المعروف هو أنّ طه حسين قد وضع النزوع إلى الشك على سلم أعماله بتأثير من رينيه ديكرت، وأنّه قد ألّف كتابه (في الشعر الجاهلي) على هذا الأساس. وهناك من يرى أنّ طه حسين قد ألّف جميع أعماله على عجلٍ ومن منطلق الأهواء والنزوات. وكانت لديه رغبةٌ في إثارة الشكوك وإلقاء الشبهات في جميع النصوص والحقائق التي يواجهها في قراءته ومطالعاته؛ وذلك لأنّه كان يتبع التوجّهات التلمودية التي كانت معروفةً في كتابات سيغموند فرويد وإيميل دوركهايم. إنّ أسلوب طه حسين في أعماله يقوم على طرح السؤال وإثارة الشبهة، ثم يترك قارئ أعماله يخوض في متاهة من الضياع والحيرة دون أن يهتدي إلى شيءٍ مقطوع به؛ وذلك لأنّ غايته على الدوام تهدف إلى إيجاد فضاءٍ من الشك والترديد، والذي هو من وجهة نظره منشأ لجميع الأفكار الغربية ويشكّل أساساً لنشاط الاستشراق والدعوة في العالم الإسلامي^٢.

ولكن هناك كثيرون — من أمثال حسين مروة — من الذين يذهبون إلى الاعتقاد بأنّ طه حسين إنّما أخذ مقولة الشك من رينيه ديكرت من حيث الصورة فقط،

١. م. ن.

٢. الجندي، محاكمة فكر طه حسين، ١٤٥.

وليس من حيث المباني^١. وذلك لأن رينيه ديكرت — مثل أبي حامد الغزالي — قد انتهج طريق الشك للوصول إلى اليقين. وفي هذا الإطار يؤكد أنور الجندي على أن طف حسين قد انتهج هذا الأسلوب لغاية أخرى. إنه قد أنكر كل أمر ثابت ومقطوع به، وأغلق الطريق دون القيم الأصلية، وعمل على فصل الأدبيات عن التفكير، وأدى إلى إحداث الفساد في العقيدة والتخلي عن الدين^٢. وقد كان لهذا الاتجاه — على الرغم من إشكالاته الكثيرة — بعض النقاط الإيجابية أيضًا، حيث أدى إلى القضاء على أجواء العصبيّة المذهبية، وفتح الطريق أمام نقد التراث، كما أدى شيئًا فشيئًا إلى انتعاش التعاطي العلمي بين مختلف المذاهب.

الاتجاه نحو النزعة الظاهرية

إن طف حسين يجمع بين التنوير والنزعة الظاهرية، ويعمل على حلّ عدم التناغم بين هذين الاتجاهين من خلال القول بأنّ بعض الحقول يجب دراسته بواسطة العقل، وبعضها الآخر يجب التعاطي معه والإيمان به بواسطة القلب. إنّ وصم المعتزلة بالتطرّف والإفراط في استخدام العقل، ونقد أصحاب الفلسفة، والتناغم مع أحمد بن حنبل وابن تيمية، وبعض الشواهد الأخرى من قبيل: الدعوة إلى الاتحاد مع التأكيد على سيرة الخلفاء الراشدين وأصحاب النبي الأكرم ﷺ، تثبت ميل طف حسين إلى أصحاب الحديث والاتجاه الظاهري. ويبدو أنّ طف حسين يرى أنّ كثيرًا من التعاليم الدينية لا تتسجم مع العلم، ولكنّه يؤثّر الصمت في هذا الشأن بدلًا من

١. عيد، طف حسين العقل والدين بحث في مشكلة المنهج، ٤١.

٢. الجندي، محاكمة فكر طف حسين، ١٤٢.

تأويل وتفسير هذا النوع من التعاليم. إنّ الأتجاه الظاهراتي أقرب إلى هذه الرؤية، ويعمل على توفير هذه الإمكانية لاختيار السكوت على إبداء الرأي. وإنّ تصرّحه بأنّه لا ينوي تأويل الآيات أو أنّ العقل لا ينسجم مع بعض المعتقدات، ولكن القلب يتماشى معها، يمثّل شاهداً على هذا المدّعى.

تلخيص ونقد

يذهب طه حسين في كتابه (مرآة الإسلام) إلى توظيف الآيات التاريخية في القرآن الكريم لغرض تدوين تاريخ صدر الإسلام، ومن خلال اعتماده على ذاكرته فقط، ومن دون تقديم أيّ شواهد تاريخية، يعمل على ترتيب نزول الآيات بحيث تؤدّي إلى النتائج التي تروقه. من ذلك — على سبيل المثال — أنّه يذكر احتجاج عمر بن الخطاب على النبي الأكرم ﷺ بشأن الصلاة على جنازة عبد الله بن أبي بن سلول بطلب من نجله، ثم يواصل البحث بعد هذا الاحتجاج بحيث يؤدّي إلى تأييد الوحي لرأي عمر بن الخطاب^١.

لقد صرّح طه حسين في مقدمة كتاب (الفتنة الكبرى) — الذي ألفه في مرحلة متأخرة من التقدّم في السن وبلوغ النضج الفكري — بأنّه يسعى في هذا الكتاب إلى العثور على الحقيقة، ولا يهدف إلى الدفاع عن جهةٍ خاصّةٍ على حساب الأخرى، وذلك لأنّه لم يكن يوماً صديقاً لعثمان بن عفان، كما أنّه ليس من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، بل هو مجرد مؤرّخٍ محايدٍ يسعى إلى الابتعاد عن تأثير المشاعر والأهواء والعواطف والنزوات وتأثير الإيمان والدين والعصبية والانحياز. ولكنّه

١. طه حسين، مرآة الإسلام، ١٥٠-١٥١.

في هذه المقدمة ومن خلال تقسيم العلماء والمفكرين إلى من هم من شيعة الإمام علي عليه السلام، ومن هم من أتباع عثمان بن عفان، يذكر قسمًا ثالثًا وهم الذين يحترمون جميع الصحابة، ويذهب إلى التعريف بهذه المجموعة الثالثة بوصفها هي المجموعة الوسطية والمنطقية!

وكذلك في كتابه (مرآة الإسلام) قد عمل طه حسين على تدوين تاريخ صدر الإسلام في ضوء آيات القرآن الكريم. وقد ذكر فيه اسم أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وخالد بن الوليد وغيرهم في هذا النص التاريخي مرارًا وتكرارًا، ولكنه على الرغم من الدور المهم لابن عم النبي الأكرم ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام في أحداث صدر الإسلام، ولا سيّما في ليلة المبيت وفي المباهلة مع نصارى نجران أو واقعة أحد وحتى في مسألة الاختلاف حول الخلافة، لا يأتي على ذكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. ولم يرد ذكر الإمام علي في هذا الكتاب إلا مرة واحدة، وذلك بعد موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة، حيث قام النبي الأكرم ﷺ بإرسال أبي بكر لقراءة آيات من سورة البراءة على أهل اليمن، ثم أرسل خلفه الإمام علي عليه السلام وأمره بأن يأخذ الآيات من أبي بكر ويتولّى هو قراءتها على اليمنيين. وفي هذا التقرير يُشير طه حسين تلويحًا إلى المنزلة الأكبر لأبي بكر على الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. وفيما يتعلّق بأمر الخلافة يكتفي طه حسين بالإشارة إلى هذه النقطة فقط، وهي أنّ الإمام علي عليه السلام لم يبايع أبا بكر بسبب امتناع أبي بكر عن دفع الإرث لفاطمة الزهراء عليها السلام، حتى رحلت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام عن هذه الدنيا. وأمّا في بحث الحكومة في الإسلام فإنّه يبحث في حكومة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بالتفصيل، ويعده

سياسياً كفوءاً، ويعزو إخفاقه في إدارة الدولة إلى الظروف المعاكسة في عصره لا إلى قصور في مقدرته السياسية.

إنّ طه حسين في مختلف أعماله يعمل على تدوين المطالب — التي سبق له أن أجالها في ذهنه وقد سبق له أن قرأ عنها — بشكلٍ مزاجي، ومن دون إحالتها إلى مصادرها، ثم يقوم بالاستنتاج منها على هذا الأساس. من ذلك مثلاً أنّه في كتاب (الفتنة الكبرى) وكتاب (علي وبنوه)، يتحدّث عن المسائل التاريخية مع ذكر التفاصيل دون إحالتها إلى المصادر التاريخية، وإنّما يكتفي في بعض الأحيان بالإحالة إلى البلاذري دون أن يذكر الجزء ودون تحديد الصفحة.

إنّ اتّخاذ التوجّهات الحديثة في تحليل الظواهر التاريخية، وتفسير نشاط الأفراد في العصور القديمة بوساطة المفاهيم والعناصر الثقافية المعاصرة، مشكلة يعاني منه المفكّرون المعاصرون في كثيرٍ من تحليلاتهم التاريخية. وإنّ طه حسين لم ينبج من هذا المشكلة أيضاً. وإنّ تعميم شوري أخذ القرار لتعيين الخليفة بالانتخابات، يعدّ واحداً من هذه الموارد التي وقع فيها طه حسين في كتاب (الفتنة الكبرى) وكتاب (علي وبنوه).

الفصل الرابع: فكر طه حسين

المقدمة

لقد كان لطه حسين دراسات وأبحاثٌ متنوّعةٌ بسبب دراسته في معقلين دراسيين تقليديين بالإضافة إلى الدراسة الجامعية في مصر، وكذلك بسبب مواصلته الدراسات العليا في الجامعات الفرنسية. ويمكن بيان وتبويب أفكاره في الحدّ الأدنى ضمن المحاور الخمسة الآتية، وهي: المحور الأدبي، والمحور التاريخي، والمحور الديني، والمحور الاجتماعي، والمحور السياسي. ومن خلال التوصل إلى مسألته الأصلية — التي تتمثل بتخلّف العالم الإسلامي بشكلٍ عامٍّ وتخلّف مصر بشكلٍ خاصٍّ — وقراءته النقدية للتراث والدين في ضوء الاتجاه الثقافي، يمكن استنباط وتدوين الوجه الجامع لأفكاره بوصفها نظريته الفكرية العامّة والشاملة أيضًا.

إنّ طه حسين يسعى إلى فهم الأوضاع الاجتماعية والثقافية لعصره من خلال تنزيل العلم إلى مستوى المعرفة التجريبية، وقوله بفصل العلم عن الدين، وإحاطة العلم بالثقافة من جهة، واعتقاده بالدور الصارخ للسياسة في انحطاط الثقافة أو علوّ كعبها، كما يسعى إلى التعرّف على أسباب الانحطاط، ويسعى بزعمه إلى اكتشاف طرق الحلّ للخروج من حالة التخلّف. وهو من أجل هذه الغاية يعدّ القراءات التاريخية للظواهر الاجتماعية أمرًا ضروريًا. وعلى هذا الأساس فإنّه

يربط دراساته الاجتماعية والانتقادية بتخصصه التاريخي، وبذلك فإنه يوفّر لنفسه الأرضية المناسبة للإبداع والابتكار النظري.

وقد أخذ طه حسين يبحث عن جذور الانحطاط الراهن في الانحطاط السياسي للقرون الأولى، ومن خلال بيان الوضع السياسي والاجتماعي في صدر الإسلام ولا سيّما مقتل الخليفة الثالث الذي يُسميه بنباهة (ثورة عام ٣٥ للهجرة)، أخذ يسعى إلى بيان الحلول للخروج من حالة التخلف والانحطاط. وإن تحقيق الوعي التاريخي بالنسبة إلى الهوية الغربية لمصر، والقبول بالنموذج التنموي الغربي، وإقامة الدولة العلمانية، وسلوك الاتجاه الوطني، والتأكيد على اللغة العربية بوصفها محور الانسجام الاجتماعية، والترويج لاحترام القوانين، تعدّ من أهم الحلول التي يذكرها للتخلّص من حالة التخلف.

وأما وجه امتيازه فهو عبارة عن انطلاقة تجاه نقد التراث وعلى نحوٍ خاصّ نقد سياسة الخليفة الثالث، الأمر الذي أدّى إلى كسر الحاجز النفسي المتنوي للسكوت وفتح عقد أقلام الآخرين لتجد لنفسها مساحة لتناول هذا الشأن. إن النقد الصريح لأداء الخليفة والحكام اللاحقين، وكذلك نقد التفسيرات الدينية للأزهر والاهتمام بمزايا ونواقص اللغة العربية من بين النقاط المهمّة في تفكير طه حسين حيث كان لها تأثيرٌ ملحوظٌ في التجديد العربي.

بيان الأوضاع الراهنة في مصر

إنّ السؤال القائل: لماذا تعرّضت مصر للتخلف والانحطاط من الناحية المادية؟ سؤال قد شغل أذهان كثيرٍ من المفكرين، ومن بينهم طه حسين. لقد كان هناك في

عصر طه حسين جوابٌ جاهزٌ عن هذا السؤال. إنّ جميع التيارات المحسوبة بشكلي وآخر على الغرب، ترى أنّ السبب الرئيس في التخلف المادي يعود إلى سيطرة الإمبراطورية العثمانية وانحطاط النظام السياسي للخلافة. وقد كان طه حسين بدوره يتهاهى مع هذا الجواب، بيد أنّ الذي يميّزه من سواه هو أنّه قد بدأ من أجل فهم الوضع الراهن من تحليلاته التاريخية لصدر الإسلام.

وبعبارةٍ أخرى إنّ طه حسين قد تتبّع لفهم وضع المرحلة المعاصرة المسار التاريخي من صدر الإسلام إلى اللحظة الراهنة. وقد ذهب إلى الاعتقاد بأنّ العرب في بداية الأمر كانوا في دار الخلافة، وبعد ذلك بقرونٍ خضعوا لحكم الأتراك وانبطحوا للاستعمار الأعجمي. ثم قام الأوروبيون بإخضاع العرب وسعوا كثيرًا من أجل تميع الهوية العربية. إنّ المستعمرين — من وجهة نظر طه حسين — ربما سيعلمون المسلمين شيئًا من العلوم والفنون، ولكنهم سيعملون قطعًا على قطع ارتباطهم بتاريخهم، وسوف يعملون على تذيبهم ضمن الشعوب المستعمرة الأخرى. وعلى هذا الأساس فإنّ هوية مصر تُعدّ من بين المسائل المهمّة عند طه حسين.

هوية مصر وأركانها

يقول طه حسين: إنّ الأنا والهوية المصرية هي في الأساس غربية، وإنّ الملاك في هذا التصنيف ليس هو الموقع الجغرافي والمكاني، بل إنّ الهوية المصرية كانت على الدوام متأثرةً بروما القديمة والغرب. وفي هذه الثنائية مهما كانت البلدان العربية الأخرى متأثرةً بالثقافة والعرفان في الهند والأديان الشرقية، فإنّ مصر — من وجهة نظر طه حسين — كانت مغلوبةً أمام العلاقات التاريخية والجغرافية والثقافية الغربية

العميقة، ولا يمكن تصنيفها على الشرق. إنَّ فهم هذه النقطة التاريخية من وجهة نظره والاندماج الكامل في الغرب والتحوُّل إلى جزء من الغرب، إنَّما هو الطريق الوحيد للوصول إلى التقدُّم والتطوُّر. ويذهب طه حسين إلى عدِّ تاريخ مصر متبلورًا في صلب تاريخ اليونان وروما، وقدَّم لإثبات هذا الأمر بعض الشواهد التاريخية من النصوص القديمة. وفي الوقت نفسه يرى أنَّ اللغة العربية مهمةٌ ومفيدة.

يذهب طه حسين إلى عدِّ اللغة العربية واحدةً من أركان الهوية؛ إذ يراها من أفضل ما تركه تراث المتقدمين إلى مصر الحديثة. إنَّ طه حسين — خلافاً للإسلاميين الذين يعدُّون اللغة العربية بوصفها أداةً للدعوة إلى الدين ويرونها لغة الدين الإسلامي — يرى في هذه اللغة العربية مجرد عنصر مشترك مبارك، وأنَّ من شأن هذه اللغة أن تتحوَّل إلى مادةٍ إنشائيةٍ عالية الجودة، صالحةٍ لتوحيد المجتمع المصري ضمن هويةٍ واحدة. فاللغة العربية هي التي استطاعت الحفاظ على الهوية والثقافة المصرية في العصر التركي والإمبراطورية العثمانية. وعندما قام الغربيون بنشر اللغات الأجنبية بين العرب، كان حضور القرآن في ثقافة العرب هو الذي حافظ على اللغة العربية — التي تمثل قوام اللغة العربية — من الضياع.

مسألة النظام التعليمي

من بين كثيرٍ من العوامل المتعددة والأسباب المتنوعة للتخلُّف، يذهب طه حسين إلى التأكيد على مسألة النظام التعليمي بشكلٍ أكبر. يقول طه حسين إنَّ الطلاب على مستوى البكالوريوس والماجستير في مصر لا يتحوَّلون إلى متخصصين. وإنَّ هذه المشكلة تعود إلى مسائل أخرى في منظومة التعليم، وهو لذلك يصرُّ على اختبار

القبول ولا سيّما في المدارس الحكومية، لتكون هذه المراكز العلمية — كما هو الحال في البلدان المتطورة ومن بينها فرنسا — حاضنةً للطلاب من ذوي الاستعداد والطموح والدوافع الجارحة لطلب العلم والنجاح^١.

يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بعدم وجود فهمٍ صحيحٍ للدراسات العليا. فإنّ التصوّر العام السائد عن الدراسات العالية هو أنّها أرفع من الدراسات الابتدائية والمتوسطة، وأنّ الذي يتمكن من الحصول على دراسات عليا سوف يحصل على منزلة اجتماعيةٍ لائقة، الأمر الذي يؤهله للحصول على مستوى متقدّم من العيش الكريم. ويرى طه حسين أنّ هذا التصوّر العام عن الدراسات العليا أنسب من تصوّر المستنيرين لهذه الدراسات؛ وذلك لأنّ المستنيرين ينظرون إلى الدراسات العليا بوصفها موضوعاً مقدّساً، وأنّ الغاية من دراسة العلم هي ذات العلم، بمعنى طلب العلم من أجل العلم، بغض النظر عن جميع الاحتياجات والمصالح والأهداف، وبذلك فإنّ فهمهم للدراسات العليا أشبه ما يكون بالحبّ الأفلاطوني. والطلاب بدورهم يعترضون على نتائج الاختبارات ويطالبون الدولة بكثيرٍ من الأمور.

وأما في البلدان المتطورة فإنّ الدراسات العليا تعدّ وسيلةً لا غاية، ومن هنا فإنّ الطلاب لا يسمحون لأنفسهم بالاعتراض على نتائج الاختبارات والشهادات. إنهم يتخذون من الدراسات العليا وسيلةً لتحسين أوضاع الحياة، ويهدفون إلى حصد النتائج الملموسة لهذه الدراسات في واقع الحياة. يذهب طه حسين إلى الاعتقاد

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٢٤١-٢٤٣.

بوجوب الذهاب إلى أبعد من رؤية الاتجاه العام أو تيار المستنيرين فيما يتعلّق بالنظر إلى الدراسات العليا. فإننا إذا أردنا العلم لأجل العلم فقط، واعتبرناه شيئاً مقدّساً ومعصوماً من الخطأ، فسوف تكون نظرتنا هذه إلى العلم خاطئة، وإذا نظرنا إلى العلم بوصفه وسيلةً للحصول على المنافع الراهنة أو في المستقبل نكون بذلك قد حططنا من قيمة العلم أيضًا. وعليه فإنّ الرأي الصحيح هو النظر إلى العلم بوصفه وسيلةً لتحقيق كلا الغرضين أعلاه. وعلى هذا الأساس لو كانت الجامعة تفكّر في مستقبل طلابها فلا إشكال في ذلك. وأمّا النقطة الأخرى فهي أنّ طول مرحلة الدراسة التي يعترض عليها بعض الأشخاص، ويسعون لذلك من أجل تقليصها، تتناسب مع الأعراض المرصودة للجامعة، ولا يمكن العمل على خفضها^١.

إنّ المشاكل المالية التي تعاني منها الجامعات موضوعٌ آخر شغل اهتمام طه حسين أيضًا. فإنّ الجامعة — من وجهة نظره — يجب أن تكون مستقلة، ومن الواضح أنّ مجرد تعيين ميزانيةٍ خاصّةٍ بالجامعة لا يعني الاستقلال. إنّ الجامعة بالإضافة إلى الاستقلال يجب أن تعمل على توسيع ظرفيتها على مستوى الثقافة والحضارة، وأنّ تمتلك ثروةً كافيةً للقيام بمهامّها. إنّ كثيرًا من مشاكل الجامعة ترتبط بالدولة، وهي ترتبط بموضوع الاستقلال. كما أنّ ميزانية الدولة بدورها غير كافية. والملفت أنّ الصحف تعمل على تطوير وتحسين المساعدات المالية من قبل الأثرياء الأجانب لمراكزها التعليمية، إلّا أنّ أثرياءنا لا يسرون على هذا النهج، ولا يعلمون أنّ تقديم

المساعدات لمؤسّسات التربية والثقافة والتعليم ينطوي على كثيرٍ من المنافع^١. لقد خصّص طه حسين كثيرًا من الأبحاث حول الأزهر الشريف. ومن بين هذه الأبحاث أنّ للأزهر اتّجاهًا تقليديًا، في حين أنّ المجتمع قد أصبح متجدّدًا، والنتيجة التي تترتب على هذه الظاهرة هي حدوث شرحٍ بين علماء الدين وأبناء المجتمع؛ حيث لا يعودون يفهمون بعضهم. ومع ذلك يصرّ الأزهر على إدارة جميع المناسبات، وأن يصدر شهادات تعادل شهادات الجامعات، وتتوقع أن يشغل المتخرّجون فيها مختلف المناصب والمواقع والأعمال. ولكن يتعيّن على الأزهر أن يتخلّى عن عناده، وأن يقوم بإصلاح شامل. وإذا أراد الأزهر أن يشغل المتخرجون منه المناصب نفسها التي يشغلها الذين يتخرّجون من الجامعات، فيجب عليهم أن يتعلموا الدروس نفسها التي يتعلّمها الجامعيون أيضًا^٢.

موضوع تعلّم اللغة

إنّ من بين المسائل التي حظيت باهتمام طه حسين والمفكرين بعده، هي مسألة اللغة. إنّ تعلّم اللغات الأجنبية في البلدان الإسلامية وإمكانات اللغة العربية من أجل التقدّم والتطوّر العلمي، قد استوجبت أبحاثًا واسعةً بين المفكرين المستنيرين من المسلمين. إنّ السؤال الأول الذي يثيره طه حسين، يقول: كم هو عدد اللغات الأجنبية التي يتعيّن على الطالب أن يتعلّمها؟ وما هي تلك اللغات؟ وقد عمد إلى تحليل هذه المسألة على النحو الآتي إذ يقول: لقد قام الفرنجة باحتلال بلادنا أولاً

١. م. ن، ٢٥٩.

٢. م. ن، ٢٧٦-٢٧٩.

وفرضوا لغتهم على أبنائنا، ثم جاء الإنجليز ودخلوا بلدنا وأخرجوا الإفرنج من المدارس الحكومية، وأخذوا بدورهم يفرضون لغتهم علينا. ثم عدنا بعد ذلك إلى اللغة الفرنسية ثانيةً وصار يتمّ تعليمها في المدارس المتوسطة.

وفيما يتعلّق بتعلّم اللغة الإنجليزية والفرنسية كنا نفضّل المدرّسين الأجانب، ولذلك كنّا نعمل على استقطاب وتوظيف الأساتذة من بين الإنجليز والفرنسيين، بل حتى من سويسرا وبلجيكا أيضًا. في حين أنّ هؤلاء إنّما كانوا يسعون إلى تلبية احتياجاتهم، ولم يكونوا يفكّرون بتلبية حاجات مصر. وقد أثبتت التجارب أنّ الأساتذة المصريين لم يكونوا أقلّ خبرةً من المدرّسين الأجانب، بل كانوا في بعض الأحيان أكثر كفاءةً منهم. يتعيّن على أبنائنا أن يتعلّموا اللغة العربية واللغات الأجنبية أيضًا، ولكن الحقيقة هي أنّ الذي يتعلّمه الطلاب من اللغة الأجنبية قليل جدًا. ومن هنا يجب علينا أن نعيد النظر في برنامج تعلّم اللغة. ومن الواضح جليًا أنّ حاجتنا إلى تعلّم اللغة الأجنبية أكثر من حاجة البلدان الأوروبية المتقدمة إلى تعلّم اللغة الأجنبية؛ وذلك لأنّ اللغة العربية عاجزةٌ عن تلبية الاحتياجات المتطورة. وهذا الأمر منجّل بالنسبة إلى البلد الذي يدّعي التحصّر والمدنية. وأمّا حاجتنا إلى تعلّم اللغات الأجنبية فلا يقتصر على تعلّم اللغتين الإنجليزية والفرنسية فقط؛ وذلك لأنّ العلم والفنّ والأدب والفلسفة وجميع موضوعات العلم والثقافة لا تنحصر في الإنجليزية والفرنسية فحسب، بل هناك لغاتٌ أوروبيةٌ حيّةٌ أخرى أيضًا، وهي لا تقلّ أهميّةً من الناحية الثقافية عن هاتين اللغتين.

لقد فرضت علينا الأحداث والوقائع السياسية أن نتعرّف على فرنسا أولاً، وبعد

احتلال الإنجليز لبلادنا تعرّفنا على الإنجليز، وسلّمناهم مقاليد أمورنا، وأمّا الآن حيث بلغنا مرحلة عصر نهضتنا، وحصلنا على الاستقلال، وقد أقمنا علاقاتٍ مع سائر البلدان الأوروبية، فلم يعد من المقبول أن تبقى حياتنا الفكرية حكراً على هذين البلدين، وأن تكون بلادنا مسرحاً للتنافس بينهما. وقد أدرك الناس هذه الحقيقة منذ زمن وأخذوا يرسلون أبناءهم للدراسة في ألمانيا والنمسا وإيطاليا. وقد كانت الجامعة قد تبنّيت إلى هذا الأمر واختارت اللغة الألمانية في كلية الفنون وأرسلت عدداً من الطلاب إلى ألمانيا وإيطاليا. وأمّا وزارة التربية والتعليم فإنّها لم تصل إلى هذا الإدراك بعد، وما تزال تحصر مدارسها ومنحها على إنجلترا وفرنسا. يجب على هذه الوزارة أن تحرّر نفسها من ربة هذه العبودية من خلال القضاء على هذا الاحتكار. يتعيّن على وزارة التعليم أن تعمل في الحدّ الأدنى على إضافة اللغتين الألمانية والإيطالية إلى مناهجها التعليمية في المدارس، وأن تترك لكلّ طالبٍ حرية الاختيار لتعلّم واحدة من بين هذه اللغات الأربعة الأصلية بالإضافة إلى لغةٍ أخرى. إنّ لهذا الأمر تأثيراً في التجارة وفي الصناعة والحياة المادية والجيل الجديد. ومن ناحيةٍ أخرى لو كان البناء على إعداد التعليم العام لطلابنا كي يتمكّنوا من الدخول في الجامعات والحصول على التعليم العالي، فيجب العمل على تعلّم لغتين في الحدّ الأدنى؛ وذلك لأنّ التعليم العالي لا يكفي بتعلّم لغةٍ أجنبيةٍ واحدةٍ أو لغتين فقط^١.

إنّ المشكلة الأخرى التي لا تريد وزارة التربية والتعليم أن تفكّر حولها، هي اللغة اللاتينية واللغة اليونانية. وقد عمد علي باشا من أجل حلّ هذه المسألة إلى

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ١٦٥ - ١٧٠.

إدخال اللغات اليونانية واللاتينية والألمانية في بعض المدارس، لكي يعدّ الطلاب للدخول في الجامعة. بيد أنّ الخطأ الذي ارتكبه كان يكمن في أنّه قد عمل على توظيف أساتذة من بلجيكا وفرنسا لتعليم هاتين اللغتين، ولم يستفد في هذا الشأن من الأساتذة الإنجليز، في حين أنّه على الرغم من إعلان الثامن والعشرين من فبراير/ أبريل، لم تكن مصر قد حصلت على استقلالها بعد، ولم يكن الأساتذة الإنجليز أقلّ كفاءةً من الآخرين في تعليم اللغتين اليونانية واللاتينية، وكان طلابنا أكثر كفاءةً في الاستفادة من الأساتذة الإنجليز. وكان بالإمكان أن نساير الإنجليز في هذا الشأن بشكلٍ أكبر؛ لنحصل على فائدة أكثر. بيد أنّ ماهر باشا ومستشاريه لم يلتفتوا إلى هذه المسألة، وتم حذف اللغة اللاتينية والإغريقية من المدارس المتوسطة وتمّ إضعافها في الجامعات. إنّ الاختلاف حول تعلّم اللغة قد حُسم لصالح المعارضين للغة اللاتينية، وتمّ إعفاء طلاب الحقوق من دراسة اللغة اللاتينية، وكانت نتيجة ذلك أن عجز أساتذة الفقه الروماني والفقه المدني وتاريخ الفقه — في كلية الحقوق الحديثة في الشرق — عن قراءة متونها ونصوصها بهذه اللغة، الأمر الذي تسبّب بالخجل لمصر من هذه الناحية. إنّ السبب في هذا الخطأ يعود إلى أنّ المخطّطين في كلية الحقوق لم يلتفتوا إلى الاختلاف بين المتخصّص في حقل الحقوق وبين الأستاذ في هذا الحقل. وذلك لأنّ المتخصّص في الحقوق غنيٌّ عن اللغة اللاتينية، وأمّا أستاذ الحقوق فليس كذلك.

عندما طلب طه حسين من اللجنة الإدارية في جامعة مصر القديمة أن تدرج اللغتين اللاتينية واليونانية ضمن برنامجها التعليمي في كلية الفنون، تمّ رفض هذا

الطلب؛ ولهذا السبب عقد العزم على تدريس هاتين اللغتين في هامش الدراسات الجامعية لا بوصفها جزءاً من المنهج الدراسي. ولكن لم يقتنع أحد بتعلّم هاتين اللغتين سوى القليل. يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ مكر الأوربيين كان مؤثراً في هذا المسار، فإنّهم كانوا قد أقرّوا تعلّم هاتين اللغتين في جامعاتهم، ولكنّهم كانوا يحذرون الآخرين من تعلّمهما.

إنّ السؤال الرئيس الذي يطرحه طه حسين، هو أنّنا هل نريد أن نخلق في مصر فضاء للعلم الخالص الذي يشبه الفضاءات العلمية الموجودة في البلدان الأوروبية على مستوى عالٍ، أو أن نبني طبقةً متوسطةً أم لا نريد ذلك؟ إنّ كُنّا لا نريد ذلك فلا حاجة لنا إلى تعلّم هاتين اللغتين، وأمّا إذا كُنّا نريد، فيجب تعلّم هاتين اللغتين لا في الجامعة فقط، بل حتى في المدارس الحكومية أيضاً. لقد قامت مصر بتأسيس جامعة مصر القديمة من أجل رفع مستوى طلابها وإعداد الأراضية لاستقلال الطلاب. مثل سائر البلدان الأخرى التي يحظى فيها المفكّرون الأحرار والمستقلّون بالدعم. وعلى هذا الأساس يجب على مصر أن تنظر إلى الأمم الحيّة والمتطوّرة، وأن ترى كيف سلكت مسارها من أجل إعداد المفكّرين الأحرار والمستقلين، ثم تحذو حذوها وتسلّك ذات المسار الذي سلكته هذه الشعوب المتقدمة. ولو أنّها قد فعلت ذلك لكانت قد حققت رغبتها، ولو لم تقم بذلك فسوف تبقى تابعة لأوروبا، حتى وإن خدعت نفسها بأنواع الأوهام العلمية.

إذا وجب علينا أن نسلك مسار التقدّم على خطى سائر الأمم، إذن يجب علينا تعليم هاتين اللغتين القديمتين لبعض الشباب المصري الذين يعدّون أنفسهم في

بعض حقول التعليم العالي. لقد فشلت الجامعة في هاتين اللغتين بعد تحقيق مهمتها، ولن تصل إلى الغاية التي تأسست من أجلها، ولن تصل إلى الغرض الذي طلبت من أجله. هناك من يرى كفاية تدريس هاتين اللغتين في كلية الفن، ولكن الحقيقة هي أنّ هاتين اللغتين ضروريتان في التعليم العام أيضًا. لا شك في أنّ مقدار ما تعلّمه الطلاب من اللغة اللاتينية واليونانية من الضحالة بحيث لا ينطوي تعلمهم لهاتين اللغتين على أيّ فائدة تذكر؛ ولذلك يتعيّن على الجامعة أن تعمل على تدارك هذا النقص، وتحسين ما فات تعلمه في المرحلة المتوسطة، كي تصل إلى تحقيق المنفعة العلمية الوطنية. وهي في الوقت نفسه مضطّرة إلى مطالبة وزارة التربية والتعليم من أن تقوم بوظائفها على المستوى العام، وأن تعمل على إعداد الطلاب للحصول على التعليم الجامعي الصحيح.

وعلى هذا الأساس يتعيّن على الذين يريدون إحياء تاريخ مصر والنزعة القومية المصرية، أن يأخذوا هذا الأمر على نحو الجد، وأن يعملوا على استدعائه ببصيرة وإدراك، وأن يطالبوا في الوقت نفسه بالاستفادة من الأدوات للوصول إلى ذلك، وأن يكونوا هم الأداة الأهم في هذا الشأن. إنّ طريق الوصول إلى ذلك يكمن في تعلّم هاتين اللغتين، وإنّه لمن المخجل أن نكون مضطرين إلى بيان الأولويات وتكرار هذه العبارة، وأن نبدأها بهذه الواقعية، وهي أنّ العلاقة بين مصر واليونان قديمةٌ جدًّا، وأنّ الإغريق قد صوّروا ذلك^١.

إنّ طه حسين على علم باختصار المنهج الدراسي ولا ينوي إضافة اللغة إلى

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ١٧١ - ١٨١.

هذا المنهج. إنّه يعتزم من بين تعلّم ثلاث لغاتٍ من اللغات الحية في العالم، وهي اللاتينية واليونانية واللغة العربية، أن يترك الخيار إلى الطلاب. إنّه يسعى إلى رسم نظامٍ تعليميٍّ بحيث يشتمل أولاً على قسمٍ مشتركٍ من الدروس، من قبيل: التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية، وأن يشتمل ثانياً على قسمٍ متنوّعٍ من اللغات والحقول؛ ليؤدّي إلى إعداد طلابٍ متنوّعين بحيث تقوم كلّ مجموعةٍ منهم على تلبية الحاجات المتنوّعة للمجتمع. إنّ هذا المنهج الدراسي يخرج النظام التعليمي من الجمود والعقم، ويعدّ الطلاب اليافعين إلى الدخول في الجامعة^١.

لقد كان طه حسين يذهب إلى الاعتقاد بأنّ اللغة العربية تحتاج إلى إصلاح. وقد عمد الأزهر الشريف إلى تأسيس دار العلم لهذه الغاية وقد حقق بعض النجاحات. بيد أنّ تكامل اللغة العربية في أبعادٍ متعدّدةٍ لا صلة له بدار العلم الذي أسّسه الأزهر. فقد تمّ إبداع الأعمال الأدبية الرائعة في هذه المرحلة، وظهرت أدبياتٌ بارزة، ولكن لم يكن أيّ منها من إنتاج دار العلم^٢.

إنّ اللغة العربية — من وجهة نظر طه حسين — لغة حياة؛ فهي لغةٌ حياةٌ عقليةٌ وعملية، وهي لغةٌ تؤثّر في الذهن، ولم تكن هذه الأبعاد من اللغة مورد اهتمام مراكز من قبيل الأزهر. لقد كانت اللغة العربية موجودةً قبل الأزهر وقبل الأزهريين وقد شهدت تطوّراً ونماءً. ولا يمكن عدّ اللغة العربية لغةً للدين فقط؛ فما أكثر الأشخاص الذين لا ينتمون إلى الدين الإسلامي ومع ذلك فقد تعلّموا اللغة

١. م. ن، ١٨٤ - ١٨٥.

٢. م. ن، ٢٢٣ - ٢٣٤.

العربية. وما أكثر الأشخاص الذين لم يكونوا عربًا، ثم تعلّموا العربية، وعملوا على تطويرها وأسهموا في تكاملها؛ ولهذا السبب يكون إشراف الأزهر على تعلّم اللغة العربية ضارًا. إنّ الأزهر لا يتجاوز النصوص القديمة، ولا علم له باللغات المحدثّة في العالم. وهناك من يتبع الأزهر الشريف في ذلك خشية من الاتهام بالمروق من الدين. وفي البلدان الأخرى لا يقوم علماء الدين بتعليم اللغة، وفي مصر بدورها لا ضرورة ليكون تعليم اللغة العربية حكرًا على الأزهر، وإنّ الدولة هي التي يتعيّن عليها أن تصدّي لمهمة تعليم اللغة العربية وليس الأزهر. علينا أن ننظر إلى اللغة العربية بنظرة حضارية^١.

إنّ اهتمام طه حسين بالاختلاف بين اللغة العربية الفصحى واللغة العامية، قد تمّ بسطه من قبل المفكرين بعد طه حسين ولا يزال هذا الموضوع موردًا للبحث والنقاش. يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ اللغة العربية التقليدية — التي هي لغة القرآن والحديث — يجب أن تشرف الدولة على تعليمها.

وأما اللغة العامية فهي من وجهة نظره مناسبةٌ لإدراك الحياة اليومية وفهمها، ولكنها أشدّ نقصًا من أن يمكن تسميتها لغة فهي مجرد لهجة. وأما اللغة العربية الفصحى فهي تحتاج إلى إصلاح؛ وذلك لأنّها إن كانت لغةً دينيةً، وكان تعليمها حكرًا على علماء الدين، فلن تجدي شيئًا. إنّ إصلاح اللغة العربية تعدّ ضرورةً في الحياة، بل هي ضرورةٌ دينيةٌ أيضًا. إنّ شبابنا لا يفهمون قواعد اللغة العربية ولا يحبونها ولا يشعرون بالمتعة عند تعلمها. ولا يمكن لهم فهم الآيات والروايات

من خلال هذه اللغة أيضًا. وفي هذه الحالة إذا لم نعمل على إصلاح اللغة العربية فإنها سوف تضمحل وتزول. إن إصلاح اللغة يمثل مقدّمًا لإصلاح نظام التربية والتعليم. ليس جميع الناس يستطيعون فهم واستيعاب اللغة العربية، كما أنهم ليسوا على استعداد لقضاء سنواتٍ طويلةٍ في تعلمها. نحن نريد لأبنائنا أن يتقنوا القراءة والكتابة في المرحلة الابتدائية من الدراسة، وأن يحصلوا على فهم ومعرفة في هذا الشأن، إذ في غير هذه الحالة تكون الدولة قد أهدرت الأموال دون طائل. وإن هذه الغاية لا يمكن لها أن تتحقق دون تعلّم هذه القواعد اللغوية الراهنة^١.

إن السيطرة على قواعد اللغة لا تودّي—من وجهة نظر طه حسين—إلى السيطرة على اللغة، وعلى هذا الأساس يجب تقليل تعليم قواعد اللغة إلى مقدار الضرورة فقط. يتصوّر الأزهر أن قواعد اللغة هي النواة الأصلية وهي ماهية اللغة، في حين أن الأمر ليس كذلك. إن شبابنا يقرأون الكتب القديمة في الأدب، مثل قصص كليلة ودمنة ولكنهم لا يأمنون بها ولا يستمتعون بقراءتها. وقد عمدت وزارة التربية والتعليم إلى تشكيل لجنة من أجل تحديث الكتب الأدبية، وقد عملت هذه اللجنة على إجراء بعض الإصلاحات ولكنها لم تكن كافية.

إن اللغة والأدب من أهمّ مصادر الثقافة العامة؛ وذلك لأنّها تترك تأثيرها في الذهن وفي القلب. ثم إن اللغة تجعل العقل والقلب مستعدين للتعلم. بيد أن اللغة التقليدية لا تتسع لهذه المهمة بحيث تجعل الطلاب مستعدين للتعلم في ظروف الحداثة. هناك كثيرٌ من الأمور التي لا صلة للغة التقليدية بها. لقد أدركت الدول

المتقدّمة أهميّة اللغة وعملت على تنظيمها. وتعمل دول مثل فرنسا في المرحلة المتوسطة على تعليم اللغة الأم بالإضافة إلى لغةٍ أجنبيةٍ أخرى. لا ينبغي فرض اللغة الأجنبية على الطالب رغماً عنه ودفعه ليكون أكثر تشبّهًا بلغته الوطنية، بل يجب إعطاء الأولوية للغة الوطنية^١.

التخلف وأسبابه

إنّ من بين المسائل التي شغلت اهتمام طه حسين عبارة عن تكوين العقل العربي. وهي المسألة التي واصل العمل عليها في المراحل اللاحقة كلّ من محمد عابد الجابري، وحسن حنفي، ومحمد أركون أيضًا. والسؤال الأساس الذي يطرحه طه حسين في هذا الشأن هو: لماذا أضحت الفلسفة من مقومات العقل الأوروبي في حين لم يكن لها أيّ دور في تكوين العقل العربي؟ هذا في حين أنّ أوروبا قد تعرّضت بعد مرحلة من الازدهار إلى هجوم المجتمعات البربرية، وانحدرت نحو السقوط، بينما قام المسلمون بأخذ الفلسفة من اليونان وأضافوا عليها، ثم نقلوها إلى أوروبا، ومدّوا لها بذلك جبل الخلاص والتحرر، إلّا أنّ العقل الإسلامي نفسه لم يستفد منها شيئاً^٢. لقد هجمت تركيا على الشرق الأدنى وقطعت الطريق الرابط بين هذا الشرق وبين أوروبا وأثرت في عقله وأدّت إلى تخلفه. بيد أنّ هجوم البرابرة في العصور الوسطى على أوروبا لم يؤدّد إلى هذه النتيجة. والمسألة الأخرى هي أنّ مصر كانت وحدها التي حافظت على الحضارة والعقل والتراث الإسلامي في البين، لتعمل

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٢٠١-٢٠٤.

٢. م. ن، ٢٧-٢٩.

في الوقت المناسب على إعادته إلى الشرق وإلى الغرب أيضًا. ليس هناك اختلافٌ جوهريٌّ بين العقل في حوض المتوسط والعقل المصري والعقل الأوروبي، بل إنَّ الظروف والمقتضيات المختلفة هي التي أدت إلى نتائج مختلفة^١.

لقد كان لنظام الخلافة والإمبراطورية العثمانية والدين دور في تخلف مصر من وجهة نظر طه حسين. وقد شبّه مرحلة سيطرة نظام الخلافة على مصر بمرحلة سيطرة الكنيسة في المرحلة السابقة على عصر التنوير. ولكن بعد صدور كتابه (في الشعر الجاهلي)، وردّة الفعل العنيفة التي تلقاها من قبل المجتمع، أخذ بعد ذلك يتكلّم بحذر شديد حول الإسلام ودور الدين في التخلف.

إنَّ طه حسين يعدّ جميع هذه الأسباب مستوجبةً لحدوث الاختلال في محورين عامين، أحدهما عدم التناسب بين الدولة والتعليم، والآخر هو الانحطاط السياسي وتدايعات ذلك.

التعامل غير المتناسب بين الدولة والنظام التعليمي

تراجع المتخرجين من مختلف المراكز التعليمية

يجب إيكال التعليم لمُدّةٍ طويلةٍ وبشكلٍ دقيقٍ إلى الدولة لتشرف عليه بشكلٍ كامل. حاليًا هناك كثيرٌ من المصريين الذين يجهلون الحداثة والديمقراطية. إنَّ الدارسين المصريين الذين تقلّ نسبتهم عن العشرين بالمئة، قد تلقوا تعليمًا بأساليب مختلفة، بل متعارضة أحيانًا، ويقوم بعضهم بطرد ونبد بعضهم، ويمكن لذلك أن يُشكّل خطرًا على مستقبل مصر.

وقد كان هذا الفساد الذي غرس مخالفه في الجسد التعليمي لمصر ثمرة نشاط الإنجليز، وقد دفعتنا سنوات الجهود في إصلاحه إلى اليأس والقنوط. إنَّ المنهج التعليمي الذي كان يقدِّمه الأجانب دون التواصل مع الدولة ودون الالتفات إلى حاجة المجتمع، كانت نتيجته عبارةً عن الشعور بالكراهية لمصر. إنَّ التعليمات الدينية والمدنية الفرنسية والإيطالية واليونانية والإنجليزية والأمريكية والألمانية، لا تؤدِّي إلى تطوير التفكير. لقد كانت ثمرة هذه التعليمات المختلفة أولاً: عدم حبِّ وتعلق الشباب بمصر.

وثانياً: إنَّ اختلاف التوجهات قد خلق لنا كثيراً من المشاكل.

فقد كان هؤلاء المتخرِّجون من مختلف المراكز التعليمية يعملون على طرد بعضهم. وإنَّ هذه البرامج الرسمية غير الخاضعة لإشراف الدولة أضحت مصدراً لفساد سوف يظلُّ أثره باقياً لمُدَّةٍ طويلة١.

أزمات الأزهر الشريف

إنَّ من بين المراكز التعليمية الأخرى التي لم تكن خاضعةً لإشراف الدولة، هو الأزهر الشريف والمراكز التابعة له في كافة أنحاء مصر. إنَّ الأزهر على الرغم من حصوله على ميزانيةٍ مرصودةٍ ضمن موازنة الدولة وأموال الأوقاف، ولكنه مع ذلك لا يخضع لإشراف الدولة. إنَّ دار العلوم ومدارس القضاء والمراكز العلمية الأخرى لا هي دينيةٌ بحتةٌ، ولا هي مدنيةٌ بحتةٌ، إنَّ هذه المراكز العلمية بسبب بطئها وعدم حيويتها

تحتاج إلى إصلاح وإلى إعادة نظر. هذه كلّها تمثّل صورةً للحياة العقلية في مصر^١.

الأزمات الاقتصادية للتعليم العام

في حقل التعليم العام تحتاج بعض العلوم إلى تزويدها بالمعدّات، وأن يُرصد لها بعض النفقات، وبطبيعة الحال فإنّ تعلّم هذه العلوم ليس ضروريًا للجميع. وعليه فإنّ من بين الطرق لحلّ هذه المشكلة هو الحصول على جزءٍ من النفقات من الطّلاب أنفسهم. ومن الواضح في مثل هذه الحالة أنّ الطبقات الفقيرة لن تكون قادرةً على مواصلة الدراسة، وسوف ينجم عن ذلك نوعٌ من الإجحاف والطبقية في حقل التعليم.

والطريق الآخر هو أن تتكفل الدولة بجميع النفقات، ولكننا في مثل هذه الحالة سوف نواجه مشكلةً أخرى تتمثّل في عدم استحقاق كثيرٍ من الطّلاب لهذه التسهيلات بسبب عدم استعدادهم أو عدم قابليتهم للتعلّم، وسوف يدخلون في هذه المجالات ويتسببون بإهدار هذه الثروة. ويبدو أنّ الطريقة المنطقية لحلّ هذه الأزمة هو أن يكون التعليم في هذه المدارس مجانيًا، ولكن لا يُسمح بالدخول فيها إلاّ للطّلاب الأكفّاء الذين يتمّ تحديد أهليتهم من خلال إجراء اختبار لإثبات كفاءتهم. وعليه فإنّ التعليم العام يجب أن يكون متاحًا للجميع، ولكن إذا لم يكن الطالب قادرًا على دفع تكاليف التعليم يجب عليه إثبات أهليته من خلال اجتياز اختبار الكفاءة، وأن يخرج منه بنجاح.

لا بدّ من تحوّل هذه المسألة في الثقافة إلى مفهومٍ عامٍّ وهي أنّ الشراء ليس مزيةً، وأنّ الفقر لا يُعدّ مثليةً ذاتية. إنّ الثروة تفرض على صاحبها بعض الحقوق الخاصة،

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٦٩-٥٩.

والفقر بدوره ينبغي ألا يشكّل مانعاً يحول دون وصول الفقراء إلى حقوقهم. عندما يتعرّض الوطن إلى الهجوم من قبل الأعداء، يكون الفقراء غالباً هم الذين يتصدّون للدفاع عنه ويضحوّن بأرواحهم من أجله، وإلا فإنّ الأثرياء عادةً يفتدون أنفسهم بأموالهم ويتمّ إعفاؤهم من خدمة العَلَم. وعليه فمن هو الأهم بالنسبة إلى الدولة؟ ذاك الذي يضحي بنفسه أو ذاك الذي يراكم ثرواته؟ وقد سبق لفرنسا أن أقرّت نظام التعليم المجاني، ولكنها أدركت آفات هذا النظام لاحقاً. وعليه يجب أن يكون التعليم العام مجانياً بالنسبة إلى أولئك الذي لا يستطيعون دفع نفقات التعليم، ولكن على شرط أن يثبتوا كفاءتهم لمواصلة التعليم^١.

تداعيات تحديد التعليم العام

هناك من يعارض التعليم العام بالمطلق. فبالإضافة إلى كثرة المتخرّجين الذين لا يجدون فرصة عملٍ بعد التخرّج، نواجه هناك مشكلةً أخرى أيضاً. الشباب الذين لا تستطيع الدولة أن توفّر لهم فرص عملٍ، ويخلق ذلك أزمةً، وامتعضاً من قبل الناس، وخلافاً في النظام الاجتماعي بالإضافة إلى التبعات الأخرى التي لا يمكن التكهن بها. وعلى هذا الأساس يجب على الدولة أن تراعي الاعتدال في حجم قبول الطلّاب في التعليم العام، وأن تعمل على تخريج الطلّاب بمقدار حاجة المجتمع. وهذا — بطبيعة الحال — يتنافى مع الديمقراطية؛ وذلك لأنّ هناك من الطلّاب من سوف يتخلّف عن الدراسة وبسبب جهله لن يكون قادراً على المشاركة في ممارسة الديمقراطية وتحديد مصيره، ويقع ضحية لاستغلال الآخرين. وعلى هذا

الأساس لا يمكن الإيمان من جهة بالديمقراطية والقانون والدستور والنظام البرلماني والانتخابات العامة والمباشرة، والمطالبة في ذات الوقت بالتعليم العام وتخصيصه بطبقة خاصة من المجتمع فقط.

إنّ القوّة لا تأتي من الجهل والحقاقة والرضوخ والذل والإذعان والاستسلام. إنّ القوّة إنّما تنشأ عن الأنفس المثوبة والطامحة والكريمة التي تعرف محتوياتها وإمكاناتها، وتريد أن تستمتع بها وتعرف كيف يجب أن تتقدّم وتزدهر. ولكن لا يمكن عدّ الناس مصدرًا للقوّة، والعمل في الوقت نفسه على نبذهم في جهلهم دون الاهتمام بتعليمهم العام. إنّ بطالة الشباب تشكّل معضلة كبيرة تهدد الأخلاق وتهتدّد النظام الاجتماعي. وتعدّ كثرة المعاصي والانحراف والسخط العام وكراهية النظام الاجتماعي والتمرد من بين تبعات البطالة. بيد أنّ هذه المشكلة لا يمكن العمل على إصلاحها من خلال تحديد التعليم وحصره بمجموعة قليلة، وفرض الجهل على الأكثرية وخلق نظام فاشل، بل يتمّ إصلاحها من خلال معالجة أمراض المجتمع. إنّ أزمة البطالة يتمّ علاجها من خلال التعليم العام وإصلاح وتوجيه الناس.

إنّ التعليم يؤدّي إلى تعرّف الناس على حقوقهم وتكاليفهم، وألاّ يذعنوا للظلم، وألاّ يسمحوا للدولة بممارسة العنصرية، والتفريق بين الناس على أساس توجهاتهم وانتفاءهم، ولن يتمّ بسط العدل والقسط في مصر إلاّ بهذه الطريقة فقط^١.

أزمات وزارة التربية والتعليم

يجب تسليم روح الطالب إلى المعلّم لكي يخلق منه عنصرًا مفيدًا للمجتمع؛ ليتحقّق

بذلك التقدّم في نهاية المطاف. وإلا فإنّ المعلّم في غير هذه الصورة سوف ينظر إلى الطالب بوصفه جسداً من دون روح، ومثل المصنع الذي تتكدّس فيه البضائع الكثيرة، سوف يتحوّل الطالب إلى واحدٍ من أفراد رعية السلطان، ويحمد فيه لهيب الشعور بالكرامة، واحترام الذات، ويموت لديه مفهوم الحياة. وفي هذه الحالة لن يعدّ المعلّم نفسه وساطةً بين الدولة والناس، بل سوف ينظر إلى مهنة التعليم بوصفها مجرد حرفة تضمن له الحصول على راتبه الشهري، ولن يشعر بالعاطفة تجاه الطالب، ولن يشعر بالمسؤولية تجاه الدولة. وعلى هذا الأساس فمن الخطر ألاّ تصبح وزارة التربية والتعليم في مصر ملاذاً آمناً للغايات الأخلاقية.

ليس هناك وزارةٌ في مصر تحمل كماً كبيراً من الآفات الاجتماعية من قبيل التنافس السلبي بين الموظفين وانتشار الأحقاد والضغائن والحسد والخداع وسوء الظن وخبث الأفكار، كما هو شائع في وزارة التربية والتعليم. هناك شعورٌ من عدم الثقة بين الأفراد والجماعات والفرق والمعلمين والمفتشين فيما بينهم وبين المراتب العليا. وهكذا نشهد تبديل وزراء التربية والتعليم بشكلٍ دائم، حيث يعمل الوزير الجديد على إلغاء تعليمات الوزير السابق، ويقدم برنامجاً جديداً. وبطبيعة الحال كان هناك بعض الخبراء والمديرين الذين قاوموا الوزراء، وقد تمكّنوا في بعض الحالات من إجبار الوزير على الاستقالة. إنّ آفة وزارة التربية والتعليم مستعصيةٌ على العلاج، وتحتاج إلى إجراء عمليةٍ جراحيةٍ كبرى^١.

وهناك مشاكل أخرى تعانى منها وزارة التربية والتعليم، ويمكن الإشارة من

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ١١٥ - ١٢١.

بينها إلى روح السمسرة الحاكمة على أجوائها، والإشكالات الموجودة في نظام الاختبارات، وضعف موقع المطالعة الحرّة، والانحراف عن الغرض من التعليم العام. تعمل وزارة التربية والتعليم على توزيع الكتب الدراسية والقرطاسية بين الطلاب، وبذلك فإنّها تتحول إلى مركز تجاريّ أو إلى وسيط تجاريّ يعمل على نشر وإصدار الكتب وتوزيعها كلّ سنة على الطلاب في جميع أنحاء البلاد. وتعمل وزارة التربية والتعليم على التعاقد مع كتّاب بأشخاصهم وتمنحهم حقوق نشر هذه الكتب أو شرائها منهم. في حين يمكن توفير الأرضية لتأليف الكتب بما يتناسب مع الاحتياجات التعليمية، وإعادة الحرية والاستقلال إلى العلم. وفرض نفقات هذه اللعبة التجارية على عاتق الدولة. واللافت أنّ الوزارة لم تقبل بأخذ مهمة توزيع الكتب الدراسية في الجامعة على عاتقها، ولم يؤدّ ذلك إلى عدم حدوث فساد في البين فحسب، بل قد أدّى ذلك إلى أن تقوم الجامعة بإعداد كتبها بنفسها، ومنعت دون تحمّل الطلاب نفقة إضافية من أجل الحصول على الكتب أيضًا^١.

إنّ الاختبارات القاسية في مصر تشكّل تهديدًا وخطرًا على التعليم والأخلاق والسياسة. لقد اعتبرنا الاختبار — الذي هو وسيلة — غاية، وأقمنا تنظيم جميع الأمور التربوية على أساسه. إنّ الاختبار والقبول أو الرسوب قد استحوذ على أذهان الشباب وأسرهم، وأضحى هو الملاك للحكم لهم أو عليهم. إنّ الشباب قبل أن يفكروا في طلب العلم والاستفادة منه أو أن يستعدوا بوساطته لمواجهة الحياة، يفكّرون في الاختبار لكي ينجحوا فيه، ويحلبوا بذلك الفخر لأنفسهم وآبائهم.

إنّ الشاب الذي شغل الاختبار كلّ مساحته الذهنية يمثّل نموذجاً لتفكير أسرته وأساتذته وزملائه، وما عليه واقع الحال في وزارة التربية والتعليم. لقد تحوّلت المدرسة إلى مختبرٍ مقيتٍ وبغيضٍ حيث تعمل على تجهيز الفرد على الدوام لمواجهة الاختبار بدلاً من الحياة. إنّ الشاب المصري ينظر إلى الوسيلة بوصفها غايةً، وإلى الغاية بوصفها وسيلةً؛ ولذلك فإنّه يفهم الأمور بالمقلوب، ويصدر الأحكام بشكلٍ معكوس. وفي هذا الاتجاه فإنّه لا يفهم مباحثه الدراسية ومسائل حياته بشكلٍ جيد، ولا يحكم بشأنها على نحوٍ صحيح^١.

إنّ القراءة والمطالعة الحرّة تشغل أقلّ من نصف وقت التعليم العام، ومع ذلك فإنّه لا يلقي ترحيباً من الطلاب ولا من المعلمين. وقد تكون هذه المطالعة الحرّة أكثر نفعاً من الدروس المفروضة على الطلاب؛ وذلك لأنّ الإنسان يميل نحو ما يتوفّر لديه بشكلٍ أكبر بالقياس إلى ذلك الذي يفرض عليه. إنّ تأثير العلم على ذهن وروح الطالب الأوروبي إنّما كان نتيجةً لهذه القراءات الحرّة، لا إلى ما أملاه عليهم المعلمون. إنّ المعلم يجب أن يكون مرشداً للطلاب في اكتشاف الحقيقة، وليس إجباره على القبول بها.

هناك تناقضٌ بين إعداد الطالب لأداء الاختبار وتحويله إلى إنسانٍ حرٍّ ومفكّر؛ حيث لا يمكن توقع إنجازهما من قبل المعلم في وقتٍ واحد. وحتى لو أمكن للمعلم أن يحقق مثل هذه المعجزة، فلا يمكن للطلاب أن يتقبلها. والمؤلم في البين أنّ امتناع الطلاب عن المطالعة الحرّة لا ينبثق عن إرادةٍ مستقلةٍ منهم، بل هو نتيجة

الفصل الرابع: فكر طه حسين ❖ ١٣٣

لامتناع المعلّمين. فإنّ لمشاكل المعلّمين ولا سيّما مشاكلهم الاقتصادية تأثيراً مهمّاً في هذه المسألة. إنّ المشاكل الاقتصادية للمعلمين قد فرضت عليهم بعض التحدّيات فيما يتعلّق بتربيتهم لأبنائهم، فكيف يمكن أن نتوقّع منهم النجاح في تربية أبناء المجتمع والوطن. وكيف يمكن له أن يختار من بين حلّ مشاكله الاقتصادية والعمل على دراسة وتكامل الثقافة أحدهما؟ فحيث لا يكون المعلّمون من الراغبين في المطالعة الحرّة، بل قد نسوا حتى الكثير من المطالب التي تعلموها في مراحلهم الدراسية عندما كانوا مجرد تلاميذ، كيف يمكن أن نتوقّع منهم تشجيع التلاميذ على المطالعة الحرّة^١.

إنّ المشكلة الأخرى التي تعود إلى ماهية التعليم والتي تمثّل نتيجةً لحضور الإنجليز في مصر، تعود إلى الغرض من التعليم العام. إنّ الغاية من التعلّم في البداية كان عبارةً عن إخراج الناس من ظلام الجهل إلى نور العلم، بيد أنّ حاجة الدولة إلى الموظفين الأكفاء، قد عملت على تغيير هذه الغاية إلى إعداد القوى البشرية. إنّ التعليم قبل احتلال الإنجليز لمصر كان يتبع النماذج الفرنسية، وكان في الغالب يتناسب مع حالة بلدٍ حرٍّ، وفي طور التقدّم والازدهار. وأمّا الإنجليز فقد عمدوا إلى توجيه التعليم نحو إعداد الموظفين وعملوا على تحديد العلم في مصر، ودفعونا نحو الخمول والكسل. كما أنّهم قاموا بمحاصرة الأشخاص الذين أدركوا الحرية والاستقلال في مصر، وطالبوا بهما، وعملوا على طردهم من المدارس. وقد خرج الإنجليز، وبقيت هذه المشكلة على حالها. هناك من يرى أنّ الغرض من الدراسة

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ١٣٩ - ١٤١.

والتعليم في المرحلة المتوسطة هو الاستعداد للتعليم العالي، ولكن حيث لا يكون هناك من غرضٍ مرصودٍ للتعليم العالي، فسوف يبقى التعليم العام من دون غاية. وهناك من قال بأنَّ الغاية من التعلّم هي إعداد الشباب للحياة، ولكنهم لم يقدموا توضيحًا لهذه الغاية^١.

الانحطاط السياسي وتداعياته

لقد عمد طه حسين في كتابه (مرآة الإسلام) وسائر أعماله الأخرى إلى بحث التحوّلات السياسية وتداعياتها الاجتماعية منذ صدر الإسلام إلى المراحل اللاحقة، وعدّ الانحطاط السياسي منذ عصر الخليفة الثالث علةً لانحطاط الخاصة، وانهار الاتحاد السياسي، وإيجاد التفرقة والاختلاف بين الفرق والمذاهب، التي ما يزال المسلمون يعانون من تبعاتها وتداعياتها إلى يومنا هذا.

إنَّ طه حسين يعدّ مرحلة حكم النبي الأكرم ﷺ عصرًا لاتصال السماء بالأرض، حيث لم يكن للنزاع والاختلاف موضعًا من الإعراب فيه. كما عمل أبو بكر بن أبي قحافة — من خلال القضاء على ارتداد بعض الأعراب — إلى إعادة النشاط والاستقرار إلى المجتمع الإسلامي. بيد أنَّ عمر بن الخطاب واجه مشكلاتٍ لم تكن موجودةً في عصر النبي الأكرم ﷺ. إنَّ الفتوحات واتساع الرقعة الجغرافية تحت حكمه، والغنائم الكثيرة، والأراضي المفتوحة، والجماعات التي اعتنقت الإسلام حديثًا، بالإضافة إلى أمورٍ من هذا القبيل، كانت تشكّل أرضيةً للخلاف والانحراف، وتتطلب أسلوبًا مختلفًا في الحكم. بيد أنَّ عمر بن الخطاب من خلال

ممارسة الضغط والقسوة على الأصحاب أمسك بمقاليد السلطة والسيطرة على الناس، وأغلق الأبواب على جميع أنواع الانحراف.

كان عمر بن الخطاب ينشد الطريق إلى حلّ المشكلات من خلال اتّباع الكتاب والسنة أو سيرة الخليفة السابق، وإن لم يجد جواباً هناك، دعا إليه أهل الحلّ والعقد من المهاجرين والأنصار، وكان بالتشاور معهم يتغلب على المشكلات، ويتمكّن من حلها.

وفي السنوات الأولى من حكم عثمان بن عفان لم تكن لديه مشكلات، ولكنّه حيث أخذ خلافاً لأسلوب حكم الخليفة الثاني، ومنح الناس فسحةً من الحرية، وأخذ يجابي قريش وبني أمية، خرجت الأمور عن سيطرته. وصار كثيرٌ من الناس ينزعون إلى التمرد وشقّ عصا الطاعة، حتى وصل الأمر في نهاية المطاف — على الرغم من وساطة بعض الصحابة ولا سيّما منهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لتهدئة النفوس، والدفاع عن عثمان وصدّ المهاجرين — إلى مقتل الخليفة الثالث. كان طه حسين يرى أنّ الخليفة الثالث كان عاجزاً عن إدارة أمور الخلافة؛ وذلك لأنّ أصحاب الأطماع من قريش، ولا سيّما بني أمية منهم كانوا هم الذين يمسكون بزمام الأمور، بل كانوا هم الذين يعزلون وينصبون الحكّام والعمال. وهو يرى أنّ عثمان قد رضخ لهم تماماً^١.

وكان طه حسين يرى أنّ الإمام علي عليه السلام كان رجلاً سياسياً، ولكنّه لم يعمل

١. طه حسين، آئینه اسلام، ٢٠٥.

أبدًا على توظيف السياسة من أجل الوصول على مآرب دنيوية^١. إنَّ الإمام علي عليه السلام — من وجهة نظره — على الرغم من إيمانه بأحقية بني هاشم بالخلافة، ولكنه بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله رفض عرض عمّه العباس لمبايعته مخافة حدوث الفتنة بين المسلمين^٢. وأمّا في عصر حكم الإمام علي عليه السلام، فقد امتنع معاوية في الشام عن بيعة الإمام عليه، وخرجت عليه عائشة، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وجماعة واكتبهم إلى البصرة، وأثاروا عليه الخلاف والحرب. ومع ذلك لم يبادر الإمام علي عليه السلام إلى قتالهم، ودعاهم إلى الصلح وأتمّ الحجّة عليهم. وقد تمكّن من الانتصار على المتمرّدين في البصرة، وأعاد عائشة إلى المدينة معززةً مكرّمة.

وفي الحرب مع أهل الشام كان الإمام علي عليه السلام بعد كثيرٍ من المنعطفات على قاب قوسين من تحقيق النصر، وقد عقد معاوية بن أبي سفيان عزمه على الهروب، حتى دبر له عمرو بن العاص حيلة رفع المصاحف، وخدع بذلك شطرًا من معسكر الإمام علي، وقد فرض عليه هؤلاء صلحًا غير مستقرٍ على أسسٍ ثابتة. وبعد ذلك بقليلٍ تمكّن الإمام علي عليه السلام من القضاء على الخوارج، ولكن ذهبت جميع جهوده في إقناع أصحابه على العودة إلى الحرب مع معاوية أدراج الرياح، وكانوا يتذرّعون ويختلقون الحجج لمخالفته وعدم الاستجابة لأوامره. وفي نهاية المطاف ظنّ ما تبقى من الخوارج أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، قد عاثوا في الأرض فسادًا، وأخذوا قرارًا بقتلهم جميعًا، ولكنهم فشلوا في

١. م. ن، ٢١٩.

٢. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٢: ١٧.

قتل معاوية وعمرو بن العاص، ولم يقتلوا غير الإمام علي عليه السلام.
لقد كان الإمام علي عليه السلام يريد إعادة الناس إلى الطريق الصحيح، ولكنّ الناس
لم يساعده على ذلك، وقد اتّخذت الأمور وجهةً أخرى بحيث جعلت هذه المهمّة
مستحيلة التحقيق.

وهكذا فقد تمكّن معاوية بن أبي سفيان من الوصول إلى السلطة، وجعل نجله
يزيد وارثاً لحكمه، وأخذ يخلّل حرام الله ويحرّم حلاله، وكانت هذه بداية التمرد
على أحكام الكتاب والسنة. وتحوّلت الخلافة إلى مُلكٍ عضوض، وأصبحت أموال
الناس وبيت المال ملكاً للحاكم، وعمّ الفساد جميع مرافق الحياة. وارتفعت وتيرة
الخلافات المذهبية، وظهرت الفرق المذهبية والكلامية المختلفة. وقد ذهب طه
حسين إلى الاعتقاد بأنّ أكثر المتكلّمين والفقهاء قد أخطأوا في بيان تاريخ تبلور
التشيع بوصفه مذهباً.

وكان يعتقد بأنّ الذين نصرّوا الإمام علي عليه السلام في الحروب لم يكونوا من شيعته،
بل كان قصدهم هو مساعدته فقط. وهو يرى أنّ مذهب الشيعة قد تأسس بعد
صلح الإمام الحسن بن علي عليه السلام مع معاوية^١. وإنّ الإمام الحسين عليه السلام كذلك عارض
تحوّل الخلافة إلى ملك وراثي، فامتنع من مبايعة يزيد، وأدّى الأمر إلى وقوع فاجعة
كربلاء. وكان طه حسين يرى أنّ عبيد الله بن زياد يتحمّل الوزر الأكبر في وقوع هذه
المأساة؛ وذلك لأنّ الإمام الحسين بن علي عليه السلام عندما واجه جيش الكوفة، عرض
على عمر بن سعد ثلاثة مقترحات، وهي:

١. السماح له بالعودة إلى الحجاز.

٢. الذهاب إلى الشام، ولقاء يزيد لحلّ المسألة فيما بينهما.

٣. السماح له بالتوجّه إلى ثغرٍ من ثغور المسلمين، والبقاء هناك.

فقام عمر بن سعد بكتابة هذه المقترحات، وبعث بها إلى عبيد الله بن زياد، ولكن ابن زياد رفض ذلك، وطالب باستسلام الإمام الحسين عليه السلام دون شرط. وقد ذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ ابن زياد لو كان قد قبل بواحدٍ من هذه المقترحات الثلاثة التي اقترحها الإمام الحسين عليه السلام على القوم، لكان قد حقن دماء أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، ولما وقعت حادثة كربلاء.

ثم أكّد طه حسين أن الانحطاط السياسي الذي بدأ منذ عصر عثمان بن عفان لا يزال مستمرّاً إلى الآن، وهو الذي تسبّب بتخلّف العالم الإسلامي^١.

ظهور الفرق المذهبية والسياسية

في ظلّ هذه الظروف التاريخية، ظهر التصوّف والفرق الباطنية، وحدث شرحٌ بين الفقهاء وتبلورت المذاهب الفقهية. وارتفعت حدّة العصبية المذهبية، وأدّت الانتفاضات السياسية إلى تعدّد الخلفاء في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. وأخذت هذه الخلافات تتفاقم وتتسع رقعتها يوماً بعد يوم، وتدفع بالمجتمعات الإسلامية نحو الانحطاط والتخلّف، حتى تمكّن الاستعمار الأجنبي في المرحلة المعاصرة من بسط سلطته على المسلمين^٢.

١. م. ن، ٢: ٢٤٠-٢٤٤.

٢. طه حسين، مرآة الإسلام، قسم الحكم والدولة.

النظام السياسي القائم على البيعة

لقد لجأ طه حسين في بيان النظام السياسي المعاصر إلى سلوك الاتجاه التاريخي أيضًا، وانطلقت في ذلك من بيان النظام السياسي في صدر الإسلام. وهو يرى أنّ النظام السياسي في صدر الإسلام كان يقوم على أساس البيعة، وكان يمنح الناس دورًا ملحوظًا في هذا الشأن. بيد أنّ نظام الخلافة أخذ بالانحدار وتعرّض إلى الانحطاط شيئًا فشيئًا.

يقول طه حسين إنّ حكومة النبي الأكرم ﷺ لم تكن حكومةً ثيوقراطيةً وإلهيةً، وإنّما كانت تقوم على أساس البيعة المتبادلة بينه وبين الناس. وقد كان للناس الخيار – من وجهة نظره – في أن يقبلوا أو ينكروا بعض الأوامر التي تصدر عن النبي الأكرم ﷺ، وأن يأخذوا قراراتهم على أساس الاجتهاد الخاضع للخطأ والصواب. وقد ذكر لذلك بعض الأمثلة من تشاور النبي الأكرم ﷺ مع بعض الصحابة وترجيح كفة رأي الأصحاب بوصفه شاهدًا على هذا المدعى. وذلك لأنّ حكومة النبي الأكرم ﷺ لم تكن إلهيةً أو سماويةً بحتة، ولم يكن الوحي ينزل لبيان كلّ التفاصيل أو التدخّل في جميع الجزئيات. كما ذكر بعض موارد اختلاف النبي الأكرم ﷺ مع الصحابة أيضًا. ثم عدّ خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب قائمةً بدورها على هذا النهج، معتبرًا أنّ بيعة الناس هي الأصل في هذه الطريقة. وقد عدّ خلافة عمر بن الخطاب التي جاءت بوصيةً من أبي بكر، قائمةً بدورها على أساس البيعة أيضًا^١.

وبطبيعة الحال لم تكن حكومة النبي الأكرم ﷺ بدورها ديمقراطيةً أيضًا.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١: ٢٦ - ٢٧.

فإنّ طه حسين من خلال التعريف الذي يبيده للديمقراطية قد توصل إلى نتيجة مفادها أنّ النبيّ الأكرم ﷺ لم يصل إلى الحكم بانتخاب الناس، وإنّما اختاره الله لهذا المنصب فهو رسول الله، وكان لكلّ شخصٍ أن يختار فإن أراد إطاعته أطاعه، وإن أراد عدم إطاعته فله ألاّ يطيعه. ولم يكن الأمر كما لو أنّ الناس هم الذين انتخبوا رسول الله ﷺ لتطبيق أحكام الدين وإقامة العدل. كما أنّه لم يكن للناس حقّ الإشراف على أعمال النبيّ الأكرم ﷺ والخلفاء من بعده. ثم بعد أن عمل طه حسين على توسيع دائرة تعريف الديمقراطية لتشمل الحصول على رضی الناس وكسب ثقتهم من قبل الحكام، ذهب إلى عدّ الحكومات الإسلامية في صدر الإسلام بوصفها حكوماتٍ ديمقراطية^١.

تحرير العلاقة بين الدولة والشعب وتحويل الخلافة إلى نظام ملكي

يرى طه حسين أنّ خليفة رسول الله ﷺ يحتاج إلى البيعة، وهو مكلف برعاية شروط البيعة أيضاً؛ وذلك لأنّ القرآن الكريم لم يقدم منهجاً لتعيين خليفة النبيّ الأكرم ﷺ. وأمّا البيعة فقد كانت أسلوباً شائعاً في تلك المرحلة^٢. ولو أنّ الخليفة حاد عن الأسلوب الإسلامي، فسوف يبادر الناس أولاً إلى نهيهِ عن ذلك، فإن لم ينفع ذلك ولم يؤثّر فيه النهي عن المنكر، تبرؤوا منه واختاروا بدلاً منه خليفةً آخر^٣. وعلى هذا الأساس كانت خلافة أبي بكر بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب، وعلي

١. م. ن، ٢٩ - ٣١.

٢. طه حسين، شيخين، ٤ - ٤٠.

٣. م. ن، ٤٢.

بن أبي طالب عليه السلام، وعثمان بن عفان، قائمةً على أساس البيعة، فهي خلافةٌ صحيحة. ولكن حصل الانحطاط بعد ذلك بالتدرج من جهتين؛ الجهة الأولى: تراجع مستوى تدين الناس، وإحجامهم عن البيعة، والعمل بمضمونها من قبل الناس، والجهة الأخرى: وصول بعض الخلفاء إلى السلطة دون بيعة أو العدول عن مفاد البيعة من قبل الخلفاء. يسعى طه حسين من خلال بيان العلاقات السببية والنسبية لبعض الصحابة من أمثال عثمان بن عفان والزبير بن العوام، إلى بحث قرابتهما من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهليتهما لتوحي منصب الخلافة. بل قال حتى في مورد الزبير بن العوام إنه يمكن عدّه من جملة أهل البيت عليهم السلام^١. وعلى هذا الأساس كان هناك كثيرٌ من الصحابة الذين يحملون مؤهلات تستمّ منصب الخلافة. ولكن منذ عصر معاوية بن أبي سفيان تعرّض نظام الخلافة إلى الانحطاط سواء من حيث اختيار شخص الخليفة أم من حيث التحوّلات المضمونية في النظام السياسي. كما تحوّلت الثقافة العامة أيضًا، وابتعد الناس عن تكاليفهم ومسؤولياتهم أيضًا. من ذلك أنّه - على سبيل المثال - يرى أنّ خسارة الإمام علي عليه السلام للحرب في مواجهة معاوية يعود سببها إلى تراجع التدين عند الناس وغلبة الأطماع الدنيوية عليهم^٢. إنّ طه حسين من خلال نقده لتوريث الخلافة من خلال تنصيب معاوية بن أبي سفيان لنجله يزيد، لا يعدّ الحكم ملكًا شخصيًا للخليفة، بل يراها ملكًا لعامة الناس^٣.
لقد أشرنا إلى أنّ طه حسين يرى أنّ بداية الانحطاط كانت منذ عصر معاوية

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١: ١٢٧-١٢٨.

٢. طه حسين، علي وبنوه، ١٨٤.

٣. م. ن، ٢٢٠.

بن أبي سفيان، وأن هذا الانحطاط قد تجلّى لاحقاً على مختلف الأنحاء في المرحلة المعاصرة للبلدان الإسلامية ومن بينها مصر. وفي هذا الإطار يؤكّد طه حسين دور الناس في تطوير المجتمع، ويرى أنّ مهمة هداية الناس وإرشادهم في هذا الشأن تقع على عاتق الدولة. وهي المهمة التي تمّ تجاهلها حتى الآن. إنّه لا يرى الناس بحاجة إلى التعاطف، وإنّما يراهم أصحاب حقّ مطلقٍ ومقدّس، ويجب العمل على بسط العدل والمساواة بينهم. ويجب استبدال شعور المسؤولين بأفضليتهم على الناس بالإيمان بوجوب المساواة والعدالة.

ويرى طه حسين أنّ الحياة السعيدة والكريمة من حقّ الناس، وأنّ هذا الأمر لا يمكن أن يتحقّق إلّا بوساطة التعليم. ومن هذه الناحية تعدّ التربية قيمةً، ويشعر فيها المعلم بأنّه واحدٌ من العناصر الأساسية في الحياة على المستوى الخاصّ والعامّ، وأنّه يعمل على نقل التراث من الماضي إلى الأجيال اللاحقة، ويعمل على إحياء جذوة الأمل بالمستقبل في قلوب الشباب. نحن على مسافةٍ بعيدةٍ من تحقيق هذا الحلم، ولكن علينا ألاّ نفقد الأمل، وألاّ نترك السعي من أجل الوصول إلى هذه الغاية. عندما تتعرّض زراعة القطن إلى آفة، أو يتعرّض السوق إلى الركود والكساد، سوف نجد القلق يعم أركان الدولة والبرلمان والشعب، ولكن لو أصيب التعليم بآفةٍ، وأدّى أمره الفساد، فلن نجد هناك أحداً يعتره القلق من أجل ذلك. وليس كثيراً أن نطلب من الدولة أن تقلق على أمر التعليم ومستقبل الشباب كما تقلق على زراعة القطن، وانتعاش السوق والتجارة^١.

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ١٥٣ - ١٥٧.

الفصل الرابع: فكر طه حسين ❖ ١٤٣

إنَّ الأداء السياسي الخاطيء للدولة، والافتقار إلى التعليم وعدم التبعية للقانون في تقديم الخدمات إلى الناس، قد أدَّى إلى الانحطاط الثقافي. ويرى طه حسين أنَّ الناس عليهم مسؤولية تجاه الدولة كذلك، وأنَّ هذه المسؤولية — تبعًا للأداء الخاطيء للدولة — لم يعمل الناس على الوفاء بها بنحوٍ جيّد، وبذلك سوف تتعرَّض الثقافة والمجتمع إلى الاختلال والأزمات.

يرى طه حسين أنَّه يجب على جميع المسلمين أن يعملوا على رعاية مفاد البيعة. وهو يرى أنَّ الآفات الاجتماعية في عصر عثمان بن عفان كانت فريدةً من نوعها؛ وذلك لأنَّ الثروات والنعم كانت من الكثرة والوفرة في عصره بحيث سال عليها لعاب الطمع، وأدَّى الأمر إلى التمرد والعصيان. وقد كبر أبناء الإماء وصاروا راشدين، وأخذوا يمارسون البدع، وظهرت أحداث كبرى، وأسلم أشخاص لم تكن لهم معرفةٌ كافيةٌ بالقرآن الكريم، وجنحت جماعةٌ منهم نحو سلوك طريق التشدد، وجنحت جماعةٌ أخرى منهم نحو التساهل والتسامح، وضاع الحقُّ اللاحِب بين هؤلاء وهؤلاء^١. إنَّ بذل وعطاء عثمان بن عفان وإن كان ممدوحًا بشكلٍ عامٍّ بوصفه من العطاء والكرم، ولكن هذه السياسة زادت من طمع الناس فيه. كما أدَّى ذلك إلى اختلاط الجنود الغاليين بالرعايا المغلوبين. وقام كلُّ صاحب ثروةٍ على جمع بعض الأفراد من حوله، وعدَّ نفسه هو الأجدر لقيادة المسلمين^٢. وهكذا فقد تعرَّض نظام الخلافة إلى الانحطاط سواء من قبل الخليفة أم من قبل الناس.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١: ٦٣-٦٤.

٢. م. ن، ٦٧.

بعض مصاديق الانحطاط في مصر

يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأن الحياة العقلية في مصر مصابةٌ بالعطب والخلل، وأنّ الجهل قد ألقى بجرانه على المجتمع، وأنّ من بين أسباب هذه الحالة عدم الاهتمام بالعلوم الأوروبية؛ حيث كان من الضروري ترجمتها إلى اللغة العربية. وإنّ ذات العرب الأوائل الذين نفخر بهم لم يكن لهم حضارةٌ في بادئ الأمر، وإنّما بلغوا ذروة المجد، وارتقوا سنام السؤدد بعد أن أخذوا العلم والحضارة عن سائر الأمم. وإنّ السبب في تقصيرنا في حقل الترجمة يعود إلى عدم معرفتنا الكافية باللغات الأوروبية^١. في ظلّ هذه الظروف لا يكون المجتمع قادرًا على إنتاج المفكرين والعلماء. إنّ من بين مشكلات مصر — من وجهة نظر طه حسين — أنّ النظام التعليمي فيها غير قادرٍ على تخريج العلماء والمفكرين المستنيرين. وبطبيعة الحال فإنّ أسباب ذلك تفوق النظام التعليمي، ومن بينها أنّ هؤلاء الأشخاص يتمّ طردهم وتكفيرهم من قبل الآخرين.

وإنّ حجم القراءة في مصر منخفض، وإنّ مقدار دعم الدولة لهم ليس كافيًا. وأمّا عدم الاهتمام بأعمال هؤلاء الأشخاص وعدم انتشار مؤلفاتهم على نطاقٍ واسعٍ فيعود إلى أسلوبهم في الكتابة أيضًا، وعليهم أن يقدموا للجُمهور أعمالًا جديرةً بالقراءة^٢.

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٢٩١-٢٩٣.

٢. م. ن، ٢٩٥-٣٠١.

تلخيص ونقد

إنَّ مصر تُعدُّ من وجهة نظر طه حسين بلدًا متخلّفًا يعاني كثيرًا من المفاصد الأخلاقية والاقتصادية والثقافية، وإنَّ السبب في ذلك يعود إلى الانحطاط السياسي الذي يعود بجذوره إلى الأزمنة الماضية. كما أنَّ النظام الملكي والاستبدادي قد عمل باسم الخلافة والحكومة الدينية، على الدفع بالثقافة نحو الانحطاط أيضًا. وإنَّه من أجل التغلّب على هذه الحالة يؤكّد على الهوية المصرية واللغة العربية بوصفهما من أهم الأركان في هذا الشأن؛ حيث يمكن العمل — من خلال التعامل الصحيح بين الدولة والناس — على إصلاح ذلك من طريق إصلاح النظام التعليمي والإشراف الصحيح على ذلك من قبل الدولة.

إنَّ الإشكال المهمّ الذي يردُّ على هذا الكلام من طه حسين، هو عدم التفاته إلى التاريخ المختلف لجغرافيا العالم الإسلامي، وكذلك مراحل تطوّر وازدهار الحضارة الإسلامية. يعمل طه حسين على تعريف بداية الانحطاط بمتصف مدّة خلافة عثمان بن عفان، ويواصل تتبّع استمرار هذا الانحطاط إلى المرحلة المعاصرة. هذا في حين أنَّ هذه المرحلة الطويلة قد شهدت مرارًا وتكرارًا وفي مختلف المناطق في جغرافيا العالم الإسلامي أنواعًا من التقدّم والتطوّر الحضاري البديع. وعليه لا يمكن حصر سبب الانحطاط الراهن بأحداثٍ بدأت منذ خمسة عشر قرنًا، وحصر جميع الأسباب بالعامل السياسي فقط.

والإشكال الآخر الذي يرد على طه حسين أنّه — مثل كثيرٍ من المفكرين المعاصرين — يعدّ المستعمرين الذين كانوا حتى مدّة قريبة يعدّون هم الأعداء الألداء، أسوة وقدوة لولا مساعدتهم والتبعية لبرنامجهم لا يمكن تحقيق التقدّم

والازدهار. كما أنّ طه حسين بشكلٍ خاصٍّ قد غفل عن دور الاستعمار والغرب في نهب خيرات الشعوب، وكذلك غفل عن ثقافة القبول بالاستعمار أيضًا. والإشكال الآخر هو أنّ اللغة وإن كان لا يمكن إنكار دورها في تحقيق الهوية والانسجام الاجتماعي، ولكن العامل الأهمّ في الانسجام إنّما هو العقائد والتقاليد الاجتماعية بوصفها القلب النابض للثقافة التي تسجّل حضورها في أعمق الطبقات الثقافية. إنّ طه حسين من خلال دعوته إلى اعتناق ثقافة الغرب من أجل الحصول على التطوّر والتقدّم، يتجاهل الاضمحلال الثقافي والتحوّل الجذري للهوية، ويظنّ أنّ مجرد الاجتماع على النطق ببلغةٍ واحدةٍ يمكن أن يحافظ على الاتحاد.

البحث عن بداية الانحطاط في التراث

لقد لجأ طه حسين في بيان أسباب التخلف المادّي للعالم الإسلامي ومصر إلى التفسير التاريخي، وقد بدأ من الماضي البعيد لفهم الحاضر القريب والراهن. إنّ بحث طه حسين في حادثة مقتل الخليفة الثالث — وهي الحادثة التي يُسمّيها ثورة — يفوق مجرد بحث ظاهرة تاريخيةٍ بحثة؛ وذلك لأنّه لفهم الحاضر ومعرفة أسباب انحطاط وتخلّف المسلمين يبحث في جذور هذه الظاهرة وأسبابها التاريخية، ويجدها في عام ٣٥ للهجرة. لقد قام طه حسين في كتابيه (الفتنة الكبرى)، و(علي وبنوه)، بتحليل مقتل عثمان بن عفان. وقد سعينا في هذا القسم إلى بيان صيغة تحليل طه حسين ببلغةٍ عصريةٍ دون تصرّفٍ في المحتوى، لكي نجعل دقائق تفسيره وتحليله قابلةً للفهم.

شرح أحداث ثورة عام ٣٥ للهجرة

يذهب طه حسين إلى عدّ حادثة مقتل عثمان بن عفان — على الرغم من علمه بمقتل عمر بن الخطاب من قبل — حادثةً غير مسبوقه؛ وذلك لأنّ مقتل عثمان — من وجهة نظره — لم يكن حادثاً سياسياً شخصياً، بل كان ثورةً في ماهية ظاهرة اجتماعية. يرى طه حسين أنّ هناك أموراً حدثت في عهد الخليفة الثالث، وقد أدت هذه الأمور إلى سخطٍ عامٍّ، واندلاع ثورة، وقد قتل عثمان بن عفان في أتون هذه الثورة؛ وذلك لأنّ السنوات الستة الأولى من خلافة عثمان بن عفان كانت مقرونةً برخاء الناس وحرثتهم، وكانوا سعداء بذلك، وعلى الرغم من وجود بعض المعارضين في بداية خلافة عثمان أيضاً، بيد أنّ الأعوام الأربعة الأخيرة من خلافته قد شهدت تغييراً في الأحوال والأوضاع، وأخذ الناس يضيقون ذرعاً بطريقة حكمه ويبدون استياءهم^٢. وعلى هذا الأساس ينبغي العمل — في تحليل هذه الحادثة — على معرفة أسبابها من الأزمنة الماضية.

قبل العمل على بيان إطارٍ نظريٍّ لهذه الظاهرة، يعتمد طه حسين ضمن اتجاهٍ كلاميٍّ وفقهيٍّ إلى التعريف بمقتل عثمان بن عفان بوصفه أمراً غير شرعيٍّ؛ وذلك لأنّ عثمان من وجهة نظره كان صائماً في اليوم الأخير الذي انتهى بمصرعه، وكان يقول لأصحابه إنّه قد رأى رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر، وقد بشره بأنه سوف يحلّ ضيفاً عليهم، وسيكون إفطاره عندهم. ولكن عثمان كان يقول: لا أدري لماذا

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١: ٢٢.

٢. م. ن، ٢٧.

يعتزم المعارضون قتلي. ثم نهى عثمان أصحابه عن مقاتلة المعارضين. وفي هذا الأثناء تمكن المعارضون الوصول إليه وقتله.

هناك اختلافٌ كبيرٌ حول حادثة مقتل عثمان بن عفان، ولكن هناك—من وجهة نظر طه حسن—اتفاق حول هذه المسألة، وهي أن دم عثمان لم يكن مباحًا للثوار أن يسفكوه. نعم كان من حقهم أن يثوروا عليه، وأن يألّبوا الآخرين على الثورة ضده، ولكن كان يجب أن يتم اختيار ممثلٍ عن كلِّ مجموعةٍ من الثوّار، وأن يجتمعوا بعثمان ويناظره، ثم يأخذوا قرارًا بعزله أو إبقائه. بيد أن الثوّار لم يكونوا يمثلون جميع المسلمين، ولم يكن لهم الحقُّ في الثورة وعزل الخليفة، ناهيك عن قتله وسفك دمه. كما أن خوفهم من العمال والأعداء التي ذكرها الآخرون لهم، كانت هي الأخرى مرفوضةً أيضًا.

الاتجاه النظري في تفسير أسباب الثورة

إنّه يبحث بشكلٍ صائبٍ - من خلال اتّخاذه للاتّجاه الاجتماعي التاريخي - في أسباب هذه الحادثة في الأزمنة الضاربة في القدم. واللافت في البين أنّه على الرغم من تأثره بإميل دوركهايم ودراسته في فضاء النزعة الوضعية في فرنسا، يهتم أيضًا بمقاصد ونوايا الأشخاص بوصفهم من الفاعلين على الساحة السياسية والاجتماعية، ويعمل على تحليلها أيضًا. وقد تعرّض في هذا الشأن أولاً إلى طريقة حكم أبي بكر وعمر بن الخطاب^٢.

١. م. ن، ٣١.

٢. م. ن، ٢٠.

تبويب الأسباب

يعمل طه حسين في تحليل أسباب الثورة وتوجّهات الأشخاص على تبويب تلك الأسباب والتوجهات. إنّ المتقدّمين من وجهة نظره في تحليل حادثة مقتل عثمان بدلاً من التعرّض إلى تحليل الربح والخسارة والخطأ والصواب، أخذوا ينظرون إلى المسألة من زاوية دينية، وجعلوا الكفر والإيمان هو الملاك في هذا التحليل. كما تعرّض بعضهم إلى تحليل هذه الحادثة من زاوية الشؤون السياسية، وبعض آخر تعرّض لها من زاوية النظام الاجتماعي والاقتصادي^١.

الاتجاه التلفيقي

كما هو واضح من الاتجاه النظري لطه حسين، فإنّه قد عمد إلى التلفيق بين الاتجاه الاجتماعي في ضوء الدوافع الكلامية والفقهية، ولم يتمكّن أو لم يرد بيان المسألة في ضوء الاتجاه الاجتماعي البحث. من ذلك أنّه - على سبيل المثال - يسعى إلى بحث مقدار تمسك عثمان بن عفان بمفاد البيعة، وحكم مخالفتها أيضاً.

الاتجاه الانتقادي في بحث سياسة الخليفة

يدعن طه حسين بأنّ اختيار عثمان بن عفان كان صحيحاً، كما هو الحال بالنسبة إلى اختيار أبي بكر وعمر بن الخطاب، بل إذا كان هناك شخصٌ واحدٌ قد خالف اختيار أبي بكر وعمر للخلافة، فليس هناك من خالف اختيار عثمان بن عفان للخلافة أبداً. وعلى هذا الأساس لو أنّه كان قد التزم بمفاد البيعة وعمل بشرطها

وبنودها، لكانت إطاعته واجبة؛ وذلك لأنّ البيعة لها طرفان، وكلا الطرفين من الإمام والرعية ملزم بالعمل على طبق مفاد البيعة. وقد سبق لعثمان أن تعهد في ضمن البيعة على العمل بما يتطابق مع الكتاب والسنة وسيرة الخليفين السابقين؛ ولذلك يجب بحث وجهة نظر المتقدمين في هذا الخصوص لنرى ما إذا كان عثمان بن عفان قد عمل بما يتطابق مع بنود البيعة أم لا^١.

أسلوب بيان أسباب الثورة وتحليلها

إنّ الناس — من وجهة نظر طه حسين — لم يكونوا يعترضون على السياسة الخارجية لعثمان بن عفان؛ وذلك لأنّ الفتوحات قد تواصلت في عصره. وفيما يتعلّق بالسياسة الداخلية تنقسم التحليلات إلى عدّة أقسام. فإنّ بعض التقارير المرتبطة بعيوب حكم عثمان هناك من يعدّها زائفةً ومختلقةً، وبعض الموارد الأخرى التي يعدّونها صحيحةً يقللون من أهميّتها، ويعملون على تبريرها بأنّ عثمان بن عفان كان مجتهداً مثل سائر الصحابة، وكان يعمل على طبق اجتهاده، وربما أخطأ في بعض الموارد. وهناك من ذهب إلى الاعتقاد بأنّه لا يمكن نسبة هذه الفتن إلى أصحاب النبي الأكرم ﷺ، وأنّ ما قيل في هذا الشأن إنّما هو من مختلقات الأعداء للطعن بالصحابة^٢.

وقد ذهب طه حسين في تحليل المسائل أعلاه إلى القول بأنّنا لو عددنا الروايات التاريخية المرتبطة باختلافات الصحابة زائفةً ومختلقة، فيجب علينا أن نتخلّى عن

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١: ٢٢.

٢. م. ن، ٢١.

تاريخ صدر الإسلام بالمرّة؛ إذ لا يمكن تصحيح ما يعجبنا منه، وعدّ ما لا يعجبنا زائفاً.

الأسباب الاعتقاديّة

إنّ من بين أسباب اعتراض الناس ما له جذورٌ دينيّةٌ وعقائدية. ومن بين هذه الأسباب تجاوز عثمان بن عفان لنصوص القرآن وسنة النبي الأكرم ﷺ، وطريقة الشيخين، حيث كانت هذه الأمور من بين الأسباب التي أثارت سخط الناس عليه وقتله.

إنّ أول مسألة عمل فيها عثمان بن عفان على خلاف الكتاب والسنة، كانت في مسألة عدم قصاص عبيد الله بن عمر قاتل الهرمزان وجفينة بنت أبي لؤلؤة.

لقد ذكر طه حسين كثيراً من الآيات من القرآن الكريم الخاصّة بالحكم المذكور، وعمل على بحثها ودراستها، وتوصّل إلى نتيجة مفادها أنّ الإمام علي عليه السلام، وسائر المسلمين لم يقبلوا بما قام به عثمان في هذا الخصوص، ولكن المعتزلة قالوا بتصحيح فعله بوصفه ولي المقتولين ورعاية المصلحة الداخلية والخارجية للمسلمين، وقالوا بإمكان الدفاع عنه من هذه الناحية. وقام الشيعة بالدفاع عن موقف الإمام علي عليه السلام والموافقين لرأيه، وقالوا بأنّ عثمان بن عفان لم يكن يحقّ له مخالفة النصّ الصريح للقرآن، وأنّ يخشى في ذلك من شماتة الأعداء. ثم استعرض طه حسين بعد ذلك آيات من القرآن الكريم تدلّ على جواز الصفح عن القاتل، وعدّها دليلاً على جواز ما قام به عثمان بن عفان.

١. م. ن، ٢٢.

٢. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١: ٢٣.

لقد انحرف طه حسين في تحليل هذا السبب عن الاتجاه الاجتماعي، وابتعد عن الحيادة؛ وذلك لأنه كان بصدد بحث أسباب معارضة الناس في ذلك العصر، ويجب عليه أن يبحث فهم الناس وإدراكهم لهذا الفعل الذي قام به عثمان بن عفان، لأن يعمل على تبرير ما قام به عثمان في ضوء الرؤية المعاصرة، ودراسة آيات العفو عن القاتل.

المسألة الثانية مخالفة عثمان لسنة النبي الأكرم ﷺ، وطريقة الشيخين في كثير من الموارد، ونشير فيما يلي إلى بعضها:

١. إن من بين هذه الموارد إتمام عثمان بن عفان للصلاة في منى. وقد اعترض على ذلك بعض الصحابة من أمثال عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود، ولكنهم قبلوا برأيه تجنباً لشق عصا المسلمين في أمرٍ خطيرٍ مثل الصلاة. وقد عدّ طه حسين هذه المسألة اجتهاداً من عثمان بن عفان وإن كان قد أخطأ فيها.

٢. يعدّ حكم وجوب الزكاة على الخيل بوصفه موردًا آخر من موارد مخالفة عثمان بن عفان لسنة المطهرة. ولكن هذه الرواية — من وجهة نظر طه حسين — هي أولاً: غير متواترة. وثانياً: حتى لو افترضنا صحة الرواية التاريخية، يمكن تبرير ما قام به الخليفة الثالث بسبب حاجة المسلمين إلى الخيل في حروب صدر الإسلام، وعدم الحاجة إليها بعد الفتوحات الإسلامية.

٣. المورد الآخر الأمر بتحجير المراعي لغرض المحافظة عليها، الأمر الذي ألغاه عثمان لاحقاً بسبب اعتراض المسلمين على ذلك.

٤. المورد الآخر قيام الخليفة الثالث بصرف الزكاة في غير الموارد المنصوص عليها في القرآن الكريم. وقد ذهب المتكلمون السنة إلى القول بأن الصدقات حيث

كانت كثيرةً في عصر عثمان بن عفان، فإنه كان يقترض منها للإلفاق على شؤون الحرب ليعيدها لاحقاً، وكان هذا الأمر يجوز لإمام المسلمين. وقد ذهب طه حسين إلى القبول بوجهة نظر هؤلاء المتكلمين، ولكنّه عدّ ذلك دليلاً على سوء الإدارة المالية من قبل عثمان بن عفان.

٥. المورد الآخر عبارة عن حمل الناس على قراءة القرآن على أساس قراءة واحدة، وإحراق سائر المصاحف الأخرى. هذا في حين أنّ القرآن الكريم قد نزل على سبعة أحرف، ولم يكن يحقّ لعثمان بن عفان أن يختار واحداً من بينها وإحراق سائر المصاحف الأخرى. وقد ذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأن المسلمين أنفسهم قد اختلفوا فيما بينهم حول هذه المسألة، ولذلك لا يمكن اتخاذ هذه الحادثة دليلاً للردّ على عثمان بن عفان. ثم إنّ عثمان قد منع بذلك من حدوث الاختلاف بين المسلمين. وقد أيده في ذلك أهل السنّة والمعتزلة، وحتى الإمام علي عليه السلام لم يشكل عليه في هذا الشأن. ولم يؤخذ على عثمان سوى اختياره بعض حفاظ القرآن للقيام بهذه المهمة، وأبعد بعض الأشخاص المهمّين من أمثال عبد الله بن مسعود، وقد واجه بعض المعارضات في هذا الشأن.

إنّ حرق القرآن على يد عثمان بن عفان الذي يراه عددٌ من المسلمين ذنباً لا يغتفر، ينظر إليه طه حسين بوصفه مجرد خطأ يتعارض مع الحفاظ على الآثار؛ إذ لا يمكن الوصول إلى اللغات واللهجات التي كانت سائدةً عند مختلف الأتوام إلاّ من طريق الحفاظ على هذه المصاحف. وبطبيعة الحال فإنّ طه حسين بسبب عدم وجود حضارة في تلك الحقبة الزمنية يرى أنّ هذا الإشكال يمكن الإجابة عنه،

وبذلك يمكن الدفاع عن الخطوة التي اتخذها عثمان بن عفان في هذا الخصوص.
 ٦. المورد الآخر الذي يؤخذ على عثمان بن عفان أنه أعاد إلى المدينة المنورة الحكم بن أبي العاص وقرابته الذين سبق لرسول الله ﷺ أن طردهم منها. وقد سبق لعثمان أن توسّط لهم في خلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب، ولكن أياً من الخليفين لم يجرؤ على تلبية طلبه. ومن هنا فقد غضب المسلمون واعترضوا عليه. ومع ذلك فقد ذهب المعتزلة وبعض أهل السنّة إلى تبرير هذا الفعل بأنّ عثمان بن عفان كان يعتقد أنّ النبيّ الأكرم ﷺ لم يكن قد حكم عليهم بالنفي مدى الحياة، وإذا كان أبو بكر وعمر بن الخطاب بدورهما قد امتنعا عن إعادتهم، فلأنّ شهادة عثمان لهم كانت شهادةً واحدةً لا يمكن الاكتفاء بها في القضاء، ولكنه عندما أصبح هو الخليفة فقد عمل على أساس علمه. وأمّا المعارضون فقد رأوا أنّ عثمان بن عفان إنّما أعاد الحكم إلى المدينة المنورة بسبب قرابته منه؛ لأنّ الحكم كان عمّه. ثم عمد عثمان بن عفان بعد ذلك إلى تكريم الحكم، وأغدق عليه ثم على أولاده — ومن بينهم مروان بن الحكم — كثيراً من الأموال، واستعان بهم في كثيرٍ من الأمور^١.

خلاصة ونقد

إنّ طه حسين يدرج هذه المسائل ضمن الأسباب الدينية، ويعمل على تفسير وتبرير أكثرها من الناحية الكلامية أو الفقهية. وإنّ في مورد قضية الحكم بن العاص يقول إنّها المسألة الوحيدة التي لا يمكن الدفاع عنها، بيد أنّ عثمان في هذا المورد لم يخالف

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١: ٢٣.

إلا السنّة، وقد عمد إلى تأويلها، وسواء أكان تأويله هذا صحيحًا أم خاطئًا، فإنّ هذا الأمر لا يلحق ضررًا بدين عثمان، ولا يخرجُه عن ربة المسلمين؛ وذلك لأنّه لم يقوِّض دعائم الدين وأركانها، ولا يمكن لكلّ خليفة أن يكون مثل أبي بكر وعمر بن الخطاب. وقد استنتج طه حسين أنّ هذه الطائفة من الأمور التي قام بها عثمان بن عفان لا تستدعي الثورة عليه. ولو أنّه قد اكتفى بهذا الحدّ كان بمقدور المسلمين أن يتحملوا سياسته وأفعاله، تجنّبًا لحدوث الفرقة والشقاق^١.

ولكن كما سبق أن ذكرنا فإنّ طه حسين لا يستطيع بحث تأثير هذه العناصر والأسباب في حدوث الثورة من خلال الاتجاه الفقهي والكلامي؛ وذلك لأنّ المهمّ هو ما كان يراه الناس في ذلك العصر بالنسبة إلى هذا التصرف من قبل عثمان بن عفان. إلا إذا قلنا بأنّ طه حسين إنّما كان يعمل على إيضاح الرؤية الفقهية والكلامية للناس في تلك المرحلة.

الأسباب السياسيّة

إنّ بعض سياسات عثمان بن عفان التي تسببت باعتراض الناس عليه، من قبيل: تأثير نوع حكم الخليفين الأولين، وانعدام القانون، وعدم وجود الشورى الرقابية، وقيام الخليفة بالمحاكمات الشكلية دون إنزال العقوبات الرادعة والجديّة بحقّ المجرمين، كان لها ماهيةٌ سياسيّة.

أداء الحكومات السابقة

يرى طه حسين أنّ الخليفيتين الأولى والثاني قد حرصا أشدّ الحرص على اتباع نهج النبي الأكرم ﷺ في إقامة العدل بوصفه أساساً لإدارة الدولة، ولم يكن أيّ منها يخشى مخالفة أحدٍ في ذلك. يرى طه حسين أنّ عمر بن الخطاب بسبب عبقريته الخاصّة كان بمقدوره لو امتدّ به العمر أن يحقق نتائج مذهلة^١. لقد كان لنمط حكم الخليفيتين الأولىين تأثيرٌ سلبيٌّ على نظرة الناس إلى سياسة عثمان بن عفان. يذهب طه حسين إلى الظن بأنّ أبا بكر بن أبي قحافة لو امتدّ به العمر وصادف الأحداث التي وقعت في عهد عمر بن الخطاب لقام بها قام به عمر، وربما كان قد انتهج ذات الأسلوب الذي انتهجه عمر في تعيين خليفته^٢، ولكنّا قد سمعنا بالأمر المذهلة التي كان مقدّراً له أن يقوم بها^٣. وكان من بين أسباب الثورة على عثمان بن عفان — من وجهة نظر طه حسين — هي العبقرية الخاصّة التي تميّز بها عمر بن الخطاب. فكان عمر يتمكن من التغلب على المشاكل بعبقريته الفدّة، في حين كان عثمان بن عفان يفتقر إلى تلك العبقرية^٤.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١: ٢٠.

٢. م. ن، ٥٧.

٣. م. ن، ١٤.

٤. م. ن، ٢٣٨.

غياب القانون في حال ضعف السيطرة الداخلية

إنَّ السبب الآخر الذي أدى إلى الثورة على عثمان بن عفان، هو غياب القانون. إذ إنَّ هذه المرحلة بالقياس إلى عصر النبيِّ الأكرم ﷺ، قد شهدت كثيرًا من التحوّلات. وقد أكّد طه حسين على أنّ حكومة النبيِّ الأكرم ﷺ، كانت تقوم على كثيرٍ من العناصر. وكان العنصر الأوّل هو العنصر الديني. لم تكن حكومة النبيِّ الأكرم ﷺ حكومةً إلهيةً وسماويةً، ولكنّها كانت تقوم على أساس الأصول الدينية المنبثقة عن الكتاب والسنة، وكانت هذه الأصول مقبولةً من قبل المسلمين بشكلٍ كامل. والعنصر الثاني ظهور طبقةٍ اجتماعيةٍ كانت ثابتةً على عهدها وإطاعتها وتضحيتها مع النبيِّ الأكرم ﷺ، وكانت تنصر النبيِّ الأكرم في الحروب والحوادث والوقائع، ولكنها لم تكن ترى نفسها في الأمور الدنيوية أفضل من سائر الناس. وقد اكتسبت هذه الطبقة بالتدرّج منزلةً اجتماعيةً وبسبب ثقة الناس بهم صارت بمستوى الوصول إلى منصب الخلافة.

عندما كان أبو بكر ينقل روايةً عن النبيِّ الأكرم ﷺ مفادها أنّ الخلافة في قريش، لم يكن مراده جميع أفراد هذه القبيلة، ولكن قد أُسيءَ لاحقًا تفسير هذه الرواية. وعدت قريش نفسها أفضل من سائر القبائل الأخرى، وأنها أحقُّ بالخلافة من سواها، وأسست لظاهرة توريث الخلافة. وبطبيعة الحال فإنَّ الأمر لم يقف عند هذا الحدّ، بل عدّ العرب أنفسهم أفضل من العجم أيضًا.

كان هناك بعض الأشخاص الذين تمّ تبشيرهم بالجنة في عصر النبيِّ

الأكرم عليه السلام، أو ضمنت لهم الجنة، ولكنهم فتنوا لاحقاً بجمع الأموال، وحبّ الجاه، وأحبطوا أعمالهم. إذا كنّا لا نشاهد انحرافاً في عصر الخليفين الأول والثاني فإنّ السبب في ذلك يعود إلى الضمير الديني والعقائد التي تبلورت لدى الأشخاص بسبب مصاحبتهم للنبي الأكرم عليه السلام، بيد أنّ هذا العنصر الرادع لا يبقى على حاله في الأجيال اللاحقة، وعلى هذا الأساس كان من الضروري أن يتمّ وضع بعض القوانين القائمة على أساس الكتاب والسنة، لضمان عدم انحراف الأجيال اللاحقة عن هذه الثوابت. وكان هذا الفراغ القانوني هو الذي شكّل واحداً من أسباب مقتل عثمان بن عفان.

وبالنظر إلى الانشغال في الحروب والفتوحات، وتأسيس الحكومات في البلدان التي لم تكن لها سابقة حضارية أو عهد في إدارة الدولة، وكذلك تربية البدوين، لم تكن هناك فرصة مناسبة لوضع القوانين. إنّ عدم وجود قانون كان قد أدّى إلى أن يبالغ عثمان بن عفان في إنفاق الأموال من بيت المال على أقربائه تحت عنوان صلة الأرحام، الأمر الذي أدّى إلى التأسيس للشرخ الطبقي في المجتمع. في حين أنّ هذا الصنيع من عثمان بن عفان كان مخالفاً لمفاد البيعة؛ وذلك لأنّه كان قد تعهّد في ضمن البيعة ألاّ يجحد عن طريقة الخليفين السابقين، ولكنه عدل عن ذلك في هذه المسألة، ولم يراعِ سيرة الشيخين^١.

غياب شورى الإشراف والرقابة

إنّ من بين الأسباب التي أدّت إلى حادث مقتل عثمان بن عفان عبارة عن مشكلات

الشورى التي أسسها عمر بن الخطاب. يرى طه حسين أنّ قلة عدد أعضاء هذه الشورى، وقصر مدة نشاطها كان هو النقص الرئيس الذي تعاني منه هذه الشورى. فلو كان هناك مزيد من الأعضاء في هذه الشورى، ولا سيّما من الأشخاص الذين لم يكونوا متواجدين في المدينة بسبب ذهابهم إلى الثغور وخوض الحروب، ولو تمّ التشريع لهذه الشورى كي تكون دائمة، وتستمر في إشرافها حتى على أداء حكومات الخلفاء اللاحقين بشكلٍ قانوني، لما وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه^١. إنّ غياب القانون وعدم وجود شورى للرقابة على أداء الدولة، هو الذي جعل عثمان بن عفان يضيق ذرعاً حتى بالدور الرقابي لسائر الناس وأفراد الرعية.

إلغاء الرقابة الشعبية

الأمر الآخر أنّ عثمان بن عفان لم يكن يسمح للناس بأن يارسوا دوراً رقابياً على أداؤه السياسي، ناهيك عن أن يوجهوا له النقد واللوم، أو أن يعترضوا عليه. وعندما طلب منه الناس أن يتنحى عن الخلافة، قال لهم في الجواب: ما كنت لأخلع رداءً ألبسني الله إياه حتى لو قطعتم رأسي. هناك دلالات عميقة في ذهاب عثمان بن عفان إلى عدم عدّ خلافته مستمدةً من الناس. ومن بينها عدم قدرة الناس على خلعهم من منصب الخلافة. كما لم يتمكن أحدٌ من خلع الخليفين السابقين. يزعم طه حسين أنّ عثمان بن عفان كان صادقاً في هذا الاعتقاد، ولم يكن يتخذ مجرّد ذريعة للبقاء في السلطة، وأنّ موافقة الناس له في هذه العقيدة، وأنّه يجب تحمّل ظلمه وترك القضاء والحكم في هذا الشأن إلى الله، يعود إلى هذا الاعتقاد العام بشأن الخليفة.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٦٤ - ٦٦.

لقد كان أبو بكر وعمر بن الخطاب لا يقدّمان نفسيهما على الناس، وكانا يعملان على طبق إرادة الناس، وأمّا عثمان بن عفان فكان يستمع إلى آراء الناس، وينفّذ ما يعجبه منها، ويرفض الانصياع إلى ما لا يعجبه^١.

العقوبات من دون محاكمات

إنّ من بين تجاوزات عثمان بن عفان وتخلّفه عن التبعية لطريقة الشيخين والخليفين السابقين، إقامة الحدود والتعزيرات على الناس من دون محاكمات، ومن دون إعطاء فرصة للمتّهمين للدفاع عن أنفسهم، وكان عثمان يقوم أحياناً بضرب الناس بنفسه، ويحدث ضرراً جسدياً بهم، ويجبر بعض الأشخاص على الخروج من المدينة المنورة. وكان عمّال عثمان يقومون بالشيء نفسه، وقد أثارت هذه المسألة حفيظة الناس وامتعاضهم والخروج عليه^٢.

خلاصة ونقد

لقد أصاب طه حسين في إشارته إلى غياب القانون وعدم وجود الجهاز الرقابي على السلطة، بيد أنّ رؤيته المعاصرة والتأثر الذي حصل عليه من المجتمعات والعلوم الحديثة يبدو أنّه — بحسب الظاهر — قد شكّل مانعاً حال دون ملاحظة الفقه والأحكام الفردية والاجتماعية التي كانت تسود المجتمع آنذاك بوصفها هي القوانين الحاكمة على المجتمع. فإذا كان الخليفة الثالث لا يهتم بالأحكام الفقهية ويجعل من مزاجه الشخصي ملاكاً بحجة الاجتهاد، ويعمل على خلاف الشرع،

١. م. ن، ٢٥.

٢. م. ن، ٢٦.

وإذا كان لا يقبل بالإشراف القانوني والشرعي للآخرين على أداؤه، وإذا كان الآخرون قد تخلّوا عن ممارسة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان يمكنهم الذهاب إلى هذا الخيار حتى مع وجود القوانين أيضًا. وعليه فإنّ السبب الرئيس لهذا النوع من السياسات يعود إلى عدم احترام الأحكام والقوانين في الأصل، وليس إلى مجرد غياب القانون.

الأسباب الاقتصادية

لقد بدأ عثمان بن عفان خلافته باستدارة مهمّة. وخلافًا لعمر بن الخطاب الذي كان عنيفًا وقاسيًا، انتهج عثمان سياسة اللين والمدارة، ودون أن يضيف شيئًا إلى خزينة الحكم، كان قد زاد من عطاء الناس، ورفع المرتبات، بل وأنفق كثيرًا على أشخاصٍ من أمثال طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام. وكان جميع هذا البذل والعطاء يتمّ على حساب بيت المال، وكان من شأن ذلك أن يجعل الناس يتهاون مع الحكومة ويتعاطفون معها. بيد أنّ تحلّف عثمان بن عفان عن طريقة عمر بن الخطاب في تدبير الشؤون الاقتصادية لم يكن هناك ما يبرّره، ولم يكن هناك إمكانيةً لاستمرار هذا البذل والعطاء المبالغ به^١.

لقد ذهب طه حسين إلى بيان الاختلافات الخاصّة بخلافة عثمان بن عفان، دون ملاحظة حضور الأثرياء في الثورة على عثمان، وعدّ هذه الثورة انتفاضةً من قبل الطبقة الفقيرة في المجتمع، وذهب إلى الاعتقاد بظهور الرأسمالية الواسعة وتشكيل الطبقات والاستيلاء على الأراضي من قبل الأقلية، قد أدّى إلى ظهور الأحزاب.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، رقم: ٦.

واندلعت بعد ذلك ثورةٌ عربيةٌ نشأت من النزاع بين الأثرياء حول الأموال والمناصب، وحققت الناس الكامن في صدور الناس على أصحاب الثروات^١.

البذل والعطاء من بيت المال

كان عثمان بن عفان يقول: لقد كان أبو بكر وعمر بن الخطاب يجوران على نفسيهما وعلى المقربين منها قرابةً إلى الله تعالى، ونحن نوسع على أنفسنا وأهلنا قرابةً إلى الله أيضًا. وعلى هذا الأساس فإن عثمان بن عفان كان مثل الخليفين السابقين، يعمل على طبق اجتهاده، ولا يمكن توجيه النقد والعتاب إليه من هذه الناحية، ونقول له: لماذا بذلت خمس مغانم أفريقيا إلى مروان بن الحكم، وأعطيت الكثير من الثروات وآلاف الدراهم إلى الآخرين من أمثال طلحة بن عبيد الله والزيبر بن العوام؟ إنَّ بذل وعطاء عثمان بن عفان لم يقتصر على الأموال المنقولة فقط، بل كان يهب للآخرين حتى الأموال غير المنقولة أيضًا، من قبيل: الأراضي المفتوحة أيضًا^٢.

لقد عمد أهل السنة والمعتزلة إلى تبرير هذا الفعل الذي قام به عثمان بن عفان، بأنَّه كان يروم من خلال استقطاع الأراضي، وبذرها إلى الآخرين أن يعمل على إصلاح المدن وتطويرها لمصلحة جميع المسلمين، وأما الشيعة فيقولون: إنَّ هذا الأمر لم يذكره حتى عثمان بن عفان في الدفاع عن نفسه، ثم هل كان بنو أمية هم وحدهم الذين حباهم الله بنعمة التخصّص بالزراعة دون سائر المسلمين؟ وهل فضّلهم الله في ذلك على الناس بحيث يتمّ تخصيصهم بالأراضي ومنع الآخرين

١. م. ن، ١١٤-١١٥.

٢. م. ن، ٢٥.

منها؟ لقد كان جميع هذه الأنواع من انعدام التدبير قد نشأ من عدم دقة السياسات المالية المتبّعة من قبل عثمان بن عفان^١.

تداعيات إصلاح الأراضي

لقد عمد عثمان بن عفان من خلال البذل والعطاء من بيت المال من جهة، وفرض السياسات الجديدة حول الأراضي ومبادلة الأراضي الخارجة عن جزيرة العرب بالأراضي الداخلية، قد حوّل قبيلة قريش إلى طبقةٍ مختلفةٍ ومتميّزة. وهكذا فقد أخذت قريش تدّعي لنفسها امتيازاتٍ لم تكن تستحقها. من الواضح أنّ بيت المال لا يكفي الجميع، وعندما يفتني به بعض الناس دون ضابطةٍ منطقيةٍ فإنّ ذلك سيورث الأحقاد في قلوب الآخرين، ويتذكرون سياسات النبي الأكرم ﷺ والخلفاء السابقين في العدل بين الرعية، ويضمرون الحقد للخليفة الذي كان هو السبب في هذا الظلم والإجحاف. ولهذا السبب كان الثوّار يعترضون على السياسات المالية لعثمان بن عفان ويرونها خاطئة، وكانوا في البداية يطالبونه بتغيير هذه السياسات. لقد كان عمر بن الخطاب يتّبع سياسةً ماليةً محدّدة، وكان قد فصل حصة الجنود من بيت المال. بيد أنّ المعارضين قد وصلوا إلى نتيجةٍ مفادها أنّ عثمان بن عفان حيث عدل عن سياسة عمر بن الخطاب، وأسس بذلك لظهور الطبقة الرأسمالية، فيجب أن تتألف هذه الطبقة الرأسمالية من ذوي السابقة في الإسلام والذين ضحّوا بأنفسهم، وتعرّضوا للأخطار، وشاركوا في الحروب من أجل إقامة الدين الحنيف دون غيرهم. بمعنى أنّ النظام الرأسمالي حيث يكون قد فرضه نفسه وصار أمرًا

واقعاً، فيجب في الحد الأدنى أن يكون عادلاً. لماذا يتنعم بعض الأشخاص بالأموال التي يحصلون عليها من بيت المال إلى حد الترف والبطر، بينما يضطر الآخرون بسبب حاجتهم إلى الكدح في الأعمال الشاقة. لقد وصلت أصداء هذه الاعتراضات إلى مسامع عثمان بن عفان، وقد اقتنع في نهاية المطاف بأن الذين يستطيعون تحمّل أعباء العمل عليهم أن يعملوا، وأفرد راتباً لخصوص الذين يعجزون عن العمل، بيد أن الثورة عليه لم تمهله لتطبيق هذه الإصلاحات^١.

التسامح وخلق الأرضية المناسبة لانحراف الجماعات المتنفذة

لقد عمد طه حسين إلى تقسيم رعية عثمان بن عفان إلى أربعة أصناف، وهم: قريش، والأنصار (ولا سيّما جيل الشباب منهم)، والأعراب الذين أسلموا طوعاً أو كرهاً، والشعوب المغلوب على أمرها من الذين فتحت بلدانهم عنوة. وقد تمكّن عمر بن الخطاب من السيطرة على هذه الطوائف من خلال سياسته القاسية. من ذلك أنه—على سبيل المثال—كان يأخذ قريش بالشدة؛ وذلك لأنه كان يعرف نقاط ضعفهم وقوتهم، وعلى دراية بمواطن الفتنة التي يمكنهم إثارتها؛ ولذلك فإنه لم يكن يأذن لهم بالخروج من المدينة. بيد أن عثمان بن عفان من خلال انتهاجه لسياسة اللين، فتح الطريق لانحرافهم. فإن خروجهم من مكة مع ما يتمتعون به من المنزلة الاجتماعية الرفيعة، قد جعل قلوب الناس تهفو إليهم وأن يجتمعوا حولهم، الأمر الذي شكّل أرضية لانحرافهم^٢.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٢٥.

٢. م. ن، الرقم: ٦.

خلاصة ونقد

يعمد طه حسين إلى تبرير السياسات الاقتصادية لعثمان بن عفان أيضًا، بقوله: إنه إنَّما كان يعمل ذلك في ضوء اجتهاده، أو القول بأنَّ سوء تدبيره الاقتصادي يعود إلى مزاجه الشخصي والظروف المختلفة لعصر خلافته. ولكنَّه مع ذلك يعدُّ العامل الاقتصادي كبير التأثير في نقمة الناس عليه. وبطبيعة الحال فإنَّ التصرّف غير المشروع، وغير المعقول من قبل عثمان بن عفان في بيت المال أكثر من الذي يذكره طه حسين، ولا يمكن العمل على تبريره بأيّ وجه من الوجوه. بيد أنَّ الثورة على عثمان بن عفان لم تكن ذات صبغة اقتصادية، ولا ينبغي أن نعطي هذا النوع من الأسباب أكثر من وزنه الحقيقي.

الأسباب الفردية

إنَّ من بين أسباب الثورة على عثمان بن عفان، التي حظيت بالاهتمام في تحليل طه حسين، عبارة عن الأسلوب والأداء الشخصي للخليفة.

الأسلوب الشخصي للخليفة

إنَّ الذي غاب عن ملاحظة المؤرّخين وتمكّن طه حسين من رؤيته هو أنَّ عثمان بن عفان كان تاجرًا ثريًا كريمًا ومعطاءً حتى قبل وصوله إلى الخلافة، وعندما صار خليفة اضطرته ظروف اهتمامه بإدارة شؤون الحكم والدولة إلى ترك التجارة، وقد ذهب به الظنُّ إلى أنَّه يستطيع التصرّف ببيت المال كما كان يتصرّف في أرباح تجارته، وأنَّ بمقدوره أن ينفق من بيت المال على أقربائه وأبناء عشيرته كما كان ينفق عليهم

من ماله الخاص، غاية ما هنالك أن بذله عليهم هذه المرة من بيت المال أصبح أكثر مما كان ينفقه عليهم من أمواله. وأمّا أبو بكر وعمر بن الخطاب فلم تكن ثروتها قبل الخلافة كثيرة، ولم يكونا من أهل البذل والعطاء. ولهذا السبب فقد واصلا بعد الخلافة ما كانا عليه في السابق، بل ضيقا على نفسيهما أكثر من ذي قبل مخافة السقوط في الإثم والمعصية^١.

والآن حيث وصل إلى الخلافة شخصٌ يحمل هذه الصفة وقد ناهز من العمر سبعين عامًا، فمن البديهي أن يتعامل مع الناس بأخلاقه الحسنة، وأن يمدّ لهم يده الكريمة مع ما هو عليه من حُسن الظنّ بمن يحيط به. وعلى هذا الأساس لو كان هناك بعض الطامعين الجشعين بين أقرباء هذا الشخص، وكانوا يطمعون بمنصبه، فإنّ وقوع مثل هذه المصائب يبدو أمرًا طبيعيًا. وقد أصبح بعض الصحابة من الطالبين للدنيا وصاروا من الأثرياء والمتنعمين في عهد عثمان بن عفان، وأخذوا يظنون بالتدريج أنّهم ليسوا بأدنى من عثمان في استحقاق الخلافة^٢.

الانحراف عن مسار الحكم

لقد كان انحراف عثمان بن عفان عن سيرة الخليفة الثاني موضع اهتمام طه حسين من جهتين. الجهة الأولى أنّ عثمان بن عفان قد نقض مضمون البيعة، والأهمّ من ذلك أنّ عثمان من جهةٍ أخرى قد تجاهل التدابير الذكية للخليفة الثاني، ومن خلال عدوله عن سيرته فقد ارتكب أخطاءً قاتلة. ومن بين سائر الأسباب هناك أمثلة^٣

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٢٥.

٢. م. ن، ٢٩.

على الانحراف عن سيرة الخليفة الثاني، وقد تمّ في هذا القسم الالتفات إلى مصاديق خاصّة من هذا الانحراف، من قبيل: نصب الولاة من بني أمية، والغفلة عن مراقبة قريش، والغفلة عن مراقبة معاوية بن أبي سفيان، ونصب الولاة من غير الصالحين.

نصب الولاة الفاسدين

لم تمض سنةٌ واحدةٌ على تولّي عثمان للخلافة حتى بدأ عزل الولاة الذين سبق لعمر بن الخطاب أن قام بتنصيبهم، وأخذ ينصب ولاةً آخرين بدلاً منهم، وفي بعض الموارد كان قد تسرّع في ذلك. ولا سيّما في تنصيبه لولاة من قبائل مثل آل أمية، وقد سبق لعمر بن الخطاب أن نهى عن وضعهم في تلك المناصب؛ وذلك لأنّ عمر كان مدرّكاً للتداعيات السلبيّة التي تترتب على منح المناصب والسلطة لأمثال هؤلاء.

الغفلة عن مراقبة الجماعات المتنّظة

لقد كان عمر بن الخطاب قد منع من خروج الصحابة من المدينة المنورة، وكان قد أعدّ الأرضية للحيلولة دون زيادة ثرواتهم، ليمنع بذلك من انحرافهم وتحلّق الناس حولهم ولا سيّما منهم قريش؛ إذ من شأن ذلك أن يشكّل نواةً لتكوين الأحزاب والتيارات الاجتماعية.

بيد أنّ عثمان بن عفان قام بثورة اقتصادية في عام ٣٠ للهجرة. فقد وضع مشروعاً يسمح لمن امتلك عقارات في البلدان التي تمّ فتحها بأن يستبدلها بعقارات في الحجاز أو العراق. وكان غرضه من ذلك السيطرة على الهجرة إلى مدن بعينها،

وأن يعمل على استخدام العمّال والفلاحين. لكنّ هذا المشروع الاقتصادي أدّى إلى كثيرٍ من المفاسد؛ فإنّ الثروات المتراكمة ساعدت كبار الأثرياء على شراء الأراضي والعقارات من صغار المالكين، الأمر الذي أدّى بالتدريج إلى تبلور طبقة الأشراف والأرستقراطيين. وأخذ هؤلاء الأثرياء يستخدمون جموع العبيد والرقيق الذين حصلوا عليهم بفضل فتوح البلدان في حراثة وزراعة واستثمار الأراضي الزراعية، لينصرفوا إلى قضاء حياتهم في حالةٍ من الرخاء والبطر. حتى انتهى بهم الأمر إلى ملء أوقات فراغهم في إقامة مجالس اللهو والرقص والطرب والمجون. وقد أدّت هذه الطبقة لاحقاً إلى حدوث فتنةٍ تكلفت باندلاع ثورة عام خمسة وثلاثين من الهجرة^١.

الغفلة عن ظهور منافس قوي للدولة

إنّ الجموع التي حاصرت منزل عثمان بن عفان كانت من أهل الكوفة والبصرة ومصر، ولم يكن بينهم أحدٌ من الشام؛ وذلك لأنّ الشاميين كان لهم وضعهم الخاص الذي ميّزهم من سائر سكّان المدن الأخرى في ظلّ حكم معاوية بن أبي سفيان. وكان عثمان بن عفان قد ضمّ مناطق أخرى لحكم معاوية من قبيل حمص وفلسطين، وبذلك أصبح معاوية هو الحاكم المطلق على جميع الشام. ومن ناحيةٍ أخرى فإنّ عثمان بن عفان — خلافاً لسيرة عمر بن الخطاب — كان قد سمح لمعاوية بالعمل على فتح البلدان وخوض الحروب البحرية. وبذلك فقد أسّس معاوية لأقوى جيش في العالم الإسلامي، وحصل على فرصةٍ مناسبةٍ لانتقال الخلافة إلى بني أمية^٢.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٨.

٢. م. ن، ١٠.

تنصيب الولاة الفاسدين

لقد كان تنصيب الولاة الفاسدين من الأسباب المهمة لاندلاع الثورة على عثمان بن عفان. من ذلك — على سبيل المثال — أنه لم يمضِ على مقتل عمر بن الخطاب سوى سنةٍ واحدةٍ حتى طمع أبناء عمومة عثمان بولاية مصر وأجبروا الخليفة على تنصيب عبد الله بن أبي سرح والياً على مصر، على الرغم من أنه كان قد سبق له أن أذى رسول الله ﷺ كثيراً، حتى كان النبيّ قد أهدر دمه. ومع ذلك رضخ عثمان لطلب أرحامه، واستجاب لهم وولاه على مصر، ولم يكتفِ بذلك حتى أعطاه خمس مغانم أفريقيا أيضاً. ولكن بعد فتح أفريقيا اضطرَّ عثمان بعد احتدام الخلافات وكثرة الشكاوى إلى عزل عبد الله بن أبي سرح عن منصبه، وجعله بدلاً من ذلك مسؤولاً عن خراج مصر. وقد أدّى هذا التنصيب بدوره إلى حدوث مشكلاتٍ آخرين وأثار ذلك استياء أهل مصر من عثمان بن عفان^١.

لقد ذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنَّ أهل السنة والمعتزلة قد ارتكبوا تعسفاً في الدفاع عن عثمان في هذا الشأن، كما أنَّ المعترضين قد بالغوا في التحامل عليه. فكان المناصرون لعثمان يقولون إنَّ باطن الأشخاص كان خافياً على عثمان، وعليه فإنَّه لم يكن مقصراً إذا كشف الولاة بعد تنصيبهم عن مكنون بواطنهم وانحرفوا عن طريق الاعتدال.

من الواضح أنَّ هذا الكلام مجانبٌ للصواب؛ وذلك لأنَّ فسق بعض الأشخاص من أمثال الوليد بن أبي معيط وعبد الله بن عامر وعبد الله ابن سعد، كان ظاهراً منذ

البداية، وقد ضاق الناس بأفعالهم ذرعاً. وعلى هذا الأساس فإن سياسة عثمان بن عفان كانت على خلاف شروط البيعة؛ ولذلك لا يمكن عدّ الثورة عليه خاطئة^١.

خلاصة ونقد

حتى لو افترضنا أن الخليفة الثاني كان قد نجح في السيطرة على قريش ومعاوية بن أبي سفيان وفي عزل وتنصيب الولاة، ولكن كيف يمكن تجاهل التحولات الاجتماعية في عصر عثمان بن عفان، وأن نتوقع في الوقت نفسه من عثمان أن يواصل طريقة وأسلوب الخليفة الثاني في السيطرة على الأوضاع؟ وفي الأساس لماذا يجب أن يكون الوالي على الشام مثل معاوية بن أبي سفيان؛ بحيث يضطر الخليفة إلى مراقبته والسيطرة على قوته؟ فحتى متى يمكن وضع هذا الصنف من الأشخاص تحت السيطرة؟ وكيف كان يمكن لعثمان — بسبب خصائصه ومزاجه الشخصي وقربته من بعض العمال — أن يسلك مثل سلوك الخليفة الثاني؟ إن الحقيقة التي لا يستطيع طه حسين التصريح بها هي أنه ربما كان الأنسب ألا يتولّى شخص مثل عثمان بن عفان منصب الخلفاء أصلاً!

الأسباب الاجتماعية

إن أسلوب حياة الجيل الأول من المهاجرين والأنصار كان أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة. وقد وجد هذا الصنف من الأشخاص أنفسهم فجأة — بعد الفتوحات واتساع الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي — أمام حكومة ودولة مترامية الأطراف

وتحيط بها كثيرٌ من المشاكل المعقدة. وإذا كان عمر قد تمكّن من التغلّب على هذه المشاكل، فذلك يعود — من وجهة نظر طه حسين — إلى النبوغ الفذ الذي تميّز به عمر دون غيره^١. في ظلّ هذه الظروف والأوضاع تشقّ البيئة الاجتماعية طريقها وهي متأخرة عن الثقافة بخطوة، وتُخضع إرادة الأشخاص لسلطانها.

سلطة البيئة

يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ البيئة كانت أقوى من إرادة الأشخاص، وقد شاء الله تعالى أن تقع مثل هذه الثورة. إنّ أفضل شرح لهذه الحادثة — من وجهة نظر طه حسين — هو ذلك الذي يجب سماعه من كلام الإمام علي عليه السلام، إذ يقول: لقد آثر عثمان نفسه على الآخرين وأساء الأثرة. وروي أنّ نجل طلحة بن عبيد الله جاء إلى الإمام علي عليه السلام فأحسن الترحيب به. فقال نجل طلحة: يا أمير المؤمنين بالأمس قتلت أبي واليوم ترحب بي؟! فقال له الإمام علي عليه السلام: عطاؤك محفوظ في بيت المال، ولك أن تأخذه، وأما ما ذكرته من أنّي قد قتلت أبك، فإني لأرجو لنفسي وأبيك أن نكون من الذين قال عنهم الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾^٢. فقال رجل: إنّ الله لأعدل من ذلك. فصاح به أمير المؤمنين بصوتٍ ملاً أرجاء الفضاء، وقال: لو لم تكن نحن من هؤلاء فمن يكون غيرنا^٣. إنّ مراد طه حسين من هذا الكلام هو أنّ الكثير من الأشخاص البارزين لم يكن يرضيهم هذا النوع من الأحداث، ولكن الأسباب الاجتماعية والتقدير الإلهي هو الذي قدّر لهذه الأحداث أن تقع.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٢٩.

٢. الحجر: ٤٧.

٣. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٣١.

المخيلة الاجتماعية

لقد أضاع عثمان بن عفان خاتم النبي الأكرم ﷺ في بئر أريس، وقد تركت هذه الحادثة تطيراً في المخيلة الاجتماعية. فقد كان ذلك الخاتم هو ذات الخاتم الذي يختتم به رسول الله ﷺ رسائله وكتبه، ثم انتقل هذا الخاتم إلى أبي بكر وعمر، فكانا يختمان به أحكام الدولة، وقد انتقل هذا الخاتم إلى عثمان بن عفان، وكان حيث يختتم به رسائله يعرف عن نفسه بوصفه خليفة للنبي الأكرم ﷺ، ولكنه بعد أن أضاع ذلك الخاتم، واضطر إلى صياغة خاتم جديد، زال عنه ذلك العنوان والاعتبار^١.

تراجع قوة الحكم والسلطة

إن تراجع قوة الدولة والحكم، يعدّ واحداً من العناصر المهمة في اندلاع الثورات. لقد كان عبد الرحمن بن عوف هو أول من تمرد على أوامر عثمان بن عفان، وكان الأخطر من ذلك سكوت عثمان وعدم اتّخاذ الموقف الصارم تجاه هذا التمرد، الأمر الذي أظهر هشاشة دعائم السلطة؛ بحيث إنّ هذه الاعتراضات الموجهة إلى شخص الخليفة والتمرد على أوامره كانت تظهر حتى في العلن وفي حضور الآخرين من قبل أشخاص من أمثال أبي ذر الغفاري. وكان أبو ذر يقول: لئن أرضي الله بسخط عثمان خير لي من أن أرضي عثمان بسخط الله. وهكذا بدأت تشتدّ المعارضات في المدن البعيدة والمحيط بالمدينة، ثم انطلقت أصوات الاعتراض في داخل المدينة المنورة، واضطرّ عثمان إلى نفي بعض المعارضين، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع وتيرة الاعتراضات في المدينة المنورة أيضاً، وزادت من جراءة المعارضين في المدن الأخرى.

وقد وصل الأمر بعثمان إلى أن يضطرّ لمواجهة المعارضين بعنف وغلظة. وفي نهاية المطاف خرج الناس في ثورة على عثمان بن عفان سنة ٣٤ للهجرة. وقد خرجوا عليه بالشتائم والسباب، ولم يخرج من الصحابة للدفاع عن عثمان وردع الثوّار سوى القليل. وهناك من أرسل بعض الكتاب إلى المقاتلين في الثغور، يدعوهم إلى العودة إلى المدينة؛ لأنّ الجهاد الآن واقع خلف ظهوركم^١.

المنزلة الاجتماعية للنخب المعارضة

يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بدور النخب في الظواهر الاجتماعية. ومن هنا فإنّه يعمل - في إطار تحليل حادثة مقتل عثمان بن عفان - إلى بحث ودراسة المنزلة الاجتماعية لأعضاء الشورى السداسية بعد عمر بن الخطاب وغيرهم من الشخصيات المؤثرة، وتداعيات اعتراضهم على عثمان بن عفان. وهو يرى أنّ عبد الرحمن بن عوف، وطلحة، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبا ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، كانوا من بين هؤلاء الأشخاص؛ حيث كانوا يتمتعون بمنزلة اجتماعية مؤثرة، وكانت معارضتهم لعثمان بن عفان تلقى آذاناً صاغية من الآخرين. كما كان لسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام بدورهما منزلة مؤثرة أيضاً، ولكنها لم يظهرها مخالفة علنية ضد عثمان بن عفان.

عبد الرحمن بن عوف

كان طه حسين يذهب في مورد عبد الرحمن بن عوف إلى الاعتقاد بأنّه كان حادقاً في

أمور التجارة والاقتصاد جدًّا، وبسبب هذه المقدرة والكفاءة كان ثريًّا قبل الهجرة، وازداد ثراءً بعد الهجرة وسرعان ما التحق بطبقة الأغنياء. ومن ناحيةٍ أخرى كان عبد الرحمن بن عوف كثير النساء والأولاد، وكان قد صاهر أغلب القبائل القوية وذات الاعتبار والنفوذ والتأثير؛ ولذلك كان له كثيرٌ من الحماية والداعمين. وكان بمقدوره - من وجهة نظر طه حسين - فيما لو أصبح خليفة بسبب ما يتمتع به من الوعي الاقتصادي والمنزلة الاجتماعية والسياسية أن يقيم تحالفًا بين القبائل، وأن يعمل بذلك على تحسين أوضاع الناس وأحوالهم. ولكنّه كان قد تخلّى عن الخلافة، ولم يرزح تحت ثقل أيِّ مسؤولية. ولكنّه كان من جهةٍ أخرى هو الذي لعب الدور الحاسم في وصول عثمان بن عفان إلى الخلافة. ثم كان أول المخالفين له بعد وصوله إلى الخلافة. وكان من الواضح بداهة أن يؤدّي به موقعه الاجتماعي؛ ليكون محطّ أنظار المعارضين لخلافة عثمان بن عفان^١.

سعد بن أبي وقاص

لقد كان سعد بن أبي وقاص هو الشخص الثاني من المؤثرين بعد عبد الرحمن بن عوف، وكان هو الآخر - من وجهة نظر طه حسين - كثير النساء من مختلف القبائل. وكان قد حظي بتأييد النبي الأكرم ﷺ، وقد تولّى منصب قائد الجيش. وقد ولاه عثمان بن عفان على الكوفة بوصية من عمر بن الخطاب، ولكنّه عزله بعد ذلك بمدّة قصيرة ونصّب الوليد بن عقبة بن أبي معيط والياً على الكوفة بدلاً منه. لم يُظهر سعد بن أبي وقاص معارضة أو مخالفة لعثمان بن عفان، بل واعتزل الناس

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، الفقرة رقم: ١٤.

والتزم الحياد حتى عند اندلاع الثورة الشعبية ضد عثمان. وربما كان السبب في ذلك كي لا يقال عنه إنه إنَّما خرج على عثمان؛ لأنَّه قام بعزله عن ولاية الكوفة^١.

الزبير بن العوام

كان الزبير بن العوام هو الشخص الثالث في التأثير، ويمكن عدّه — من وجهة نظر طه حسين — بسبب قرابته المتعددة الجوانب من رسول الله ﷺ ومن أهل البيت. وقد كان الزبير من طلائع المؤمنين بالإسلام، وأبدى الكثير من البطولات في الحروب. وقد حوّل عبد الرحمن بن عوف اتّخاذ القرار في الشورى. وقد أعطاه عثمان بن عفان كثيرًا من الأموال، وحصل على ثروة كبيرة من خلال شراؤه كثيرًا من الأراضي والعقارات. ولم يشارك الزبير في الاعتراض على عثمان^٢.

طلحة بن عبيد الله

الشخص الرابع هو طلحة بن عبيد الله. وهو بدوره له — من وجهة نظر طه حسين — سابقة حسنة أيضًا. لقد كان طلحة صديقًا لعثمان بن عفان، ولكنه عند موت عمر بن الخطاب كان خارج المدينة المنورة، وقد ساءه أن يتم اختيار عثمان للخلافة في غيابه، ولكن عثمان قد استماله واسترضاه، وأغدق عليه كثيرًا من الأموال لاحقًا.

وأما في الثورة على عثمان كان طلحة من بين المعارضين عليه بشكلٍ فاعل، بل قد بايع الإمام علي عليه السلام مع الزبير بعد مقال عثمان، ولكنها نقضا البيعة لعلي عليه السلام، وقد

١. م. ن، الفقرة رقم: ١٥.

٢. م. ن، الفقرة رقم: ١٦.

شاركاً في حرب الجمل. ويرى طه حسين أنّ الطمع الشديد لطلحة هو الذي أغضبه من عثمان بن عفان^١.

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

إنّ طه حسين يبحث في الموقع والنشاط السياسي للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. وهو يعدّ الإمام علي من أقرب الأشخاص إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تحدّث كثيراً عن علمه بكتاب الله وسنة رسول الله وسيرته، وأنّه كان شديداً على نفسه، وتحدّث عن عدله وإنصافه وشجاعته في مواجهة مختلف الأحداث، وتكرهه للدنيا، وتحدّث أيضاً عن نصرته للخليفين الأول والثاني ودفاعه عنها. ولكنّه لا يرتضي القول بأنّ الإمام علي عليه السلام قد تراخى في مبايعة عثمان.

ثم تحدّث عن مخالفته الصداقة والخيرة لعثمان بن عفان، وأنّ قرابة عثمان قد أخافوه من الإمام علي عليه السلام كثيراً، وقد عملوا على إثارة الخلاف بينهما. وهو يرى أنّ مخالفة الإمام علي عليه السلام مع عثمان قد جنحت نحو الشدّة، ولكنّها لم تخرج عن حدود الإنصاف أبداً، وعند هجوم الناس على دار عثمان أرسل ولده يحمل الماء إليه، وأن يدافع عنه في مواجهة الثوار^٢.

عبد الله بن مسعود

لقد أسلم عبد الله بن مسعود وهو صغير حدث السن، وصار خازناً لبيت المال في الكوفة لاحقاً، ولكن اختلف هو والوليد حول إدارة شؤون بيت المال، وانحاز

١. م. ن، الفقرة رقم: ١٧.

٢. م. ن، الفقرة رقم: ١٨.

عمر بن الخطاب إلى موقف الوليد، فرمى ابن مسعود بمفاتيح بيت المال واستقال عن إدارة هذا المنصب. وقد تأثر أهل الكوفة به في سوء ظنهم بعثمان. ثم قام عثمان باستدعاء ابن مسعود إلى المدينة المنورة، وأساء معاملته، وقد واجه هذا الفعل اعتراضًا من عائشة بنت أبي بكر، والإمام علي عليه السلام.^١

أبو ذر الغفاري

كان أبو ذر من بين الأشخاص الذين أحبهم رسول الله ﷺ وأثنى عليه، وكان من جملة ما قاله النبي الأكرم ﷺ في حقه: «ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء على أصدق ذي لهجة من أبي ذر». وقد اعترض أبو ذر على مبالغة عثمان في بذل الأموال على الآخرين، حتى أثر الانتقال إلى الشام بوصية سبقت من رسول الله ﷺ أو بأمر من عثمان بن عفان. وهناك أيضًا لم يكف عن نقد أفعال معاوية بن أبي سفيان وعثمان. حتى كتب معاوية إلى عثمان يشكو إليه أبا ذر، فقام عثمان باستدعاء أبي ذر إلى المدينة المنورة، وبسبب موصلته للنقد والاعتراض نفاه عثمان إلى الربذة، حيث قضى نحبه هناك. وفي سياق قصة أبي ذر أساء عثمان معاملة عمار بن ياسر، ثم الإمام علي عليه السلام، وهددهما بالنفي أيضًا، ولكنه واجه معارضة كبيرة، فاضطر إلى عدم تنفيذ تهديده.^٢

عمار بن ياسر

على الرغم من أن عمار بن ياسر لم يكن ذا منزلة رفيعة في مكة المكرمة، ولكنه كان يحظى بحب النبي الأكرم ﷺ له. ومن ناحية أخرى كان عمر بن الخطاب قد ولاه

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ١٩.

٢. م. ن، ٢٠.

على الكوفة. وقد قام بالانحياز إلى ابن مسعود وأبي ذر، وأخذ يعارض سياسة عثمان بن عفان علناً، حتى بلغ الأمر بعثمان أن قام بضربه وشتمه^١.

لقد كان هؤلاء الأشخاص — من وجهة نظر طه حسين — من كبار الصحابة ورؤساء المهاجرين من الذين كانوا في طليعة المعارضين لسياسة عثمان بن عفان. وأما الأنصار الذين ألوا على أنفسهم ألا يتدخلوا في أمور الحكم، فلم يشتركوا في معارضة جادة لعثمان^٢.

نقمة الخاصة

يتضح من آراء طه حسين أنه يرى أن عدم رضى الخاصة يُعدّ سبباً في عدم رضى العامة، ويرى لذلك دوراً أكثر وضوحاً. وهو يرى أن الظروف والشرائط في عصر خلافة عثمان بن عفان كانت بحيث رفعت سقف التوقعات منه. فكان كل شخصٍ يطمع منه أن يوليه في منصب أو يعطيه مقاماً، بيد أن المناصب لم تكن من الكثرة بحيث يمكن توزيعها على جميع الطالبين. ومن ذلك أن محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة قد توجَّها إلى مصر ناقلين على عثمان بن عفان بسبب تجاهله لهما، وأخذوا يؤلِّبان المصريين عليه، ولقيا هناك من بين المصريين من يستجيب لهما^٣. كما يجب إضافة آخرين من الذين قام عثمان بخفض مقامهم ومكائنتهم أو حدّ من إمكانياتهم المادية والمالية إلى هذا التيار أيضاً. وقد بحث طه حسين دور عبد الله بن سبأ في

١. م. ن، ٢١.

٢. م. ن.

٣. م. ن، ١٢.

الثورة على عثمان بن عفان أيضًا، ولكنّه لا يرى صحّة الآراء المطروحة في هذا الشأن؛ وذلك لأنّه يرى أنّهم قد عملوا على تضخيم دوره. فهو يرى أنّ عبد الله بن سبأ لم يكن هو العنصر الأصيل في إشعال فتيل الثورة على عثمان، ولكنّه قد استفاد من الحركات الثورية لبلوغ مآربه^١.

خلاصة ونقد

إنّ اهتمام طه حسين بالعناصر الاجتماعية يُعدّ نقطة قوّة أبحاثه، ولا سيّما أنّه يُشير تلويحًا إلى الوزن الأكبر للعناصر الاجتماعية بالنسبة إلى سائر العناصر الأخرى. بيد أنّ الخلل في أبحاثه يكمن في أنّه قد تحدّث في القسم السابق عن غياب القانون والمؤسسات الرقابية، وتجاهل الأحكام الشرعية بوصفها هي القوانين والتشريعات السياسية والاجتماعية الحاكمة على المجتمع.

وأما في مورد الخاصّة فقد تحدّث عن اعتراضهم على سياسة عثمان بن عفان دون أن يلتفت إلى أنّه بذلك قد نقض كلامه السابق؛ وذلك لأنّ هذا النوع من الانتقادات الصادرة عن بعض الصحابة من أمثال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وأبي ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، هو عبارة عن الرقابة الناشئة عن الشعور بالمسؤولية الملقاة على عواتقهم من قبل التكاليف والأحكام الشرعية، الأمر الذي يحكي عن وجود القوانين والتشريعات الرقابية في المجتمع.

يؤكد طه حسين صائبًا على دور الخاصّة، وأنّ معارضتهم لسياسة عثمان هي التي أدّت إلى انتشار الامتعاظ والاستياء على مستوى المجتمع. بيد أنّ جميع هذه

المعارضات لا يجب عدّها بمعنى خطأ عثمان بن عفان في أدائه السياسي والاجتماعي، بل يجب الذهاب إلى أبعد من ذلك والقول بأنّ اختيار عثمان بن عفان بوصفه خليفة للمسلمين كان هو الخطأ من الأساس. وإنّ النظرية القائلة بعدالة جميع الصحابة والقول بأنّ كلّ ما يقومون به كان عن اجتهادٍ منهم، ويمكن تبرير هذا الأمر سواء أصابوا أم أخطأوا على أساس الاجتهاد، يدعو إلى التأمل. إذ لا بدّ أولاً من إثبات أنّه قد اجتهد أصلاً، ثم العمل بعد ذلك على مناقشة أسلوبه ونقده على أساس قواعد الاجتهاد. لا أن نقوم بتبرير جميع تصرفاته وقراراته الشخصية والمزاجية والذوقية، وإلقاء الكلام على عواهنه بحجة الاجتهاد.

العوامل الخلفيّة

لقد تحدّث طه حسين — بالإضافة إلى العناصر المختلفة — عن العناصر الفردية والجزئية أيضاً. وتندرج حوارات الوسطاء ومحاوره الخليفة نفسه مع المعارضين، وسياسات الخليفة تجاه المعارضين ضمن هذه الطائفة من العناصر.

التوسّطات الفردية

عندما اتّحد المعارضون ضدّ عثمان، أجبروا الإمام علي عليه السلام على الحديث معه. وقد أشار طه حسين إلى الكلام الذي دار بين الإمام علي عليه السلام وعثمان بن عفان، ولم يتّضح لنا ما إذا كان قد نقل مضمون كلامهما أم لا. قال الإمام علي عليه السلام له: إني لا أعلم أكثر مما تعلم، ولا ينقصك شيء يجعلك أدنى من الخليفين السابقين. وإنّ للسنن والبدع ملاكات أنت تعرفها. وكلّ ما أخشاه أن تقتل ويصبح قتل الإمام سنّة ويحدث الشقاق بين المسلمين. ثم سعى عثمان إلى

إثبات أنّه إنّما قام بما قام به عمر نفسه، وأنّه قد قام بتنصيب ذات الأشخاص الذين نصبهم عمر. بيد أنّ الإمام عليّ عليه السلام أشار له في الجواب إلى شدّة عمر على عماله وإشرافه على أفعالهم، وعدول عثمان عن ذلك. ثم افترقا دون أن يتّفقا على شيء، وتصوّر عثمان بن عفان أنّ الإمام عليّ عليه السلام لم يراع القرابة، بل ألقى عليه اللوم وتركه وحيداً.

التعامل المباشر بين الخليفة والمعارضين

إثر فشل الحوار بين الخليفة والوسطاء، قرر عثمان بن عفان أن يتحدّث إلى المعارضين مباشرة، فصعد المنبر وأغلظ عليهم القول وخاطبهم بشدّة. وقد احتج عليهم بالقول: إنّ عمر بن الخطاب كانت له ذات السياسة معهم، ولكنهم سكتوا عنه خوفاً من بطشه، ولكنني عاملتكم باللين فتجرّأتم. وقد كنت إمامكم وأنفقت المال الكثير الذي حصلت عليه كما شئت. ثم توعدّ الناس أنّهم إن لم ينتهوا ويكفّوا عن معارضتهم فسوف يستدعي جنده ويتعامل معهم بالقوّة. ثم اعتذر وقال إنّ أفعالكم هي التي حملتني على ذلك.

لقد تصوّر طه حسين أنّ عثمان بن عفان إنّما توجه بهذا الكلام إلى قادة الثورة والذين كانوا يتطلعون إلى الجلوس في منصب الخلافة^٢. ومن الواضح بداهة أنّ هذا الأمر لن يجدي نفعاً بعد انحسار قوّة الدولة.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٢٧.

٢. م. ن.

التشدد في معاملة المعارضين

في عام ٣٤ للهجرة حجّ عثمان بن عفان على مألوف عادته، وعقد هناك مجلساً استشارياً مع عماله. وقد اتخذ عثمان في هذا المجلس قراراً يقضي بعودة العمال إلى مدنهم، وأمرهم بأن يضيّقوا في العطاء وأن يقطعوا عطاء المعارضين، وأن يرسلوا الرجال إلى الثغور^١. بيد أنّ هذا النوع من القرارات بعد مدّة طويلة من التسامح والتساهل كان متأخراً، ولم يكن له ذلك التأثير الفاعل.

مخالفة عثمان لمقترح معاوية

عند العودة من الحج في عام ٣٤ للهجرة، قدّم معاوية بن أبي سفيان مقترحين إلى عثمان بن عفان، وكان المقترح الأول هو أن ينتقل عثمان إلى الشام، والمقترح الثاني أن يرسل معاوية جند الشام إلى المدينة المنورة لحماية الخليفة في عاصمة حكمه. وقد رفض عثمان العمل كلا هذين المقترحين، وقد ذكر الأسباب التي تدعوه إلى عدم العمل بهذين المقترحين. ومن بين تلك الأسباب أنّه يكره ترك جوار رسول الله ﷺ، والأمر الآخر أنّه لا يجب إيذاء أصحاب النبي الأكرم ﷺ بإدخال جيش الشام إلى المدينة، وتحويل أجواء المدينة إلى أجواء أمنية صارمة.

بيد أنّ طه حسين ذكر أسباباً أخرى لرفض عثمان لهذين المقترحين، ومن بينها أنّ عثمان لو ترك المدينة المنورة إلى الشام لكان قد ارتكب بدعة تغيير عاصمة الإسلام والحكم من مدينة النبي إلى مكانٍ آخر، ثم إنّ اختيار الشام سيجعله تحت قبضة معاوية بن أبي سفيان. كما أنّ مقترح إرسال جند الشام إلى المدينة المنورة حيث

لم يسبق لهؤلاء الجنود أن رأوا رسول الله ﷺ، سوف يؤدّي إلى تسليطهم على الصحابة، وكان قيام هذا الجيش بحراسة عثمان أمراً لا يتناسب مع شخصية عثمان بن عفان الذي كان من سيرته وعادته أن يمشي في الطرقات وحده، وأن يمكث في المسجد، ويتحدّث إلى الناس، ويتفقّد أحوال الفقراء والمرضى، ويسأل عن أسعار البضائع في الأسواق، وكان في بعض الأحيان يتعبّد في المسجد حتى إذا شعر بالإعياء وضع عباءته تحت رأسه لينام.

وبعد أن أعلن عثمان عن رفضه لمقترح معاوية بن أبي سفيان، قال له معاوية: أرى أنّ الناس سوف يقتلونك. فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل^١. وقد أيد طه حسين هذا القرار الذي اتخذته عثمان بن عفان، وقال بأنّ عثمان قد ارتضى التبعات السلبيّة المترتبة على هذا القرار الصائب.

تراجع الخليفة

إنّ الخليفة عثمان بن عفان بعد هذه الجلسة الاستشارية، وبيان قراراته النهائية إلى عماله، رجع برفقة معاوية بن أبي سفيان إلى المدينة المنورة، حيث اعتلى معاوية هناك أعواد المنبر، وألقى خطبةً على الصحابة، ولم تكن خطبته تخلو من التهديد والوعيد. وقد ردّ عليه الإمام علي عليه السلام بكلام شديد. ثم تدخّل عثمان لإنقاذ الموقف، وتراجع عن مواقفه بشكلٍ صريح، وقال للمعارضين بأنّه سيعمل بكلّ ما يطلبونه منه. وقد طالب الأصحاب باسترجاع الأموال إلى بيت المال، وقبل عثمان بهذا الطلب. وحصل على مرضاة الناس من الحاضرين إلى حدّ ما^٢.

١. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٢٩.

٢. م. ن، ٢٧.

مراحل اندلاع الثورة

زحف الجيش نحو المدينة

إثر الاستياء والاعتراض العام، وتراجع الخليفة عن وعوده الجديدة، خرج أهل الكوفة وتمردوا على إرادة الدولة، وتمكنوا من تغيير الحاكم عليهم. وقد أخذت سائر المدن والحوضر الأخرى تحذو حذو الكوفة. ثم خرج أهل مصر متذرعين بأنهم يريدون العمرة، ولكنهم ذهبوا إلى المدينة وتجاوزوا مع عثمان بن عفان. وقد قطع لهم عثمان بعض الوعود التي أفنعتهم بشكل مؤقت^١. لقد قبل عثمان بن عفان بمطالب الناس، وأن يستجيب لجميع شكواهم، وتمكن من إقناعهم. ولكن لم يمض وقت طويل، حتى لم يف عثمان بأي شرط من الشروط التي قطعها على نفسه فلم يعزل والياً ولا أزال مظلمة عن أحد من الشكاة.

وبعد أن يس أهل الكوفة والبصرة من قيام عثمان بتلبية مطالبهم، فقد اتحدوا فيما بينهم من أجل الخروج عليه، وانطلقوا نحو المدينة المنورة. وقد طلب عثمان من بعض الأشخاص أن يتحاور معهم، ولكنهم رفضوا ذلك لأن عثمان لم يف بالشروط التي قطعها على نفسه في المفاوضات السابقة. ولكنهم شكّلوا جيشاً للحفاظ على الأمن في المدينة. لقد تظاهر المعارضون أمام جيش المدينة أنهم يعترضون العودة إلى أوطانهم، ولكنهم بعد أن تفرق الجند، دخل الثوار إلى المدينة وحاصروا الخليفة في بيته. وفي البداية كان الحصار سلمياً، وكان يُسمح لعثمان بالخروج من البيت والتردد في أزقة وسكك المدينة وكان يعتلي المنبر في المسجد، ولكن عندما أدرك

الثوار أنّه كتب إلى جنوده سرّاً يدعوهم إلى المدينة لمواجهة الثوار، تغيّرت الأمور وانقلبت الأوضاع رأساً على عقب^١.

المواجهة الجسديّة والعنيفة مع الخليفة

في واحدةٍ من تلك الأيام حيث كان عثمان يخطب في الناس على المنبر وينصحهم، قام إليه جبلة بن عمرو الساعدي الأنصاري، وقال له: سوف نرسلك يا عثمان إلى جبل الدخان حيث أرسلت إليه الصالحين منا. وقد ساء هذا الكلام عثمان بن عفان، وأوصاه الآخرون بانتهاج سياسة الرفق مع الرعية. ولكن انبرى الجهجاه بن سعيد الغفاري – وكان من أصحاب رسول الله ﷺ – وانتزع من يد عثمان عصا الخلافة التي ورثها من الخلفاء السابقين وقام بكسرها على فخذه. ثم انهالت عليه جموعٌ غفيرةٌ تضربه بالحجر والمدر حتى أغشي عليه، ثم حملوه إلى منزله وهو على هذه الحالة. ومنذ ذلك الحين لم يسمح له الثوّار بالخروج إلى المنزل وإقامة الصلاة في المسجد، بل ومنعوا حتى الماء عنه وعن عياله. وقد احتال أمير المؤمنين عليه السلام لإيصال الماء إليه، ونهى الثوّار عن ذلك، وقد بلغ الأمر حدّاً من التوتّر بحيث لزم كثيرٌ من الأصحاب وسائر الناس منازلهم. وكان عثمان يصعد إلى سطح داره أحياناً ويشرف على الثوّار من هناك، ويقوم بنصحهم ولكن من دون جدوى^٢.

حراسة بيت الخليفة

قام كلٌّ من عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسن بن علي، والحسين بن

١. م. ن.

٢. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٢٨.

علي عليه السلام ومحمد بن طلحة، مع ثلثة أخرى من شباب بني أمية بالتحلّق حول بيت عثمان بن عفان من أجل توفير الحماية له وحراسته، وقد تمكّنوا من الحفاظ عليه لبضعة أيام^١.

مقتل الخليفة

عندما وصل خبر اقتراب جيش العراق والشام من المدينة المنورة، قام الثوار بقيادة محمد بن أبي بكر بالتسلل خلسة إلى بيت عثمان وقتلوه. وهناك رواية أخرى تقول إنّ مروان وبني أمية — الذين كانوا مكلفين بحراسة بيت عثمان — هم الذين بدأوا الحرب دون الالتفات إلى نهي عثمان، وبذلك عرّضوا بيت عثمان للهجوم من قبل الثوار وقتل عثمان. ويبدو أنّ عثمان بن عفان كان في اللحظات الأخيرة من عمره قد رضي بالشورى وأهل الحلّ والعقد واختيار الخليفة من قبلهم، ولكن كان قد فات الأوان على ذلك^٢.

مرحلة ما بعد الثورة وتداعياتها المعاصرة

لقد وقف المسلمون بعد مقتل عثمان بن عفان على مفترق طريقين؛ أحدهما: السلطة وممارسة الحكم على طريقة السابقين وحل الأمور الدنيوية بالعلوم الدنيوية. يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ سلوك هذا المسار يؤدّي في البداية إلى تقدّم وازدهار المجتمع، ولكنّه يؤدّي بعد ذلك إلى الأفول التدريجي. وأمّا الطريق الثاني وهو طريقٌ جديدٌ عبّده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعمل كلٌّ من أبي بكر وعمر على تكميله. إنّ هذا

١. م. ن.

٢. م. ن.

النوع من الحكم يقوم على أساس الدين، وتشكّل المحبة والعدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيثار من بين أصوله. وقد ذهب أكثر المسلمين إلى اختيار الطريق الأول، وتعرضوا حتى المرحلة المعاصرة إلى كثيرٍ من المشاكل والمعضلات. وذهب عددٌ قليلٌ منهم إلى اختيار الطريق الثاني، والذي حدث النزاع حوله منذ البداية، وتغلّبت عليه الأكثرية^١.

عدم دفاع العمال والولاة عن الخليفة

يوجد هنا سؤالٌ مهمٌّ أحجم المتقدّمون عن الإجابة عنه. بيد أنّ طه حسين يسعى إلى الإجابة عنه، وهذا السؤال هو: لماذا تقاعس الولاة الذين نصبهم عثمان عن نصرته ونجدته على الرغم من استغراق محاصرته في منزله أربعين يومًا؟

فقد اطلع كلُّ من عبد الله بن أبي سرح حاكم مصر، وأبو موسى الأشعري حاكم الكوفة، وعبد الله بن عامر حاكم البصرة، قد علموا بأجمعهم بخروج سكّان المدن الخاضعة تحت سيطرتهم على عثمان في المدينة المنورة، ورغم ذلك لم يجرّكوا ساكنًا تجاه ذلك. وقد توجه ابن عباس — بناءً على رواية — بأمرٍ من عثمان بن عفان إلى مكة المكرمة، ليقراً كتابه على الحجيج، ولكن لم تصدر أيّ استجابةٍ لذلك لا من قبل حاكم مكة، ولا من قبل الحجيج. في حين أنّه لو قام كلُّ واحدٍ من الصحابة بقذف الثوّار بحجارةٍ واحدةٍ لأمكنهم التغلّب عليهم ودحرهم^٢.

بعد مقتل عثمان بن عفان ظهرت أمام الناس مسألتان، وهما أولاً: إقامة النظم

١. م. ن، ٢٩.

٢. طه حسين، الفتنة الكبرى، ٣٠.

والوئام من طريق تعيين خليفةٍ جديد، والطريق الآخر: إقامة القصاص على قتلة عثمان. ومن بين الرجال الستة من أعضاء الشورى كان قد توفّي منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وأمّا سعد بن أبي وقاص فقد اعتزل الناس بحجة تجنّب الوقوع في الفتنة، وعليه فإنّ المرشحين الأساسيين للخلافة كانوا ثلاثة، وهم: طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام، وعلي بن أبي طالب عليه السلام. وكان الزبير من بين هؤلاء قد أثر السكوت تجاه الثورة على عثمان بن عفان، وكان طلحة يعمل على تأجيج نار الثورة، بينما كان الإمام علي عليه السلام يسعى من أجل منع المعارضين من الفتنة. بل وسعى الإمام علي عليه السلام بطلبٍ من عثمان إلى منع طلحة من تشجيع المعارضة على مواصلة الاحتجاج، ولكن حيث امتنع طلحة عن الاستجابة لهذا الطلب، اضطرّ الإمام علي عليه السلام إلى تقسيم بيت المال على الناس بشكلٍ كامل، وبذلك عمد إلى تفريق الناس عن التجمّع حول طلحة.

وفي ظلّ هذه الظروف لم يبقَ أمام طلحة سوى الاعتذار من عثمان بن عفان، ولكن عثمان رفض اعتذاره، وقال له: إنك لم تعد إلينا إلا بعد أن فشلت في سعيك. وبقيت المدينة المنوّرة بعد مقتل عثمان من دون خليفة، وأخذ شخص من الثوّار يتولى إدارة المدينة. ولكن الثوّار كانوا على يقين من أنّه لا أحد منهم يمتلك صلاحية الجلوس في منصب الخليفة، ومن ناحيةٍ أخرى كان هناك احتمال وصول معاوية بجيشه إلى المدينة قريباً، ليتولّى إدارة الأمور بنفسه وينكل بهم. وقد اختار أهل مصر الإمام علي عليه السلام، واختار أهل الكوفة الزبير بن العوّام، واختار أهل البصرة طلحة بن عبيد الله. وقد توصل الثوار لانتظام الأمور إلى نتيجةٍ مفادها أنّهم بحاجة إلى

مساعدة المهاجرين والأنصار ليختاروا واحداً من بين هؤلاء الثلاثة ليكون هو الخليفة. ومن هنا فقد دخلوا في حوار بهذا الشأن. وحيث لم يكن بدّ للمهاجرين والأنصار من التدخّل، فقد قالوا بأنّ الإمام عليّ عليه السلام هو الأفضل لهذا المنصب، وتوجّهوا مع الثوار إلى منزل الإمام علي، وقد اضطرّ الإمام علي إلى الاستجابة إلى طلبهم وقبل بتوليّ أمور الخلافة. وقد امتنع نفرٌ قليلٌ عن مبايعة الإمام علي عليه السلام من أمثال سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام، وقد تركهم الإمام علي عليه السلام ولم يجبرهم على البيعة، باستثناء طلحة والزبير حيث كانا يطمعان بالخلافة. وبذلك فقد تمّ حلّ مسألة الخلافة، وإن بقيت مشكلة الشام، وخطر معاوية بن أبي سفيان باقية على حالها.

بيد أنّ المشكلة الأهمّ كانت تتلخّص في محاكمة قتلة عثمان بن عفان. وكان المهاجرون والأنصار يطالبون بالقصاص من القتلة، بيد أنّ الإمام علي عليه السلام لفت انتباههم إلى تواجد الثوار في المدينة، وذكرهم بضرورة إرجاء هذا الطلب إلى وقتٍ آخر. وقد ارتضى طه حسين تقرير محاكمة محمد بن أبي بكر بتهمة قتل عثمان بن عفان. كما واجه عثمان بن عفان في بداية خلافته مسألةً شبيهة بهذه المسألة حيث وجد نفسه مطالباً بالقصاص من نجل خليفة سابق بقتل الهرمزان. مع فارق أنّ عثمان كان قد حكم في هذه القضية بخلاف النصّ من وجهة نظر بعضهم في الحدّ الأدنى، وأمّا الإمام علي عليه السلام فقد واصل محاكمة محمد بن أبي بكر حتى أيقن ببراءته، وبطبيعة الحال فإنّه لم يُمهّل لكي يواصل محاكمة الآخرين من المشتبه بهم في هذه الحادثة. بيد أنّ طه حسين كان يعتقد بأنّ محمد بن أبي بكر كانت له مشاركة في قتل

عثمان على نحوٍ غير مباشر؛ لأنّه كان من بين الذين تسوّروا الجدار المحيط بمنزل عثمان، واقتحام المنزل بهدف قتل عثمان بن عفان^١.

الظروف الاجتماعيّة القاهرة

كان طه حسين يعتقد بأنّ عمر بن الخطاب كان يشدّد على الناس، ولا سيّما منهم المنتسبون إلى قبيلة قريش، في حين أنّ عثمان بن عفان فقد أحدث انفراجة لدى الناس. وأمّا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فقد واصل سياسة عمر، ولم يمنح أحدًا سهمًا في بيت المال أكثر من الآخرين، ولم يُسرف في العطاء. وكان الناس قد قبلوا بخلافة الإمام علي عليه السلام وهم على شيء من الاضطراب والخوف بسبب مقتل الخليفة وتواجد الثوّار في المدينة؛ وذلك لأنّ الخليفة وأصحابه وأنصاره من المهاجرين والأنصار كانوا قد وقعوا أسرى في يد الثوّار.

والمسألة الأخرى التي كانت تستوجب تحوُّف الناس، هم الولاة في مختلف المدن؛ حيث ظنّ الناس أنّهم لن يتعاونوا مع حكومة الإمام علي عليه السلام. ولا سيّما منهم معاوية بن أبي سفيان الذي كان قد حكم الشام لحقبةٍ زمنيّةٍ طويلة، وكان الناس يطيعون أوامره، وكانت له قرابةٌ مع عثمان بن عفان، يُضاف إلى ذلك أنّه كان هناك نزاعٌ قديمٌ بين بني أميّة وبني هاشم. كان الناس يعلمون أنّ معاوية هو نجل أبي سفيان زعيم المشركين، وأنّ أباه هو الذي لعب دورًا كبيرًا في كثيرٍ من الحروب ضدّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. وكان لأمّه هند بنت عتبة دورٌ في مقتل حمزة عمّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تكف بذلك حتى شقّت صدره ومضغت كبده.

١. طه حسين، علي وبنوه، ١.

وهذا كله يعبر — من وجهة نظر طه حسين — عن أنّ الناس كانوا يعلمون بحتمية النزاع بين الخليفة ومعاوية بن أبي سفيان. كما أنّ اعتزال السياسة من قبل بعض الصحابة، وبيعة بعضهم — من أمثال طلحة والزبير — قد استوجب إثارة القلق لدى الناس أيضًا. ومع ذلك كان الإمام علي عليه السلام في ظلّ هذه الظروف هو الوحيد الذي يستطيع بثّ الطمأنينة في صدور الناس. وقد عمد طه حسين في سياق إيضاح هذه المسألة إلى بيان فضائل الإمام علي عليه السلام، حتى إنّه يقع أحيانًا في التناقض عندما يعدّد فضائل الخلفاء الآخرين، ويلتزم الصمت والسكوت عندما يصل إلى الإمام علي عليه السلام، وبطبيعة الحال فإنّه على الرغم من ذكر كثيرٍ من الفضائل لأمر المؤمنين، يُضيف إلى ذلك ما يحمل في طياته تفضيلًا لعمر بن الخطاب على الإمام علي عليه السلام، وتحدّث عن شبه الإمام علي عليه السلام بعمر بن الخطاب.

وفي نهاية المطاف يُشير طه حسين إلى أنّ اختيار الإمام علي عليه السلام للخلافة كان هو الخيار الأفضل، ولكن الناس إنّما صاروا إليه بعد أن وصل المجتمع إلى حافة الانهيار^١. ثم تحدّث طه حسين بعد ذلك عن روايةٍ مأثورةٍ عن النبيّ الأكرم صلوات الله عليه وآله يقول فيها لعلي عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، وأنّ الإمام علي عليه السلام كان لهذا السبب يعدّ نفسه أحقّ بالخلافة، ولكنّه مع ذلك رفض عرض البيعة عليه من قبل ابن عباس وأبي سفيان، تغليبًا منه لمصلحة المسلمين على مصلحته، ولم ينازع أبا بكر على الخلافة. وعلى الرغم من أنّه لم يبايعه إلّا متأخرًا، وقد غضب من أبي بكر بسبب منعه السيدة فاطمة الزهراء صلوات الله عليها من ميراث أبيها.

يقول طه حسين: ربما كان صبر الإمام علي عليه السلام على أبي بكر يعود إلى ظنه بأن الخلافة سوف تكون من نصيبه بعد رحيل أبي بكر، بيد أن أبا بكر قد اختار عمر بن الخطاب ليكون هو الخليفة بعده، وهكذا صبر أمير المؤمنين مرةً أخرى من أجل مصلحة المسلمين أيضاً. وبطبيعة الحال فقد ذهب طه حسين إلى القول بأن الإمام علي عليه السلام — على كل حال — لم يكن أمامه من خيار سوى الصبر؛ إذ لم تكن لديه قوة تدافع عنه أو عصبة تتصبر له.

وبعد مقتل عثمان بن عفان، لم يقيم الإمام علي عليه السلام بدعوة الناس إلى نفسه رغم اعتقاده بأن الخلاف من حقه، حتى أجبره الثورار على قبول الخلافة. ومع ذلك لم يجبر أحداً على البيعة باستثناء طلحة والزبير، رغم أن طه حسين يرفض أن يكون الإمام علي عليه السلام قد أجبر طلحة والزبير على البيعة، ويرى أنهما قد بايعا الإمام بملء رغبتهما، ولكن حيث رفض الإمام علي عليه السلام إعطاءهما منصباً في حكمه فقد نقما عليه لاحقاً، وسلكا طريق المعارضة؛ وذلك لأنهما كانا يطمحان إلى الحصول على ولاية البصرة والكوفة، ولكن الإمام علي عليه السلام لم يمنحهما ذلك، ولكنه مع ذلك لم يجبرهما على البقاء في المدينة المنورة^١.

عمق الخلافات السياسية

وقد وصل طه حسين — بعد دراسة مختلف الآراء حول تعامل أمير المؤمنين عليه السلام مع ولاية عثمان — إلى نتيجة مفادها أن الإمام علي عليه السلام لم يكن بمقدوره أن يقيهم في مناصبهم. إذ كان هناك محورٌ ديني في أصل تنصيبهم، وقد سبق لأمر المؤمنين عليه السلام

أن حدّث عثمان بن عفان من مغبة تنصيبهم. وكان هناك محذورٌ سياسيٌّ في هذه المسألة أيضًا؛ وذلك لأنّ الثّوار لم يكونوا يتحمّلون بقاء هؤلاء الولاة في مناصبهم. وكان أوّل ما قام به الإمام علي عليه السلام هو تنصيب الولاة الجدد في مختلف الحواضر الإسلامية. وقد اختار للمناطق المهمة رجالاً من الأنصار، وقد زعم طه حسين أنّ الإمام عليه السلام قد أراد بذلك إرضاءهم.

وأما فيما يتعلّق بولاية الشام فقد كان الإمام علي عليه السلام صريحاً في عزل معاوية، ولم يكن يقصد ممارسة الخداع والتعمية. وقد تمّ تبادل الرسائل والكتب بين المدينة والشام، حتى اتضح لأمر المؤمنين عليه السلام أنّ معاوية يعترم إثارة الحرب تحت ذريعة المطالبة بدم عثمان بن عفان؛ ولذلك فقد جمع الإمام علي عليه السلام كبار الأصحاب في المدينة المنورة للتشاور واقترح عليهم المبادرة إلى الهجوم، ولكنهم لم يطيعوه في ذلك. وفي الوقت نفسه تدرّج طلحة والزبير بالخروج إلى العمرة، ولكن الإمام علي عليه السلام لم يأذن لهم في ذلك، وعلى الرغم من ذلك فقد توجّهوا نحو مكة، وفي الوقت الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام يتجهّز للتوجّه نحو الشام علم بوجود مؤامرة تُحاك في مكة^١. فقد اجتمع في هذا الوقت عددٌ كبيرٌ في مكة لمختلف الأسباب والحجج، وكان بينهم مجموعةٌ من عمّال عثمان بن عفان وطلحة والزبير، وعائشة التي لم تكن سعيدةً بتنصيب الإمام علي عليه السلام في الخلافة، وكان هناك أشخاصٌ آخرون من أمثال عبد الله بن عمر من الذين تجمّعوا في مكة المكرمة بذريعة الحفاظ على دينهم وعدم السقوط في الفتنة والابتعاد عن الحروب. لقد كانت عائشة واحدةً من الشخصيات الكبيرة

١. طه حسين، علي وبنوه، ٤.

في الإسلام في ذلك العصرة، وكانت على شيءٍ من الشدّة والقسوة، والجميع يعلم أنّها لم تكن على وئامٍ مع الإمام علي عليه السلام. وقد ذكر طه حسين ثلاثة أسبابٍ لذلك، ومن بينها أنّ الإمام علي عليه السلام في حادثة الإفك وقبل نزول القرآن بتبرئة ساحة عائشة من التهمة، كان قد اقترح على رسول الله ﷺ أن يطلقها. وثانيًا أنّ الله جعل ذرية النبي الأكرم ﷺ في بيت الإمام علي عليه السلام، ولم ترزق عائشة بذرية من النبي الأكرم ﷺ. وثالثًا: أنّ الإمام علي عليه السلام بعد وفاة أبي بكر تزوّج من امرأته أسماء، وتبنّى ولدها محمد بن أبي بكر، وتربّى في حجره. وعلى الرغم من أنّ عائشة كانت من أشدّ المؤلّبين على عثمان بن عفان، إلّا أنّها بادرت إلى تغيير موقفها بعد علمها بوصول الإمام علي عليه السلام إلى الخلافة وجاهرت بالمعارضة بذريعة المطالبة بدم عثمان بن عفان، وتمكّنت من استقطاب أهل مكّة لجانبها، وبذلك فقد اجتمع المعارضون جميعهم على خلافة الإمام علي عليه السلام في مكّة، والتحق بهم كلّ من طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام. وقد وصل كتاب أمير المؤمنين إلى مكّة في ظلّ هذه الظروف، وامتنع الناس عن بيعته^١.

وقد اتّخذ المجتمعون في مكّة قرارًا يقضي بالمطالبة بدم عثمان والاقتصاص من الذين قتلوه، والعمل بعد ذلك على اختيار خليفة من بينهم. وحيث لم يجدوا المدينة المنوّرة والكوفة مناسبتين لخوض المعركة، فقد توجّهوا بجيشهم المؤلّف من ثلاثة آلاف مقاتل إلى البصرة. وحيث علم الإمام علي عليه السلام بهذا الأمر فقد انصرف عن التوجّه إلى الشام، وعدّ الأولوية إخماد هذا التمرد^٢.

١. م. ن، ٥.

٢. م. ن، ٦.

لقد كانت ظروف خلافة الإمام علي عليه السلام تختلف عن ظروف الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه. فقد خرجت عليه مجموعة من الصحابة الذين سبق لهم أن حصلوا على التأييد والثناء من النبي الأكرم ﷺ، وقد صمموا على خوض الحرب ضده. لقد ذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأن الإمام الحسن بن علي عليه السلام قد حذر والده ثلاثاً، وطلب منه أن يعتزل الناس، وأن يذهب إلى مكة، أو إلى أي مكان آخر، لكي يذهب الناس بأنفسهم إليه، ولكن الإمام علي عليه السلام لم يكن ليترك الناس يصارعون الصعاب وحدهم.

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام من العاملين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان ينهى الخليفة عن بعض الأفعال، ويدعو الناس إلى الصراط المستقيم، وكان يرفع مطالبهم إلى الخليفة ويتابع شكاواهم ومشاكلهم. وقد تمت حجة الإمام علي عليه السلام على معاوية وعلى طلحة والزبير أيضاً، ولم يعد يستطيع الجلوس في المدينة المنورة وهو يشهد ارتفاع قوة المعارضين حتى يصلوا إليه ويستولوا على المدينة. لم يكن معاوية بن أبي سفيان صادقاً في ادعاء المطالبة بدم عثمان، والشاهد على ذلك أنه تناسى المطالبة بالقصاص والثأر لعثمان بعد توقيع وثيقة الصلح مع الإمام الحسن بن علي عليه السلام.

وكان يجب على عائشة أن تقر في بيتها طبقاً لصريح حكم الله في القرآن الكريم، وإذا كان هناك من حاجة إلى تدخلها كان بمقدورها أن تقوم بتكليفها في ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي حتى إذا لم يتابع الإمام علي عليه السلام لم يكن الإمام يعاملها بغير التقدير والاحترام. والشاهد على هذا الأمر معاملته الحسنة لها

بعد حرب الجمل. في ظلّ هذه الظروف خرج الإمام علي عليه السلام من المدينة المنوّرة - رغم اعتراض بعض الأشخاص - نحو البصرة، وأرسل جماعةً إلى الكوفة لدعوة أهلها إلى اللحاق به في البصرة. لقد التفت طه حسين في تحليل هذه الواقعة إلى هذه النقطة، وهي أنّ الناس في تلك الحقبة الزمنية لم يكونوا ليفكروا مثلنا، وإلاّ لكان عليهم الالتحاق بالإمام علي عليه السلام لكي يتنظم أمر المسلمين^١.

لقد اعتزل أبو موسى الأشعري الحرب بحجّة أنّ المعارضين للإمام علي عليه السلام كانوا من المسلمين، ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونهى أهل الكوفة عن نصره الإمام علي عليه السلام. وقد ذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ أبا موسى الأشعري كان قد بايع علياً، وأخذ البيعة له من أهل الكوفة، وعليه لم يكن يحقّ له أن يخالف الإمام علياً عليه السلام إلاّ إذا اعتزل عن ولاية الكوفة. وعندما وصل هذا الخبر إلى الإمام علي عليه السلام أرسل جماعةً إلى الكوفة لمعاتبته وعزله عن ولاية الكوفة، وتنصيب قرطبة بن كعب بدلاً منه، وأرسل مجموعةً أخرى لحثّ أهل الكوفة على مواجهة الضاعين من مكة إلى البصرة. وهكذا هبّ أهل الكوفة لنصرة إمامهم والتحقوا به^٢.

لقد كان عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين عليه السلام على البصرة، وقد بايعه الناس هناك. ولما وصل جيش مكّة إلى البصرة لم ينفع الحوار بين حاكم البصرة وبين طلحة والزبير. وبعد ذلك تحدّث عائشة إلى الناس وذكرت لهم الأسباب التي تدعو إلى ضرورة الأخذ بالثأر لعثمان. وارتفع النزاع بين الموافقين والمخالفين

١. م. ن، ٧.

٢. طه حسين، علي وبنوه، ٨.

وحدثت مناوشاتٌ بينهم وجرح بعض الناس، ثم توصلوا إلى قرار بشأن الكفِّ عن العراك وعقد هدنةً ريثما يصل الإمام علي عليه السلام. بيد أن بعض المخالفين هاجموا حاكم البصرة ليلاً، وعذبه كثيراً، واستولوا على بيت المال. ورفض أهل البصرة ذلك وخرجوا من البصرة بقصد القتال. وقد هاجمهم طلحة بن عبيد الله مع مجموعةٍ من المقاتلين وقتل الكثير منهم. وقد تألم الإمام علي وأصحابه عند سماع هذا الخبر، كما تألمت عائشة أيضاً وإن كانت تكتُم ذلك حتى سمعت نباح كلاب بالقرب من غدير يجتمع فيه الماء، فسألت عن اسم الموضع؛ ف قيل لها: إنه يُسمَّى الحوَّاب. وما أن سمعت ذلك الاسم حتى تذكرت حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تبناً فيه بهذه الحادثة، وقد ذكرها لبعض نساءه قائلاً: كأني بإحداكن تخرج في فتنَةٍ، ثم تنبَحها كلاب الحوَّاب. ولذلك فإنَّ عائشة بعد سماعها لنباح تلك الكلاب طلبت من الذين معها أن يرجعوا إلى مكة. بيد أن عبد الله بن الزبير جاء بخمسين شاهداً أقسموا لها أن ذلك الموضع لم يكن هو الحوَّاب. وقد وصل الإمام علي عليه السلام إلى البصرة وكانت منقسمةً على نفسها إلى حدِّ كبير.

لقد كان الإمام علي عليه السلام يعدُّ نفسه أنه الأحقُّ من غيره في الخلافة والحكم، ويرى أن هذا الحقُّ قد سلب منه طوال الفترة الماضية. كما أن الأصحاب وسائر الناس لم يبايعوه خوفاً أو قسراً. وحتى الذين لم يبايعوه لم يُجبروا على البيعة. وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ الإمام علي عليه السلام لم يتردد في أمره، حتى استولى عليه الحزن وقال: لو آتني كنت أعلم أن الأمر سوف يصل إلى ما وصل إليه لما قبلت الخلافة. وكأنَّه لم

يخطر على باله أبداً أن يصل الأمر بأشخاص مثل طلحة والزبير وعائشة إلى مثل هذا الدرك ويحدث شقاق بين المسلمين على أيديهم. كما لم يكن أنصاره حتى ما قبل اعتزال أبي موسى الأشعري يترددون في ذلك. بيد أنهم في الطريق إلى البصرة كانوا يناقشون الإمام علي عليه السلام ويسألونه عن حجته في الذهاب إلى البصرة، وكيف سيكون مصير الذين يسقطون قتلى في هذه الحرب. بيد أن الإمام علي عليه السلام وأصحابه كانوا يسعون إلى الصلح والسلم، ولكنهم يستعدون إلى الحرب، وكان عديد جيشه في ازدياد مطرد. إلا أن هل البصرة كانوا في شك من أمرهم وقد اختلفوا فيما بينهم، وآثر بعضهم الاعتزال، وبعضهم الآخر التحق بالإمام علي عليه السلام، ثم تراجع عدد المخالفين شيئاً فشيئاً.

وقبل أن يدخل الإمام علي عليه السلام إلى البصرة، أرسل شخصاً مندوباً عنه ليحاور عائشة وطلحة والزبير. وهناك كثير من التقارير المأثورة عن هذه الواقعة، وقد عدت شخصية عبد الله بن سبأ شخصيةً شيطانيةً تعمل على تأجيج نار الحرب. بيد أن طه حسين لا يرضي هذه التقارير التاريخية.

لقد تعرّض طه حسين في تحليل المواجهة بين جيش المدينة المنورة وجيش مكة، إلى بحث الحوار الذي دار بين أفراد من أمثال كعب بن نور والآخرين من جهة، وبين الإمام علي عليه السلام وطلحة والزبير من جهة أخرى، وأخذ يشرح مقاصد ونوايا كل واحدٍ منهم. وقد سعى من خلال تفسير هذه الحوارات إلى تحقيق غايتين، إحداهما

١. م. ن، ١٠.

٢. م. ن، ١١.

أنَّ الإمام علي عليه السلام من الناحية الشرعية قد أتمَّ الحجة على طلحة والزبير والآخرين، والأمر الآخر أنَّ جماعةً من جيش مَكَّة اعتزلت القتال بتأثيرٍ من هذا الحوار، بينما استولى الشكُّ على جماعةٍ أخرى منهم، وبذلك أصبح الطريق لاحقاً أمام حسم نتيجة المعركة لصالح الإمام علي عليه السلام. وقد اعتزل الزبير بن العوام ساحة المعركة ليقتل لاحقاً. وتعرَّض طلحة بن عبيد الله لجرحٍ ثم قتل، وقال مروان - الذي يروى أنَّه هو الذي أجهز على طلحة بن عبيد الله - إنَّه قد أخذ بالثأر لعثمان بن عفان. ولكن حيث أوشكت الحرب تلقي أوزارها لصالح جيش المدينة المنورة، صعدت عائشة على ظهر الجمل، واقتحمت ساحة المعركة، وأخذت تشحذ من همم الناس وتحرضهم على مواصلة القتال وتنفخ في نار الحرب^١. فاستعاد جيش مكة شيئاً من معنوياته المفقودة ونزلوا إلى الميدان حتى قُتل كثيرٌ منهم، وهم يحيطون بالجمل، فأوعز الإمام علي عليه السلام إلى بعض أصحابه بأن يعقر الجمل الذي تعتليه عائشة؛ فكان ذلك وما أن برك الجمل على جرائه حتى تفرَّق الجيش الذي كان يحيط به^٢.

وهكذا قام العرب في ظرف يومٍ واحدٍ بقتل الآلاف من بني جلدتهم خلال معركة جنونية، ولم يجل الظلام حتى عمَّ الجميع حزنٌ عميق. وأخذ الرواة ينسجون القصص، والشعراء ينظمون القصائد في وقائع وأحداث هذه المعركة^٣. وقد شدَّد الإمام علي عليه السلام على أصحابه بأن يحسنوا إلى أهل البصرة والجرحى منهم في معركة الجمل، ومنعهم من إلحاق الأذى بهم أو التناول على بيت المال.

١. م. ن، ١٢.

٢. طه حسين، علي وبنوه، ١٣.

٣. م. ن، ١٤.

وقام بتقسيم بيت المال بين الغالبيين والمغلوبين بالسوية. ومكث قليلاً في البصرة لتنظيم الأمور فيها، لينتقل بعد ذلك إلى إخماد فتنة الشام. وأعاد عائشة إلى المدينة المنورة معززة مكرّمة^١.

هناك نقطتان مهمتان في تحليل القتال بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان؛ النقطة الأولى: أنّ جيش الإمام علي عليه السلام كان قد ناله التعب بعد حرب الجمل والقتال ضدّ أهل مكة، وكان يعاني من الجراحات، كما كان الناس غاضبين على الإمام علي عليه السلام. وأمّا جيش معاوية في المقابل فقد كان على أهبة الاستعداد وبكامل الحيوية والنشاط، وكان الناس في رضی تامٍ عن معاوية بن أبي سفيان. إذ كان معاوية قد حثّ الناس على المطالبة بدم عثمان إلى الحدّ الذي غلت معه الدماء في شرايين جند معاوية متعطشين لأخذ الثأر. والنقطة الثانية: أنّ معاوية كان داهيةً ومحتالاً، وقد اجتذب كثيراً من أهل الدنيا من خلال الإغداق عليهم بالأموال الطائلة، بينما كان الإمام علي عليه السلام من أهل الدين والورع وإيثار العدل، وتوزيع بيت المال على المسلمين بالسوية؛ ولذلك لم يبق حول الإمام علي عليه السلام سوى الأتقياء والصالحين^٢. لقد استنتج طه حسين — من خلال تحليله للرسائل المتبادلة بين معاوية بن أبي سفيان وأمير المؤمنين عليه السلام، التي كانت من وجهة نظره شديدة اللحن — أنّ الإمام علي عليه السلام لم يكن بالشخص الذي يمكنه أن يبقى معاوية والياً على الشام. كما أنّ معاوية بن أبي سفيان لم يكن بالشخص الذي يمكن له أن يقدم البيعة وفروض

١. م. ن، ١٥.

٢. م. ن، ١٦.

الفصل الرابع: فكر طه حسين ❖ ٢٠١

الطاعة إلى الإمام علي عليه السلام، ويسلم له مقاليد الحكم في الشام. وعليه فإن وقوع الحرب بينهما كان أمرًا محسومًا. وعلى هذا الأساس كان معاوية بن أبي سفيان يهدف من وراء كتابة الرسائل إلى الإمام علي عليه السلام إلى اجتذاب عددٍ من الذين كانوا قد حزنوا على مقتل عثمان، وكانوا يشعرون بالذنب تجاه عدم الاقتصاص من قتلة عثمان، ولم يكونوا سعداء باندلاع الحرب الوشيكة. إن أهل الشام لم يكونوا يرون وجوب إطاعة الإمام علي؛ إذ كانوا يعتقدون أنه لم يحصل على البيعة جميع الناس عن رضا. وأمّا أهل العراق فكانوا يرون أن جميع الناس قد بايعوا الإمام علي عليه السلام، ولم يتمرّد على البيعة سوى أهل الشام، وعليه يكون قتالهم واجبًا.

وعلى هذه الشاكلة فقد استعدّ الإمام علي عليه السلام للقتال، بيد أن معاوية بن أبي سفيان قد وصل قبله إلى الماء وبسط سيطرته عليه، ومنع جيش الإمام علي من الحصول على شيء من هذا الماء حتى يموت عطشًا، وقد احتج لذلك بأنهم قد منعوا الماء على عثمان بن عفان، وقد حان الآن وقت الانتقام. ولكن الإمام علي عليه السلام تمكّن من انتزاع الماء منه بالقوة. ويصرّ طه حسين على إظهار عدم رغبة الإمام علي عليه السلام في البدء بالقتال. ولكنّه اضطرّ إلى تنظيم صفوف جيشه لاحقًا، وأخذت الحروب والمناوشات المتقطعة تنشب من حينٍ لآخر حتى حلّ شهر المحرم، واتفق الجيشان على إيقاف القتال^٢.

وبعد انتهاء شهر المحرم وتبادل اللقاءات والتفاوض والكثير من الحوارات

١. م. ن، ١٨.

٢. م. ن، ١٩.

العقيمة، رأى الإمام علي أن المراوحة لا تنطوي على مصلحة، وأخذ يعيد تنظيم جيشه. وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان واحتدمت معركة قاسية بين الطرفين إلى الحد الذي لم يتوقف معه القتال حتى بعد حلول الليل. وحيث رأى معاوية أن جيشه يوشك على الانهيار، بل وقد أوشك على الهروب، حتى أنقذ عمرو بن العاص الموقف من خلال اللجوء إلى حيلة رفع المصاحف فوق الرماح، وتمكن بذلك من إثارة الاختلاف في صفوف جيش الإمام علي عليه السلام حول الاستمرار في القتال، ونتيجة لذلك فقد أجبر الإمام علي على إيقاف القتال، والرضوخ لإملاء غالبية جيشه بقبول مقترح التحكيم وانتداب شخصين يمثل كل واحدٍ منهما أحد الجانبين المتصارعين، والقبول بما يتوصل إليه هذا الحكمان في ضوء القرآن الكريم^١. لقد قُتل كثيرٌ من الرجال في هذه الحرب من الطرفين، ولكن دور عمّار بن ياسر كان مختلفاً عن الآخرين. فعندما قُتل عمّار حصل تردد في جيش معاوية بن أبي سفيان؛ وذلك لاعتقادهم أن قاتله على باطل، بيد أن عمّار قال لهم: إن قاتله هو الذي أخرجه للقتال. ولكن طه حسين لا يرتضي هذا الادعاء؛ وذلك لأن الإمام علي من وجهة نظره لم يكن قد أجبر عمّار بن ياسر على الخروج للقتال معه.

يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأن خديعة عمرو بن العاص في رفع القرآن فوق الرماح، كانت تقليدًا لما قام به الإمام علي عليه السلام في واقعة الجمل؛ حيث أرسل شخصًا يرفع القرآن بيده بين الصفيين ولكن الجيش القادم من مكة أراده قتيلاً. إن جيش الشام — من وجهة نظره — إذا كان صادقاً في رفع المصاحف، كان عليه أن يقوم

الفصل الرابع: فكر طه حسين ❖ ٢٠٣

بذلك قبل اندلاع الحرب، لا أن يلجأ إلى هذه الحيلة بعد أن أوشك على الانهيار. ثم انتقل طه حسين إلى تقييم تركيبة جيش الإمام علي عليه السلام، وتوصل إلى نتيجة مفادها أن أفراد هذا الجيش لم يكونوا بأجمعهم من المؤمنين والمخلصين للإمام علي عليه السلام. كما أن أهل البصرة والعثمانيين الذين لم يكونوا يرضون بالحرب ولا يؤمنون بالإمام علي عليه السلام، كانوا متواجدين في جيشه بكثرة.

وقد كان الأشعث بن قيس الكندي - الذي ارتد بعد وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ثم تاب، وأصهر إلى أبي بكر - والياً لعثمان على كور في إيران، ثم قام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بعزله من هذا المنصب. وكان في جيش علي، وهو الذي كان يُصّر على أمير المؤمنين عليه السلام أكثر من الآخرين على التحكيم. وقد احتمل طه حسين أن يكون هناك لقاءً سرياً أثناء حرب صفين قد جمع بين الأشعث بن قيس وعمر بن العاص، وأتتفا على إجراء احترازي بعد وقف الحرب، واتفقا على اللجوء إلى خيار التحكيم إذا أوشك جيش الشام على خسارة نتيجة الحرب. بل وقد يكون الاتفاق بينهما قد ذهب إلى أبعد من ذلك؛ حيث كان للأشعث بن قيس وأتباعه من اليمن دورٌ كبيرٌ في فرض أبي موسى الأشعري على الإمام علي عليه السلام؛ ليكون هو الحكم من طرف جيش الإمام علي عليه السلام، وبذلك تم إجبار الإمام علي عليه السلام على القبول بالتحكيم^١.

إن الرجلين اللذين تم اختيارهما بوصفهما حكيمين، قد عملا على تدوين نصٍّ تحدّث فيه عن كلّ شيءٍ باستثناء ذلك الشيء الذي اندلع القتال بسببه. وفي الرسالة

١. طه حسين، علي وبنوه، ٢٢.

تمّ تحديد زمان ومكان آخر لاتخاذ القرار النهائي من قبل الحكمين، وكان هناك غموض في هذا الشأن، وقد عبّر طه حسين عن تعجّبه من إظهار الطرفين سعادتهما دون الالتفات إلى مواطن الغموض في هذا النص وإهمال أصل المسألة. إلا إذا قلنا بأنهم كانوا قد سئموا من الحرب وأرادوا إنهاءها بشتّى الطرق. يذهب طه حسين — في الحكم بين الموافقين والمخالفين للتحكيم — إلى القول بأنّ الحقّ كان مع المخالفين، معتقداً أنّ معاوية بن أبي سفيان قد مارس الخديعة والاحتيال، وأنّ الأغلبية في جيش الإمام علي عليه السلام قد انطلت عليهم هذه الحيلة، وأشكل على جيش الإمام علي عليه السلام بسبب إصرارهم على رأيهم، وعدم فسح المجال للإمام علي عليه السلام الذي كان أعلم منهم بالقرآن ويدرك مصلحة المسلمين أكثر من سواه. وقد انتهت حرب صفين بخسائر أكبر من حرب البصرة، وعاد الكوفيون إلى الكوفة بحالة أسوأ من حالهم التي كانوا عليها عند عودتهم من حرب الجمل^١.

عند العودة من صفين انفصل عددٌ كبيرٌ من جيش الإمام علي عليه السلام عن المعسكر وخيموا خارج الكوفة. وقد قام علي عليه السلام وأنصاره بمحاورة هؤلاء — الذين عُرفوا لاحقاً بالخوارج — كثيراً، وأعادوا كثيراً منهم إلى الكوفة، بيد أنّ بعضهم كان يصرّ على العودة لمقاتلة معاوية بن أبي سفيان، وقالوا بأنّ الإمام علي عليه السلام لم يكن عليه القبول بالتحكيم الذي فرضوه عليه بأنفسهم^٢.

١. م. ن، ٢٣.

٢. م. ن، ٢٥.

توريث الحكم

يرى طه حسين أن تنصيب معاوية بن أبي سفيان لنجله يزيد ولياً للعهد، كان سلوكاً مخالفاً لسيرة جميع الخلفاء السابقين. لا سيّما أن يزيد كان من أصحاب اللهو والطرب واللعب. وقد أخذ معاوية هذا القرار من دون أن يستشير أصحاب الرأي والعقل، وأجبر الناس على مبايعة يزيد بوصفه ولياً للعهد، وكان هذا الأمر يحدث للمرّة الأولى من خلال توريث الحكم بالإكراه والترهيب. وقد ترتبت كثيرٌ من التداعيات المشؤومة على هذه البدعة، فما أكثر المحرّمات التي انتهكت، وما أكثر الدماء التي أريقَت بغير وجه حقّ، وأبناء الملوك الذين اقتتلوا فيما بينهم من أجل الوصول إلى السلطة^١.

وقد سعى طه حسين - من خلال نظرة اجتماعيةٍ يراعي فيها الحياد العلمي - إلى التعرّف على خلفيات تحوّل الخلافة إلى مُلكٍ عضوض في عصر معاوية بن أبي سفيان. وهو يرى أنّ الفتوح الإسلامية الجديدة والتعرّف على الثقافات يؤدّي بالضرورة إلى إقامة علاقاتٍ ثقافيةٍ، وانتشار سننٍ وتقاليد جديدة، وكانت نتيجة ذلك عبارة عن الظهور الطبيعي لنوع من الحكم، لا هو بالإسلامي العربي الخالص، ولا هو بالإيراني الرومي الخالص، بل هو مزيجٌ من كلا النوعين. وكان هذا هو النهج الذي سلكه معاوية بن أبي سفيان في الحكم. وعلى الرغم من الاختلافات الكبيرة بين معاوية والخلفاء السابقين، وصلت الأمور بعد تربّع يزيد على سدة الحكم والسلطة، حتى تمنى الناس لو حكم لو حكم معاوية إلى الأبد، ولم يصل الأمر إلى يزيد^٢.

١. م. ن، ٥٢.

٢. م. ن، ٥٣.

خلاصة ونقد

لقد ذكر كثير من الانتقادات التي ورد ذكرها في التفسير الاجتماعي للثورة من وجهة نظر طه حسين في ضوء الأبحاث أعلاه. وسوف نشير فيما يلي إلى عددٍ من الانتقادات الأخرى. وهو يقول بأنّ جميع هذه الأحداث تعدّ من تداعيات الثورة على عثمان، ويذهب إلى الاعتقاد بأنّ الفتنة التي وقعت في عام ٣٥ للهجرة بمقتل عثمان بن عفان، قد أدّت بعد ثلاثين سنة إلى وقوع فاجعة كربلاء، ومقتل الإمام الحسين بن علي عليه السلام، والمهجوم على المدينة المنورة في واقعة الحرّة، ومكّة المكرمة وضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق. وبعد ذلك تمت إراقة كثيرٍ من الدماء، وما أكثر العناء الذي كابده المسلمون من أجل الحصول على العدالة التي وعد بها الإسلام. وأخذ الشيعة ينتظرون ظهور الإمام الغائب الذي سيظهر في يوم ما ويملا الأرض قسطاً وعدلاً. لقد ذهب بعض المحقّقين إلى الاعتقاد بأنّ طه حسين قد سعى في هذا البيان إلى توضيح الفتنة الكبرى من خلال طرح الشبهات، وعرض الحقائق بشكلٍ خاطئ، وتوظيف الروايات المختلفة. وأن يثير الشكّ في نداء العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. وقد عمد في هذا الكتاب إلى الانتقاص من كبار أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من نسبة الكذب والافتراء إليهم، وإظهار الدولة الإسلامية بأنّها غير كفوءة^٢.

نادراً ما يذكر طه حسين في أعماله التاريخية مصدرًا لأفكاره، وي طرح مدّعياته

١. م. ن، ٥٨.

٢. الجندي، محاكمة فكر طه حسين، ٢٢٢.

التاريخية دون إحالاتٍ إلى مواطنها^١. وقد تحدّث في كلِّ من كتابيه (الفتنة الكبرى)، و(علي وبنوه) بعض الأحداث التاريخية، ويشير تارةً إلى رواياتٍ متعددةٍ حول حادثة ما ويبيد رأيه فيها وترجيح بعضها على بعض. ولكنّه لا يذكر أيّ مصدرٍ من بين المصادر التاريخية. ويبدو أنّ مصادره في هذا الشأن عبارةٌ عن التلفيق بين مصادر من قبيل البلاذري وما علق في ذهنه من الحكايات والقصص التي سمعها في طفولته.

خاتمة ونتائج

لقد أفنى طه حسين - المؤرّخ والأديب والناقد المصري المعاصر - عمره في النشاط العلمي، وقد ترك وراءه كثيرًا من الأعمال والمؤلّفات. إنّ الاشتغال في الكتابة منذ بداية الشباب إلى آخر العمر، ومستواه العلمي ونضجه الفكري، قد أضفى تنوعًا على أعماله ومؤلفاته. ومن ناحيةٍ أخرى فإنّ دراساته الفلسفية والكلامية كانت تفتقر إلى العمق، وقد أدّت هذه المسألة إلى ضعف مبانيه المعرفية ونقصها بالإضافة إلى وقوع التناقض في تحليلاته. ومن ناحيةٍ ثالثة كان طه حسين من أوائل المفكرين الذين تعاملوا مع الحداثة، ودرسوا في الغرب، ولا يتوقع منهم أن يحصلوا على إدراكٍ وفهمٍ معرفيٍّ عميقٍ لحضارة الغرب. إنّ الالتفات إلى هذه المسائل يحدّد مستوى توقعنا، ويوفر الأرضية لإمكان النقد المنصف.

كما يمكن ملاحظة الفصل بين العلم والدين، وإنكار الأبحاث التاريخية والوحيانية، والقول بالتأثير المتبادل بين المجتمع والتفكير، والنزعة الشكّية

الصورية، والنزوع نحو الظاهرية، والسعي إلى رعاية الحياد العلمي، واتخاذ الاتجاه الاجتماعي، في حقل مبانيه المعرفية أيضًا.

كما يمكن الإشارة من بين الخلفيات الفردية إلى مجالسته لمختلف الأفراد، وحضور شيوخ الطريقة في محلّ سكناه، ودراسته في الأزهر الشريف، والدراسة في الجامعة، والدراسة في فرنسا، وقراءاته الكثيرة، وإصابته بالعمى، ومعاناته من العقد المكبوتة، والتصعيد الناشئ عن مزاجه النقدي، الذي أدّى إلى تأليف كثير من الأعمال النقدية في مختلف المجالات ولا سيّما في الحقلين الأدبي والاجتماعي.

كما لا يمكن تجاهل تأثير بعض العلماء من أمثال: أبي العلاء المعري، وماسينيون، ورينيه ديكارت، وإميل دوركهايم على أفكاره. وقد كانت نزعة الشكّ الصوري لديه بتأثير من ديكارت، وقد ورث نقد التراث والتعاليم الدينية من المعري إلى حدّ كبير، كما أخذ الاتجاه الاجتماعي ومسائل التراث والأفكار من دوركهايم وماسينيون.

إنّ العقلانية المفرطة في مصر بفعل تأثير الثقافة الغربية، والفضاء التعليمي للأزهر بوصفه معقلًا تقليديًا بالإضافة إلى الاتجاهات الظاهرية وتجربة المفاصد الأخلاقية للأساتذة وطلاب الأزهر، هي التي تشكّل الخلفيات الاجتماعية لتفكير طه حسين. وإنّ الحكومات المستبدّة، وانهيار الإمبراطورية العثمانية، وحضور نابليون بونابرت في مصر، واستعمار مصر من قبل فرنسا وبريطانيا، وحضور مختلف التيارات السياسية، والحرب العالمية، والثورة المصرية، وتأميم قناة السويس، تشكّل الأراضيات السياسية لتفكيره. ومن الناحية الاقتصادية يجب أخذ الفقر النسبي والمشاكل الاقتصادية المستمرة إلى أواخر حياة طه حسين بنظر الاعتبار أيضًا، وإن

كانت جدية طه حسين ومقاومته في مواجهة المشكلات الاقتصادية قد أزالَت هذه التأثيرات السلبية إلى حدٍّ كبير.

طرق الحلّ للخلاص من التخلف

لقد صنّف طه حسين أسباب التخلف المادي ضمن محورين مهمّين وأساسيين، وهما: النظام السياسي، والنظام التعليمي. وأمّا في تحليل الأسباب السياسية فيعمل على تظهير الأبحاث الاجتماعية والثقافية، وعلى هذا الأساس فإنّ العامل الأهمّ في العالم الإسلام هو العامل الثقافي؛ ولهذا السبب يجب البحث عن طرق الحلّ في القيام بالإصلاحات الثقافية.

إنّ طريق الخلاص للمسلمين — من وجهة نظر طه حسين — في البداية عبارة عن استذكار تراثهم القديم والعمل على معرفته. المرحلة التالية هي الحصول على العلم الجديد، والقدرة على الاستفادة منه دون الحاجة والتبعية إلى أصحاب العلوم والفنون الجديدة. إنّ هذه هي ذات التجربة التي أدّت — من وجهة نظره — إلى تقدّم المسلمين في القرون الأولى. وعليه فإنّ التوجّه العام له هو ضرورة أن يتعرّف المسلمون على تراثهم وأن يحافظوا عليه، وأن يعملوا على فهم الثقافات الأجنبية، ومناعتها مع شرائطهم وظروفهم^١. وهو في تحقيق هذه الغاية يضع القبول بنموذج التقدّم الغربي، وتحقّق الوطنية والاتّحاد والانسجام الوطني بمحورية القرآن الكريم والقانون على جدول أعماله.

١. طه حسين، مرآة الإسلام، ٣١٩.

عصر نهضة (اختراب) مصر

يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ الحداثة قد تحقّقت في هذا العصر وقد استوعبت العالم بأسره. إنّ صلة مصر بأوروبا بدورها قد أدّت إلى الصحوة وعصر النهضة في مصر، فإنّ مصر في طريقها إلى خوض عصر النهضة سواء أراد الناس ذلك أم رفضوا، وسوف يؤدّي ذلك إلى صحوة سائر البلدان الأخرى أيضًا. يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ الطبقة المصرية المرفّهة تعيش كما يعيش الأوروبيون، وأنّ الأهداف والأدوات والظواهر الحضارية للمصريين تشبه الأوروبيين سواء علموا بذلك أم لم يعلموا، وهم مغتبطون بذلك وليس هناك ما يمنع هذا المسار.

إنّ حياتنا الأخلاقية، ونظامنا السياسي، بل حتى استبدادنا السياسي أو حكوماتنا الدستورية التي لا تشرك الناس في السلطة، قد تمّ اقتباسها من أوروبا. وقد أخذنا قوانيننا المدنية، ونظامنا الإداري والمالي والاقتصادي من أوروبا. وإن مجلس المراقبين ومجلس الوزراء ونظامنا القضائي أوروبي. وحتى أوقافنا الموروثة من الماضي تطالب بتغييراتٍ تتناسب مع الحاجات المعاصرة. وحتى الأزهر يواجه أزمة متواصلة ويسعى حثيثاً إلى التناغم والتماهي مع الحداثة. إنّ جميع هذه الأمور تحكي عن أنّ طه حسين يصبو إلى أن نسعى نحو التشبّه مهما أمكن بالغرب في اللغة والمعنى والحقيقة والشكل، حتى نصبح جزءاً منه. لو أنّ واعظاً ظهر في هذه الظروف وأوصى ودعا إلى العودة إلى الماضي، فإنّه سوف يكون عرضةً للسخرية. ليس توقيع معاهدة الاستقلال، ومعاهدة إلغاء الامتيازات، شيئاً آخر غير القبول بالقوانين التي تحظى بتأييد من قبل الأوروبيين. وقد أخذ نظامنا التعليمي من

أوروبا، وبوساطته نعمل على أوربة أذهان أبنائنا. إنّ هذا المسار الذي سلكته أوروبا عبر عقود من الزمن، يمكن لنا أن نسلكه في مدّة زمنية أقل^١.

إنّ أوروبا — من وجهة نظر طه حسين — تمثّل تجسيداً للحضارة البشرية والقيّم الإنسانية وأسس الديمقراطية. وقد ذهب إلى الاعتقاد بأنّ الغرب قد تمكّن من أن يكون في طليعة قافلة السعادة البشرية، حيث يكون ذلك رهناً بالعقلانية والروح العلمية الحاكمة على هذه الحضارة. إنّ الحضارة الجديدة تعني الغرب، والغرب يعني العالم الجديد الذي يجب على مصر أن تكون جزءاً منه. إنّ طه حسين يعارض جميع أنواع الغيرية في قبال الحضارة الغربية، وكان يرى أنّ أيّ سعي يؤدّي إلى تبلور حضارةٍ مصريةٍ في قبال الحضارة الغربية، هو سعي محكومٌ عليه بالفشل، وكان يذهب إلى الاعتقاد بأنّ الطريق الوحيد للنجاح هو أن تنخرط مصر في مدار الحضارة والعالم الجديد بشكلٍ كامل.

يرى طه حسين أنّ الأشخاص الذين ينكرون التواصل مع أوروبا على طائفتين؛ الطائفة التي تعمل على إثارة المخاوف نفاقاً، وليس هناك طريقٌ للحوار مع هذه الطائفة. وأمّا الطائفة الأخرى فهي الطائفة الصادقة في قلقها على تدين الناس. وجوابنا هؤلاء هو أنّه ليس كلّ أوروبا رجساً؛ وذلك لأنّ الرجس لن يؤدّي إلى التقدّم. وبمقدورنا أن نأخذ الجانب الخيّر والحسن منهم ونذر الشرّ والقيح في ثقافتهم.

نحن لا نريد اعتناق المسيحية، ولكن علينا أن ندرك بأننا لا نستطيع مواصلة العيش دون الارتباط بالآخرين. هناك كثيرٌ من الفرق والمذاهب الدينية في أوروبا

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٣٣-٣٧.

بالإضافة إلى الملحدّين، بيد أنّ العقل الأوروبي السليم قد وصل إلى نتيجة مفادها عدم التضادّ بين الدين والحضارة. إنّ جذور التضاد بين رجال الدين وأصحاب النزعة العقلية يكمن في أنّ رجال الدين المسيحيين كانوا يرون سلطتهم تتعرّض للخطر، وكانوا لذلك مضطرين إلى معارضة الحضارة من أجل الحفاظ على سلطتهم.

وأما رجال الدين في الإسلام فليسوا طبقةً مستقلةً عن الناس، وهم لا يلعبون دور الوسيط بين الله وعباده، وعليه لا توجد أرضية لهذا الاختلاف في الدين الإسلامي. إنّ الحضارة الإسلامية في عصر بني أمية وبني العباس كانت مقتبسةً من إيران والروم والمسيحية. وكانت الحضارة الإسلامية مزيجًا من الخير والشرّ، ولكن لم يكن هناك أيّ شخصٍ يبدو عليه الخجل من ذلك، ولم يفت أحدٌ من الفقهاء بنفي وإلغاء هذه الظاهرة. وهكذا هو الحال بالنسبة إلى الحضارة الأوروبية أيضًا.

إنّ الذين يقبلون بهذه الحضارة على وجل، يجب عليهم القبول بها عن طيب خاطر؛ وذلك لأنّنا منغمسون في الحضارة الغربية، وندفع بشبابنا نحو هذه الحضارة، وحتى الذين يعارضون الاختلاط بين الجنسين والذين يخالفون السفور يرسلون فتياتهم في الوقت نفسه إلى المدارس الأجنبية حيث تنتشر فيها الأزياء والموديلات المتعارضة مع الحجاب. وأنا لا أمتلك توصية عملية، وذلك لأنّنا مضينا قدمًا على المستوى العملي. وحتى أساتذة الأزهر يذهبون إلى أوروبا للحصول على العلوم والفنون هناك، وكلّ الذي أدعو له هو البحث عن الطمأنينة والسكينة النفسية والذهنية.

وأن نكون صادقين مع أنفسنا، وأن نغادر مربّع النفاق، وأن نستقبل هذه الحضارة بأحضان مفتوحة^١.

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٤٧ - ٥١.

إنَّ مصر من وجهة نظر طه حسين — بالمقارنة مع بلدان مثل اليابان التي كانت تختلف اختلافاً جوهرياً مع أوروبا في الحياة والتفكير، إلّا أنّها وجدت طريق تكاملها في التشبّه بأوروبا، وقد ذهبت في ذلك إلى حدّ التنافس مع أوروبا وحظيت بإشادة الأوروبين — تستحقّ الذم؛ وذلك لأنّ مصر كانت تشبه أوروبا في كلّ شيء. هناك تفكيرٌ خاطئٌ يسود مصر وهو أنّ الله قد خلق المصريين على هذه الشاكلة، وأنّ الله قد خلق صنفاً من الناس ليكونوا هم الحكام، وخلق صنفاً آخر من الناس ليكونوا محكومين. ولكن من خلال نظرةٍ نلقيها على اليابانيين سوف ندرك أنّ إمكان التفكير والسعي والتقدّم موجودٌ لدى جميع الناس، ونحن لا نختلف عن الأوروبين في شيء، وإنّ تخلفنا وطمع أوروبا في خيراتنا قابل للتغيير. وعلينا أن نلقي هذه الأفكار جانباً. وحيث نكون حالياً في حالة إصلاح، ونضع القوانين والتشريعات، ونؤسس المدارس، وننشر العلم، ونقيم نظاماً اقتصادياً، ونستعير الديمقراطية من أوروبا، يجب علينا أن نقبل بعدم الاختلاف عن الأوروبين، وأن نسعى إلى الحصول على نصيبنا من السعادة^١.

لقد دأب طه حسين في أعماله المتعدّدة على تكرار هذه المسألة، وهي أنّ طريق التقدّم يكمن في التبعية للغرب، وأن نعدّ أنفسنا شركاء للحضارة الأوروبية في خيرها وشرّها وفي حلّوها ومرّها. إنّه لمن الأمور التي تدعو إلى العجب أن نقلد الأوروبين على المستوى العملي ونطلق ألسنتنا في نقد طريقة حياتهم. إنّ هذا النفاق مرفوض. فإذا كنّا نؤمن بضرورة تأسيس قوّة للدفاع الوطني، فيجب أن نبني جيشاً

مشابهًا للجيوش الأوروبية، وأن نعمل على توظيف شبابنا في هذا الاتجاه. وعلينا أن نستثمر وننفق الأموال مثل الأوروبيين من أجل الحفاظ على استقلالنا وعلى مصالحنا الوطنية.

على الرغم من أن إمكانات الدولة ليست كافيةً لتغطية هذه الأمور. وعليه فإنّ القيام بهذا الأمر يحتاج إلى الحصول على الاستقلال الاقتصادي. بيد أن نظامنا الاقتصادي يجب أن يكون مشابهًا للنظام الاقتصادي في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية من طريق تأسيس المدارس وإعداد الطاقات، لا أن نبنى استقلالًا اقتصاديًا شبيهًا بالاستقلال الاقتصادي في الحجاز واليمن والشام والعراق، وكذلك نحتاج إلى الاستقلال العلمي والفني والأدبي، لكي يتمكن شبابنا من الحفاظ على أوطانهم، وفي هذه الصورة فقط نستطيع التكلم مع الأوروبيين، وأن نثبت لهم أننا نفهم ونرى العالم كما يرونه ويفهمونه، ونريد أن نكون شركاء معهم في هذا الأمر وليس مجرد خدم لهم. كما أننا بحاجة إلى الحرية الداخلية التي يتم ضمانه وتوفيرها بوساطة الديمقراطية، ونحتاج إلى الحرية الخارجية التي يتم الحصول عليها من طريق بناء القوة الدفاعية.

إنّ طريق الوصول إلى هذه الأمور هو الطريق ذاته الذي سلكه الأوروبيون والأمريكيون. وعليه فإننا إما نطلب التقدّم والعزّة والطريق إليها يمرّ عبر التبعية للغرب، وإما نطلب التخلف والهوان وطريقه هو التنكر لهذه التبعية. ومن الواضح بدهة أننا نختار سلوك الطريق الأول، وعليه فإننا نحافظ على استقلالنا وما توصلنا

إليه، وأن نتبع الطريق الوحيد المؤدّي إلى هذه الغاية، ونعني بذلك بناء منظومة التربية والتعليم على أساسٍ متينٍ ومحكم^١.

هناك من يذهب إلى الاعتقاد بأنّ علاقتنا بالغرب سوف تؤدّي إلى خلق أزمة الهوية المصرية وانحلالها في الثقافة الأوروبية. بيد أنّ مصر قد تعرّضت للغزو والاحتلال من قبل البلدان الأخرى مرارًا، وقد تم الاستيلاء عليها، ولكنّها لم تضمحل فيها. إنّ مصر التي تحمل هذا الإرث التاريخي والحضاري والقوة الكبيرة والناصعة، لن تضمحل في الثقافة الأوروبية، كما أنّ اليابان لم تضمحل على الرغم من أنّها لا تتمتع بهذه الجذور التاريخية^٢.

يذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنّ الحضارة الأوروبية غارقة في المادية ولا نصيب لها من المعنوية أبدًا، بحيث إنّ الغرب نفسه أخذ يضيق بها ذرعًا، وأعرض عنها كثيرًا من الفلاسفة والمفكرين. بيد أنّ طه حسين يعدّ هذا الكلام فارغًا. صحيح أنّ الحضارة الغربية تقوم على أساس المادية، بيد أنّ الغرب لم يكن خاليًا من المعنويات أبدًا، وإلاّ لما استطاع أن يحقق كلّ هذا التقدّم. إنّ دراسة تاريخ العلماء والفلاسفة والمخترعين يحكي عن امتلاكهم لكثير من المعنويات الكبيرة. إنّ الذين يظنون أنّ رينيه ديكارت وباستور كانا مفتقرين إلى المعنوية لا يقولون إلاّ شططًا. إنّ الذين يضحون بأنفسهم ويلقون بها في فلولات الخطر من أجل الوصول إلى ما وصلوا إليه من الاختراعات والاكتشافات. إنّ هذه المجموعة من العلماء والمفكرين تدعو

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٤٣-٤٦.

٢. م. ن، ٥٣-٥٤.

تباعاً إلى اعتناق المعنوية الشرقية، ولكنهم هل ينشدون حقاً الالتحاق بالصين والهند واليابان. وهل نحن نريد اعتناق الدين والحضارة الصينية؟ هذا ما لا يمكن القبول به، ولكنهم يثبّتون عزائم شبابنا ويعملون على إضعاف همهم^١.

لقد ذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ الإسلام قد تمكّن من الجمع بين الحضارة الإيرانية والرومية في رقعة الجغرافية وإضفاء صبغة إسلامية عليها؛ ولذلك يمكن لمصر حالياً أن تتقبل الحضارة الغربية بالكامل، دون أن تعتنق الدين الداخلي لهذه الحضارة متمثلاً بالمسيحية والتأثر بها. إنّ طه حسين ينظر إلى الدين بوصفه أمراً شخصياً ومحدوداً للغاية، ويطالب بالفصل بين الدين والدولة، ويدعو إلى عدم تدخل الدين في مجال التقنين والتشريع، وفي هذا الاتجاه يؤكّد على عناصر الهوية الثقافية والتاريخية للإسلام.

الإصلاحات الاجتماعية

إنّ من بين المسائل المهمّة لتحقيق التقدّم — من وجهة نظر طه حسين — عبارة عن تحديد الأهداف والتطلعات الاجتماعية. يرى طه حسين أنّ الحرية والاستقلال ليسا بهدف وغاية للمجتمع، بل هما وسيلتان لتحقيق غايات أهم. فما أكثر المجتمعات التي كانت تتمتع بالحرية والاستقلال، ولكن هذه الحرية وهذا الاستقلال لم يجدها نفعاً. إنّ الحضارة والسلطة والثروة تقوم على أساس العلم والثقافة^٢. وعلى هذا الأساس يجب العمل — من أجل الحصول على أهداف الحضارة — على إصلاح السلطة والثروة

١. م. ن، ٥٥، ٥٧.

٢. م. ن، ١٣.

والعلم والثقافة، ونسبة هذه الأمور إلى السياسة والاقتصاد وما إلى ذلك. لقد وضع طه حسين خطة متكاملة من أجل تحقيق التقدّم بوصفه غاية كبرى. والخطوة الأولى في هذا المسار عبارة عن معرفة ودراسة التاريخ والتعلّم من الماضي. إنّ على كلّ شخصٍ مصري أن يعلم أنّه كان في السابق غربياً، ولم يكن يتمّ تعريفه ضمن المنظومة المعرفية الشرقية أبداً. لقد كان الإعراب عن هذه الرؤية يعود إلى المرحلة التي تمّ القبول فيها بثنائية الشرق والغرب في تحليل تاريخ الحضارة. وإنّ كتاب الشرق والغرب لأحمد أمين — الذي صدر بعد عشر سنواتٍ من ذلك — يمثل شاهداً على هذا المدعى. يبدو الشرق في هذه الثنائية مظهرًا للأديان والمسائل الروحانية والمعنوية، ويبدو الغرب نموذجًا للعقلانية العلمية والآلية.

يذهب طه حسين إلى التأكيد كثيرًا على إصلاح النظام التعليمي، ولكنه يعتقد أنّ النظام التعليمي يجب أن يؤدّي إلى إنتاج وتربية المستنيرين. وهو يرى أنّ الاهتمام بالتعليم والتربية العامّة قائمٌ على نحوٍ جادٍّ، وعلى اليقين والإيمان، يمثل الخطوة الأولى من أجل إصلاح الوضع الراهن.

إنّ سرّ النجاح لا يكمن في المال والسلطة، بل يكمن في الإيمان. إنّ على المعلم والمشرف والوزير وجميع المخططين أن يؤمنوا بمسؤولياتهم ومهامهم. إنّ الإيمان وحده هو الذي يستوجب السعي والتضحية. وإنّ حبّ الوطن وترجيح كفته على المصالح الشخصية أمرٌ واجب، لكي ينحسر الجهل عن المجتمع، وأنّ يعمّ العلم وتسمو الثقافة. وإنّ على الدولة كما أخذت التجارة والزراعة والصناعة على نحوٍ جاد، أن تأخذ التعليم على نحوٍ جادٍّ أيضًا. يقال جهلاً: خرّجوا لنا المزارعين

والحرفيين والتجار؛ لأننا نحتاج إلى هؤلاء أكثر من حاجتنا إلى المتخَرِّجين من الجامعات. في حين أنَّ الأولوية هي لإعداد وتربية المتعلمين المستنيرين الذين يفهمون الحياة والاحتياجات وضرورات ذلك، ويعرفون الحلول التي يجب تقديمها في هذا الشأن. إنَّ الإيمان والاعتقاد الراسخ إنَّها يتحقَّق، حيث تزول مشاعر الكراهية تجاه الديمقراطية والمساواة والحرية^١.

يرى طه حسين أنَّ محتوى التعليم يجب أن يتناغم وينسجم مع الغاية من التعليم العام. وفيما يتعلَّق بالغاية والهدف تقدِّم أن ذكرنا أنَّ التعليم العام يجب أن يعمل - قبل كلِّ شيء - على إيجاد الأتِّحاد القائم على الاستقلال الخارجي والحرية الداخلية. إنَّ التعليم يجب أن يسلِّح الفرد بالقراءة والكتابة والحساب والجغرافيا والتاريخ واللغة، ليصبح قادرًا على الحياة ومواصلة العيش. إنَّ على جميع الناس أن يتعلَّموا هذه الأهداف، بيد أنَّ الأشخاص الذين يرتادون المدارس الحكومية يجب عليهم الذهاب إلى أبعد من ذلك. إنَّ التعليم الابتدائي يقف عند حدٍّ، وأمَّا التعليم العام فلا نهاية له. هناك مشتركات بين التعليم الابتدائي والعام، ولكن في هذه الموارد المشتركة يكون الهدف من التعليم الابتدائي عبارة عن رفع القدرة على الحياة ومواصلة العيش، وأمَّا الهدف من التعليم العام فهو إعداد الأرضية لتعميق المعرفة والارتقاء والتنمية. وعلى هذا الأساس ينبغي لحاظ هذه المشتركات ونقاط الاختلاف في عملية التخطيط. من ذلك - على سبيل المثال - لو أنَّ طالبًا قرَّر ترك الدراسة في التعليم العام، وينخرط في مجال العمل أو ينقل لتعلم حرفة ما، يجب

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ١٥٣ - ١٥٧.

أن يخطط كي لا تكون معلوماته في الحقل الجديد أقل من معلومات الطالب في المدارس الابتدائية. ولا بد من الالتفات إلى أن مجرد التقنين والتشريع في هذا المجال ليس كافيًا، ولا بد من وجود دورٍ رقابيٍّ يشرف على تطبيق ذلك أيضًا. كما يجب فصل تعلّم اللغات الأجنبية من التعليم العام. يجب على الأطفال منذ البداية أن يتعرفوا على ثقافتهم وتراثهم وأن يعيشوا هذا التراث وهذه الثقافة. كما يجب تقديم اللغة العربية على اللغة الأجنبية^١.

أخذ مفهوم الأمة يحظى بالاهتمام في مستهلّ القرن العشرين للميلاد. لقد كانت الأمة عبارةً عن مجموعة من المسلمين تؤمن بمعتقدٍ واحد. وكانت هناك جماعة من المسلمين يمثلهم تيار الخلافة. وبعد انهيار الدولة العثمانية، كان هناك من يُصرّ على إحياء الخلافة، وهناك من دعا إلى تجاوزها. بيد أن كلتا الجماعتين كانت بحاجة إلى دعامة نظرية والإعداد لمختلف المفاهيم. لقد كان العالم الحديث قد أفرز مفهوم الشعب والمواطنة، وإنّ هذه المفاهيم لم تكن قابلةً للفهم في العالم الإسلامي. لقد عمد طه حسين إلى إعادة صياغة مصطلح الأمة في اللغة العربية بشكلٍ آخر. ولم تكن الأمة بالنسبة إليه تعني شيئاً آخر غير مصرّ والانتفاء المصري والتعلق بالجغرافيا المصرية بغض النظر عن أيّ دينٍ أو مذهب. إنّ الأرض الموحّدة والولاء لها هو الملاك للمواطنة، ويكون جميع المواطنين متساوين فيما بينهم في الحقوق. وقد كان يطالب بالاتّحاد المصري لضمان عيشٍ مشتركٍ بين الأقباط والمسلمين. وقد كان الدين بدوره يعترف بذلك المقدار من هذا الاتّحاد في البعد الثقافي والنشاط الاجتماعي.

إنَّ طه حسين لا يقول بالاستقلال الثقافي، ويرى ضرورة أن يكون هناك تعاملٌ ثقافيٌّ بين الأمم. وعلى هذا الأساس يجب أن يرتقي التعليم في مصر إلى مستوى المشاركة بين الدولة والشعب، وأن يفتح هذا التعليم على المجتمعات الأخرى. وهو يرى أنَّ المشاركة السياسية والاقتصادية لمصر مع سائر البلدان تحظى بحالةٍ جيدةٍ نسبيًّا، ولكن ليس هذا هو الوضع بالنسبة إلى المشاركة الثقافية. إنَّ المشاركة الشعبية في هذا الأمر مهمَّة، ولكن يتعيَّن على الدولة أن تدعم المؤسسات والمراكز العلمية ماليًّا. إنَّ تشتت الأنظمة التعليمية ووجود المؤسسات العلمية والفنية المتنوعة في مصر، والفقر المنتشر بين طبقاتٍ من فئات الشعب، حيث يجب على الدول أن تعمل على تنظيم هذه الأمور^١.

كما يلتفت طه حسين إلى التناغم الاجتماعي أيضًا، وأمَّا فيما يتعلق بالمحور الذي يمكن له أن يؤسِّس لهذا التناغم في هذا المجتمع المتعدِّد الثقافات، فهو الذي جعل من نظريته متميِّزة من نظريات الآخرين. وهو يرى أنَّ العصبية القائمة على القرابة والعشيرة لا تحظى بتأييد الإسلام. وإنَّ الأشخاص الذين يفتخرون بأحسابهم وأنسابهم، يقعون موردًا للذمِّ في النصوص الدينية. إنَّ الغاية العامة للإسلام — من وجهة نظر طه حسين — هي إقامة أمةٍ واحدةٍ تحت شعار الإيمان بالله ﷻ والرسول ﷺ. إنَّ القيمة الاجتماعية للإسلام — من هذه الناحية — تكمن في تعزيز وتقوية الشعور الوطني المشترك. كما يجب على النظام التعليمي أن يعمل على ترسيخ هذا الشعور المشترك، وأن يعمل على توسيع المباني والأسس الوطنية.

وعلى هذا الأساس فإنّ اتحاد الأُمّة الإسلامية لا يمكن له أن يتحقق إلّا في ظلّ التمسك بالقرآن الكريم. إنّ العرب إذا أرادوا استعادة الاتحاد الذي كانوا عليه في الماضي، وقيموا حياتهم على أساسها كما في السابق، فليس أمامهم من طريق سوى الاتحاد على أساس القرآن الكريم. ويذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ دعوة القرآن للناس في قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^١ أمرٌ يفوق الزمان والمكان، حيث يجب امتثال هذا الأمر والعمل به على جميع المسلمين ولا سيّما العرب منهم^٢. إنّ الوصول إلى هذا الهدف لا يمكن إلّا بالاستناد إلى الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء. وذلك لو أشرف الفهم العام على هذه المصادر، وخرج عن حصره في النخب وانتقل إلى الثقافة العامة^٣. وقد عمد طه حسين لاحقاً إلى نقض كلامه هذا في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) من خلال تأكيده على النزعة الوطنية.

كما يؤكّد طه حسين على احترام القانون أيضاً. فقد توّصل في مقالته (بين الأدب والسياسة جد وهزل) بعد وصف الحالة الاجتماعية لمصر، إلى نتيجة مفادها أنّ أخلاق المصريين لا يمكن أن تنصلح إلّا إذا نال المذنب جزاءه. وإنّ حياة المصريين لا تنصلح إلّا إذا عدّ المجرم مسؤولاً عن أفعاله الإجرامية، وإنّ مصر لن تصل إلى المكانة التي تراها لنفسها إلّا إذا علم الأجانب واطمأنوا إلى أنّ المدارس الصناعية والزراعية لم يتمّ تأسيسها من أجل إصلاح الأمور الشخصية للوزراء وضمان

١. آل عمران: ١٠٣.

٢. طه حسين، مرآة الإسلام، ١٦٢.

٣. م. ن، ٣١٩.

احتياجاتهم إلى صنوف ألوان الطعام. إنّ أحوال مصر لن تتصلح إلا إذا كفّ وزير الثقافة ونظراؤه عن الاستهثار الشخصي في المدارس^١.

إصلاح التعامل بين الدولة والثقافة

يعمل طه حسين على تشجيع الدولة من أجل السعي إلى الحفاظ على الاستقلال الخارجي وتحقيق الديمقراطية في الداخل؛ وذلك لأنّ سعي الأفراد والجماعات الخاصّة في هذا الشأن بمفردهم لن يكون كافيًا، ويجب على الدولة أن تكون في الواجهة. إذا كان من بين مهام الدولة ضمان الاستقلال الخارجي والحفاظ على البلاد، فإنّ من أهمّ الأدوات في تحقيق ذلك تعليم الأطفال والشباب حبّ الوطن. وهذه ليست بالمهمة التي يمكن أن يضطلع بها الأفراد والجماعات والمدارس الأجنبية. ولكنه لا يوافق على إغلاق المدارس الأجنبية؛ وذلك لأنّها تتفوق على المدارس المصرية في كثيرٍ من الأمور، بيد أنّ المراكز التعليمية لا ينبغي أن تغرس حبّ الأوطان في قلوب الشباب، بل يجب على الشباب أن يذوبوا حبًّا بالوطن والديمقراطية داخليًا.

إنّ من حقّ الدولة أن تفرض على المدارس الأجنبية أن تدخل في منهجها التعليمي تعليم اللغة العربية، والتاريخي الوطني لمصر، والجغرافية المصرية، والدين الإسلامي على نحوٍ جاد. يجب أن يكون الدين أساسًا وركيزة للتعليم، وأنّ قول بعضهم بأنّ المدارس يجب أن تقتصر على التعاليم المدنية، وتترك تعليم الدين للأسر، ليس صحيحًا. بل حتى المدارس الأجنبية يجب أن تجعل تعليم الدين ركيزةً وأساسًا

١. طه حسين، بين بين، ٥ - ١٨.

للتعليم فيها. وعلى الأجنب أن يعلموا أن تأسيس المدارس الخارجية على أرض بلدٍ آخر، يخالف السيادة الوطنية لذلك البلد، ولذلك يتعيّن عليهم معرفة أن من بين مهامهم إزالة المخاوف الوطنية. ويجب على الدولة أن تشرف على أعمال جميع المدارس، ولا سيّما منها المدارس الأجنبية، إشرافاً كاملاً^١.

التنسيق بين المراكز التعليمية

يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بأنّ الاهتمام بالتعليم يجب أن يكون على مستوى تعليم الوسائل الدفاعية المناسبة من أجل حماية الوطن، وأن ترك ذلك يعدّ معصيةً بالمقدار نفسه أيضاً. وهو يرى أنّ وجود المراكز التعليمية المتعدّدة وغير المتناغمة يشكّل عقبةً ومانعاً يحول دون التقدّم، وعلى هذا الأساس يجب أن تنشط جميع المراكز التعليمية تحت إشرافٍ نظامٍ واحدٍ ومنسجم.

إنّه لا يطالب بإغلاق المدارس الأجنبية ولا يطالب بنشاطٍ موحّدٍ في جميع المدارس وضمن إطارٍ واحد. بل إنّه يطالب بالتوافق والانسجام في تلك المجموعة من المواد الدراسية التي تضمن الحفاظ على الهوية الوطنية وعلى الاستقلال الوطني، وأن تعدّ الأشخاص من أجل تحقيق الديمقراطية. وإنّ الدين واحدٌ من أركان الهوية الوطنية لمصر. عندما كانت جميع البلدان الإسلامية تعجز عن الدفاع عن الدين، كانت مصر تمثّل حصن الإسلام. وعلى هذا الأساس يجب أن يتمّ الاهتمام بتعليم الدين في المدارس بشكلٍ جاد. ولكن يجب على التعليم في الأزهر الشريف أن يتهاهى مع هذه المسائل ويستجيب للاحتياجات الوطنية أيضاً. وعلى هذا الأساس

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٥٩-٦٩.

من الضروري أن تبسط الدولة إشرافها على التعليم في الأزهر الشريف والمؤسسات التابعة له أيضاً.

لما كان الأزهر يحتوي على مرحلة تعليمية ابتدائية، ومرحلة تعليمية متوسطة، يتعين على الدولة أن تطمئن — من خلال الإشراف والرقابة الدقيقة والمستمرة — بأن جميع المصريين يتم تعليمهم وتربيتهم على معرفة الوطن وحبّه، وأن يكونوا على استعداد للتضحية بأنفسهم من أجله. وإنّ الرقابة الراهنة من قبل الدولة على الأزهر الشريف صورية. إنّ طه حسين لا يريد التقليل من حقوق الأزهر الشريف، ولكنه يرى أنّ البنية الراهنة له وقوانينه لا تتناسب مع الأوضاع الراهنة للبلاد، ويجب أن يتمّ العمل على إصلاحها. ربما يظنّ بعضهم أنّ هذا الإشراف وهذه الرقابة تتنافى مع استقلال الأزهر الشريف. بيد أنّ التعليم العام في المراحل الابتدائية والمتوسطة يحتاج إلى رقابة الدولة ووزارة التعليم، ولا معنى لاستقلال المؤسسات التعليمية على هذا المستوى. بل يمكن للأزهر الشريف أن يحافظ على استقلاله في التعليم العالي، وهكذا الأمر بالنسبة إلى سائر الجامعات.

إنّ استقلال المراكز العلمية يجب ألاّ يتنافى مع حقل الأمور الإدارية والمالية وحدود اختيار الوزارات والبرلمان. إنّ الأزهر الشريف يجسّد العهد القديم والتفكير العتيق أكثر من تمثيل العصر الجديد والتفكير الحديث. إنّ هذا التفكير جعل فهم الحالة الوطنية والجنوح نحوها بالنسبة إلى الشباب أمراً معقداً. إنّ شيخ الأزهر يؤكد على قبلة واحدة، ويرى طه حسين أنّ هذا التفكير لا يتنافى مع النزعة الوطنية وحبّ الوطن الذي جاء به الغرب إلى مصر، بيد أنّ التعليم في الأزهر يجب

أن يعمل على إشاعة حبّ الوطن ونشره، وتفهمه وشرحه للناس^١.

توسيع دائرة التعليم الابتدائي

إنّ التعليم الابتدائي – الذي يجب على الدولة أن توفر أرضيته ليتمّ فرضه على الجميع – هو الركن الأساس للديمقراطية. إنّ الديمقراطية يجب أن توفر الظروف والسُّبُل للحياة الاجتماعية بحيث توفر الأرضية للتنمية والازدهار والعبور من مختلف مراحل الحياة والانتقال إلى المراحل الأسمى والأعلى. لا ينبغي أن نتوقع من الديمقراطية أن توفر للناس سُبُل السعادة واللذة، بل إنّ وظيفة الديمقراطية هي القضاء على العقبات التي تحول دون سعي الناس إلى تحقيق آمالهم وتطلعاتهم، والقضاء على الظلم والجور والاستبداد، وتمكّن الأشخاص من فهم ما يجري في بيئتهم الطبيعية، وحالتهم الوطنية والاجتماعية، كي يتمكنوا من التأقلم مع بيئتهم وظروفهم الخاصة.

إنّ من بين أفضل مهام الدولة – الذي ورد ذكره في الدستور أيضًا – هو العمل على نشر دائرة التعليم الابتدائي وتوسيعها. إنّ الحرية لا تنسجم مع الجهل والحماقة، وإنّ بناء الحرية يقوم على أساس التربية التي تخلق لدى الفرد شعورًا بالحقّ والتكليف، وتعلمه احترام حقوق الآخرين. لا معنى للسلام الداخلي والخارجي من دون الحرية، ويمكن للديمقراطية أن تعمل على ضمان ذلك من طريق التعليم. ولكن ما هو هذا التعليم الذي يمكن للدولة أن تصل من خلاله إلى تحقيق الأهداف الثلاثة المذكورة، وهي: الحصول على حقّ الحياة، وخلق الأتّحاد الوطني والحفاظ

على الاستقلال، والحرية، وتوفير الأمن على يد الدولة، وديمومة المجتمع من طريق نقل هذا التراث إلى الأجيال اللاحقة من طريق الدولة.

إنّ أدنى ما يمكن للتعليم أن يقوم به هو أن يمكّن الفرد من معرفة ذاته وبيئته الطبيعية والاجتماعية وتنظيم حاجته على ما تقتضيه بيئته ومحيطه. وتعلّمه القراءة والكتابة والحساب والارتباط مع الآخرين، وبذلك فإنّه سوف يدرك ذاته بوصفه فرداً وعضواً في المجتمع الذي كان موجوداً قبل ذلك وسوف يبقى موجوداً بعد ذلك أيضاً. وأن يكون تصوّراً عن الوضع الراهن للأنظمة الاجتماعية ومستقبلها، ويتفاعل بالمستقبل. في هذه الحالة فقط يتمكن الفرد من التعرّف على مجتمعه وعلى تاريخه وإمكاناته الحضارية وعلى تراثه ولغته، ويحفظ حدوده ولا يتجاوز هذه الحدود، ويتمكن من الحفاظ على هويته. والمهمة الأخرى هي التعليم والتربية البدنية وضمان السلامة الجسدية والنفسية للأفراد بالإضافة إلى السلامة العقلية. قد يتمّ في بعض البلدان إيكال هذه المهام إلى الأسر، بيد أنّ الأسر المصرية حالياً ليست في الوضع الذي يمكّنها من الاضطلاع بهذه الأمور؛ ولذلك يجب على الدولة أن تواصل إنجاز هذه الأمور بجديّة^١.

ومن ناحية أخرى فإنّ اكتفاء الدولة بالتعليم الابتدائي خطأً فاحشاً. إنّ الأشخاص بعد إتمام دراستهم الابتدائية ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، وهي: مواصلة التعليم العام، أو ينتقلون إلى الورشات الصناعية ليتعلموا حرفة وصنعة، أو يستعجلون الحياة فيواصلون العمل بحرف آبائهم أو أقاربهم. وفيما يتعلّق بالفئة الثانية يكتفي طه

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٧١-٧٥.

حسين بهذه النقطة، وهي أنه يجب على الدولة أن تضيف الأبحاث الخاصة بالثقافة إلى التعليمات الفنية؛ وذلك لأنّ الأفراد لا يعملون بأيديهم فقط، وإنّما يعملون بقلوبهم وأذهانهم وعقولهم أيضًا، ويجب القضاء على جهلهم من خلال تعليمهم. كما يجب على الدولة أن تخطط للفترة الثالثة أيضًا. إنّ أيّ تقصيرٍ من قبل الدولة في هذا الشأن سوف يؤدّي إلى حدوث الشرخ والامتعاض والانحراف والثورة^١.

تأسيس معاهد إعداد المعلمين

إنّ طه حسين — من خلال تعرّفه على آفات المعلمين ونقاط ضعفهم ودورهم في التعليم — يؤكّد على تأسيس المعاهد الحكومية لإعداد المعلمين، والإشراف التام والشامل عليها من قبل الدولة. وهو يرى أنّ التعليم الابتدائي أهمّ من مجرد تعلّم القراءة والكتابة. في المرحلة الابتدائية بالإضافة إلى المنهج الدراسي الصحيح، فإنّ المعلّم الناجح بدوره يحظى بأهمية كبيرة أيضًا.

إنّ المعلّم في المرحلة الابتدائية مسؤولٌ تجاه الدولة كما هو مسؤول تجاه الشعب أيضًا. فإنّ الشعب يرسل أبناءه إلى المدارس الابتدائية من أجل تحقيق الازدهار والسلامة، والدولة بدورها تضعهم تحت تصرّف المعلمين لكي يصبحوا مواطنين صالحين. وإنّ المعلّم بدوره في قبال هذه الأمانة والمهمّة الخطيرة يتوقع من الدولة ثلاثة أمور، الأمر الأول: إنّ على الدولة أن تعدّ المعلم بحيث يتمكّن من الاضطلاع بهذه المهمة بشكل ناجح، في حين أنّ المعلمين يتمّ إعدادهم في مدارس لا ترقى إلى مستوى طموح الدولة. إنّ معاهد إعداد المعلمين يجب أن تكون من الناحية المادية

والأخلاقية على أفضل حال. على الدولة أن تنظر إلى معاهد إعداد المعلمين بجديّة، وأن تعدّ الأفراد الصالحين للقيام بهذه المهمّة^١.

يرى طه حسين أنّ المعلمين إذا كانوا من الطبقات الفقيرة وتربّوا على المهانة والإذعان، كيف يمكنهم العمل على تربية طلاب يتحلّون بالعزة والشعور بالفخر والشغف والحرية ولاستقلال.

وبالإضافة إلى ذلك يجب على المعلم أن يحصل على معلومات كافية بشأن الأمور التي يريد أن يعلّمها للتلاميذ من قبيل التاريخ والجغرافيا واللغة والدين. وإذا لم يتمّ الاهتمام بهذه الموارد وتم الاكتفاء بمحو الأمية (والاكتفاء بمجرد تعلّم القراءة والكتابة)، فإنّ هؤلاء الطلاب سوف يعانون من ضعف الذهن وفساد العقيدة والفكر المشوّه، وسوف يعجزون عن إدراك الأمور والحكم بشأنها، ويكونون مرتعّاً للتأثر بكلّ شيء. الأمر الثالث أنّ معلم الابتدائية يجب أن يحصل على راتبٍ مجزٍ، هذا في حين أنّ الوضع المالي والاقتصادي لشريحة المعلمين عندنا لا يليق بهم. إنّ على الدولة أن تهتم بهذه المسألة لتزرع الرضا والأمل لدى المعلم، وأن تعمل على تغيير نظرة الناس إلى المعلم. إن الناس والتلاميذ بدلاً من النظر إلى المعلم بنظرة مهينة أو مشفقة، عليهم أن ينظروا إليهم بإجلالٍ وإكبارٍ واعتزاز، وأن ينظروا إلى مقام المعلّم بوصفه مقاماً يدعو إلى العزة والاستقلال والحرية. وأمّا حالياً فإنّ المعلمين عندنا يعيشون في أسوأ حال^٢.

١. م. ن، ٨٩-٩٠.

٢. م. ن، ٧٧-٨١.

الاستثمار الهادف في حقل التعليم

إنّ التعليم الابتدائي ينطوي على تكلفةٍ ماديةٍ عالية، ولكن لا بدّ من الالتفات إلى عدم إنفاق الأموال على مجرّد الأبنية الفخمة والأجهزة المتطورة. يكفي مجرّد رعاية شروط الصحة والسلامة والاكتفاء بالمستوى المتوسّط من المعدات والأثاث. وعلاوة على التكلفة المادية للوضع الراهن، فإنّ الشرخ القائم بين المدرسة والأسرة، يشكّل خطرًا على الأخلاق وعلى النظام. عندما يذهب الطالب من الطبقة المتوسطة والسفلى من المجتمع إلى المدرسة ويرى البذخ هناك ثم يعود إلى بيته الفقير والمتواضع، سوف يصيبه الإحباط من حياته وما اعتاد عليه. ويحرص من أجل الحصول على ما شاهده، ولكنّه حيث لا يستطيع تحقيق ذلك فإنّ الامتناع وعدم الرضا والغضب سوف يجعل منه عنصرًا خطيرًا ومتمرّدًا.

وعليه فإنّ وزارة التربية والتعليم بدلًا من بناء المدارس الفخمة والراقية، يجب أن تقتصر على بناء المدارس المتوسطة والمتناسبة مع حياة الناس في المدن والقرى والأرياف في عموم البلاد. والآن حيث نعيش بداية مرحلةٍ جديدةٍ، فهذا هو الزمان الأفضل لإعادة النظر في الأمور الخاصّة بالتعليم الابتدائي^١.

تأسيس الشورى التعليميّة

يذهب طه حسين إلى الاعتقاد بإدارة الشورى التي يكون للمعلّمين فيها من يمثلهم. وهذه الطريقة يشعر المعلمون بأنّ الأمور تدار بأيديهم، وأتّهم يحدّدون الخاطئين ويعملون على معاقبتهم، وأتّهم يمارسون دورًا رقائبيًا على أعمالهم، وسوف

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٨٣ - ٨٤.

يشعرون لذلك بالعزّة والكرامة والمسؤولية. وأمّا الإصلاح اللاحق فيقع على عاتق الدولة ودورها الرقابي على وزارة التربية والتعليم، ولكن طه حسين بدوره لا يرى مصطلح السيطرة مناسباً، ويقترح بدلاً من ذلك مصطلح الإدارة. وإن هذا الدور الرقابي يجب أن يكون من خلال الشورى، وأن يتمّ بتمثيل من المعلمين وسائر الأقسام الأخرى. وإنّ أوّل شيءٍ يجب الالتفات إليه في رسم السياسات في حقل التعليم هو الربط بين التعليم في المرحلة المتوسطة والجامعات. ولكن حيث إنّ التعليم في المرحلة المتوسطة تسبق الدراسة الجامعية في مصر، وقد تأسست قوانينها بشكلٍ مستقل، فقد تمّ رصد شهادةٍ تعليميةٍ مستقلةٍ لها دون الالتفات إلى هذه الصلة والعلاقة.

ومن الضروري العمل على برمجةٍ واحدةٍ يشارك فيها الممثلون في التعليم على مستوى المرحلة المتوسطة والجامعة والوزارة. إنّ المتخرّجين من المرحلة المتوسطة لا يمتلكون الاستعداد اللازم للدخول إلى الجامعة، وهذا الأمر في حدّ ذاته قد أدّى ببعض الجامعات إلى القيام باختبار يؤهّل الناجحين فيه للدخول إلى الجامعة، أو أن تعمل على فتح دوراتٍ تمهيديةٍ لدخول الطلاب إلى الجامعة، وقد انطوت هذه الإجراءات كلّها على بعض المشكلات^١.

إشراف الدولة على التعليم العام

يرى طه حسين أنّ التعليم العام حقٌّ للجميع، ولكن لا يمكن للجميع الحصول على هذا الحقّ بسبب الجبلة الطبيعية وليس بسبب الفقر والانتفاء إلى الطبقة

الاجتماعية. وعلى هذا الأساس يحقّ للدولة أن تمارس الدور الرقابي على البنية وعلى ذهن وروح الطلاب، وإبلاغ أسر الطلاب بنتائج ذلك، ومشاركة الأسر في تربية أبنائهم. إنَّ المعلم بوصفه واسطة بين الناس والدولة، يحدّد التلاميذ الأكفاء، ويعمل على التخطيط لتطويرهم^١.

إنَّ اكتظاظ المدارس تجعل من عملية الإشراف على الطلاب ومراقبتهم عمليةً صعبةً ومعقّدة. كما أن ازدحام المدارس الابتدائية تعقّد الأمر على المدارس المتوسطة أيضًا حيث لا تتسع لاحتواء الطلاب القادمين إليها من المرحلة الابتدائية، وازدحام المدارس المتوسطة يصعب الأمر على التعليم العالي. وأنا بدوري أعترض على تحديد التعليم وفي الوقت نفسه أعترض على فتح باب المدارس الحكومية على مصراعيه أمام جميع المصريين. ولكن من ناحيةٍ أخرى يجب أن يكون التعليم جيدًا ومصالحًا ومثمرًا ومنتجًا. يجب تأسيس المدارس الجديدة ولكن قد لا تكون الدولة قادرةً على ذلك بسبب تحمّل النفقات الدفاعية وما إلى ذلك. بيد أن التعليم ليس أمرًا كاليًا بل هو حاجة أساسية. وعليه لا ينبغي تهيمش التعليم العام من خلال التدرّج بهذه الحجج. إنَّ الدولة مكلفٌ بتوفير وتحمّل نفقات هذه المهمة أيضًا. بيد أن نظامنا الضريبي بدوره يختلف عن الدول المتقدّمة ونحتاج إلى إصلاحاتٍ اجتماعيةٍ في هذا الشأن. إنَّ على الذين يدفعون الضرائب أن يدركوا أن دفع الضرائب يعمل على إصلاح النظام الاجتماعي، ويدفع بالبلاد نحو التنمية والازدهار^٢.

كما يلتفت طه حسين إلى موضوع التربية البدنية وسلامة الطلاب أيضًا، ولكنّه

١. م. ن، ١٠٧-١٠٨.

٢. م. ن، ١٠٩-١١٤.

يلتفت أيضًا إلى هذا الأمر المهم أيضًا، وهو عدم إهدار وقت الطلاب في اللهو واللعب بحجة السلامة الجسدية. بيد أن جميع هذه الإصلاحات لا يمكن أن تتحقق من دون تعليم المعلمين، وعلى الرغم من أن تعليم المعلمين يستغرق وقتًا طويلًا، ولكنه أمرٌ ضروريٌ ويجب القيام به.

كما يذكر طه حسين بعض المطالب في مورد تعليم أتباع الأقليات الدينية مثل المسيحيين والأقباط أيضًا، فهو يرى أنه يحقّ لهم الحصول على تعليم يناسبهم، وأنّ المهم في هذا الشأن من وجهة نظره إنّما هو الاتحاد الوطني. إنّ المهمّ من وجهة نظر طه حسين هو أنّ الأزهر الشريف يمثّل مصدرًا للثقافة في العالم الإسلامي، ويجب أن يلبي الحاجات اليومية للثقافة الإسلامية. كما أنّ الكنيسة القبطية تمثّل مصدرًا ثقافيًا للمسيحيين في سائر البلدان، ويجب عليها أن تلبّي حاجاتهم أيضًا.

ولذلك يجب عليها أن تعمل على إصلاح نظامها التعليمي. ولكنهم متساهلون في تعليمهم الديني، ولا سيّما أنّهم لا يستخدمون اللغة العربية في تجمعاتهم الدينية وقراءة أدعيتهم وصلواتهم بشكلٍ صحيح. إنّ الأقباط مصريون ويجب عليهم إتقان اللغة الرسمية المصرية وهي اللغة العربية، وعلى علمائهم ورجال دينهم أن يعلّموا طلابهم اللغة العربية. إنّ على الأقباط بوصفهم مواطنين مصريين أن يتعرّفوا على العالم وعلى مجتمعهم بشكلٍ صحيح، وأن يحصلوا على تعلّياتٍ في هذا الشأن أسوةً بسائر المصريين^١.

يرى طه حسين أنّ الصحافة والإذاعة والسينما، وسائل إعلاميةٌ جديدةٌ تلعب دورًا ملحوظًا في التقدّم الثقافي. لا سيّما أنّ المصريين ليسوا بأجمعهم قادرين على

١. طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ٢٨١ - ٢٨٣.

القراءة والكتابة كما هو حال الأوروبيين. بيد أن الوسائل أولاً: يجب ألا تكون حرّة بشكلٍ كامل، ويجب أن تخضع لرقابة بعض اللجان في إطار التعليم. وثانياً: لا بدّ من الالتفات إلى أن السينما تختلف بشكلٍ ملحوظٍ عن الصحف والإذاعة؛ وذلك لأنّ مضمونها مختلف تماماً ويصل إلينا من الخارج. وعلى هذا الأساس فإنّ السينما — من وجهة نظره — فنٌّ عالٍ، ولكنه يحتاج إلى عمليّة رقابية^١.

خلاصة ونقد

لقد تمّ في هذه المقالة بيان نقاط قوّة وضعف نظرية وأسس طه حسين. ومن هنا سوف نشير فيما يلي إلى بعض الإشكالات الأخرى. إنّ تأكيد طه حسين على الوعي التاريخي إنّما يعود سببه إلى تذكير المصريين بأنّهم كانوا على الدوام من الغربيين، وعليهم الآن ألاّ يتموضعوا في مواجهة الغرب، ويربطوا أنفسهم بالإعلام الإسلامي. وبغض النظر عن صدق أو كذب هذا الظنّ من طه حسين، فإنّ السؤال الجوهري هنا يقول: هل سيتمكن المصريون — من خلال الالتحاق بالغرب وتسمية أنفسهم غربيين وتبعتهم للنماذج الغربية — من تحقيق التنمية والازدهار؟ وبطبيعة الحال فإنّ طه حسين إنّما قال هذا الكلام حيث لم تحدث تجربة بلدان أمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية وتركيا.

إنّ التجربة المشتركة لجميع هذه البلدان تثبت أنّها كلّما ارتبطت بالغرب وأقامت علاقات معه واتبعت طرائقه، تعرّضت للمزيد من التخلف والتخبّط في وحلّ الفشل. كما تجمع النظريات التنموية في مدرسة إيكالا^٢ على هذا المدعى القائل بأنّ

١. م. ن، ٣٠٣-٣٠٥.

٢. مدرسة إيكالا (ECLA) اختصاراً لعبارة (Economic Commission for Latin America)، تعني

البلدان حيثما قطعت صلتها بالغرب وتخلّت عن التبعية للنماذج التنموية الغربية، حققت تقدماً أكبر. وبطبيعة الحال فإن لتركيا تجربةً مختلفةً أيضاً؛ إذ إن الغرب المعروف بالاتحاد الأوروبي لم يتقبل عضويتها في هذا الاتحاد أصلاً، وبعد سنواتٍ من الانتظار خلف الأبواب الأوروبية لم تحصل تركيا على أيّ دعمٍ غربيٍّ أبداً.

إنّ تقبّل العلم الغربي دون الالتفات إلى الانتقادات التي أوردتها حتى الغربيون أنفسهم عليه، وعدم الالتفات إلى نقاط ضعف الثقافة والحضارة الغربية، يمثل إشكالاً مبنائياً يرد على المفكرين في المرحلة الأولى من المواجهة مع الغرب. الأمر الذي أثار إشكالاتٍ وانتقاداتٍ كثيرةً أخرى أيضاً. إنّ الرؤية العلمانية إلى العلم، والنهي عن القول بمصدرية الدين والنصوص الدينية في فهم وإدارة وتنظيم أمور المجتمع، قد أثّرت في تحليلاته التاريخية، وأدّت إلى موضعة الظواهر التاريخية وأفكار الآخرين، وأخذت تقدّم من زاوية الاتجاه الحديث تفسيراتٍ متفاوتةً عن الواقعة. إنّ من خلال إبداع الحسن يسعى إلى فهم مجتمعه المعاصر وآفاته من طريق التحليلات التاريخية، ولكنه لما تنكّب الطريق في تحليلاته التاريخية، ونظر إلى الماضي من منظور الوقت الحاضر، فإنّه لم يتمكّن من الوصول إلى نتائج مقبولةٍ لإصلاح الوضع الراهن.

إنّ طه حسين في دراسته وبحثه لأسباب التخلف قد تعرّض لنوعٍ من النزعة التقليلية، وعدّ عنصر الانحطاط السياسي أهمّ ممّا هو عليه في الواقع. إنّ تقليل أسباب التخلف وحصرها بالعنصر السياسي، بمنزلة تجاهل الأسباب الأخرى من قبيل الأسباب الخارجية. إنّ طه حسين يتجاهل نهج الغرب لثروات المجتمعات

(المدرسة البنيوية للتنمية): وهي مدرسة فكرية في الحقل الاقتصادي تعنى بنقد الآراء الحداثوية. (المعرب).

الإسلامية وبها فيها مصر، ويتجاهل المرحلة الذهبية من الحضارة الإسلامية قبل المواجهة مع الغرب. كما أنه لا يهتم بمنشأ تحوّل الغرب وتقدّمه المادي، لا سيّما استفادة الغرب من الثقافة والحضارة الإسلامية. ولو أنه قد التفت على سبيل المثال إلى مجرّد فتح الأندلس من قبل المسيحيين، والأسباب التي دعت روجر الأول والثاني إلى الميل إلى المسلمين ولم يكونا — خلافاً لضغوط الكنيسة — قادرين على إخراج المسلمين، لأمكنه أن يدقق في أجزاء من التاريخ التي تجاهلها. إنّ السبب الذي دعا حكّام الأندلس وجزر سيشيل إلى مقاومة ضغوط الكنيسة وعدم إخراج المسلمين، هو أنه لن تكون هناك حضارة من دون المسلمين ومدخراتهم العلمية.

إنّ طه حسين يعمل على تحويل أفكار الآخرين من الزاوية الحديثة إلى موضوع ويخضعها للتحليل والنقد. في حين يجب فهم ونقد كلّ فكرة في إطارها المعرفي وغير المعرفي. من ذلك أنه — على سبيل المثال — ينسب سيادة العلية والشرعية على الظواهر التاريخية إلى ابن خلدون، دون أن يلتفت إلى أنّ أدبيات ابن خلدون تقوم على أساس الكلام الأشعري، والعلية من وجهة نظره تختلف عن العلية التي يتمّ الاهتمام بها من قبل علماء الاجتماع الغربيين. إنّ العلية من وجهة نظره تعود إلى العادة الإلهية، وهي في الواقع ليست عليّة لكي يتمّ نقضها من خلال القبول بالعوامل والأسباب الغيبية.

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي إنّ طه حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي)، قد عمل على توجيه دقّة الأدب العربي إلى طريقٍ آخر، وهو الطريق الذي تاهت فيه الأدبيات الألمانية، وألبسه طيلساناً فرنسيّاً، في حين أنّ الأدبيات بخلاف العلم ليس

لها وطنٌ ولا تعرف قومية، فهي تخرج من صلب وروح الأمة ولا تقبل التقليد^١. الإشكال الآخر هو أنّ المفكرين الذين درسوا في الغرب عادةً وكانوا على دراية باللغات الأجنبية، قد أخذوا كثيرًا من المسائل والموضوعات عن المفكرين الغربيين، وأخذوا ينشرونها في أنديةهم الجامعية دون ذكر أسماء أصحابها الأصليين. ولكنّ هذا التدليس يتّضح بعد فترة، ويتمّ اتهام الخاطيء بالسرقة العلمية. من ذلك — على سبيل المثال — أنّ أنور الجندي ينقل عن الآخرين أنّ النظرية العامة لطف حسين في كتابه (في الشعر الجاهلي) وفي كتابه الآخر (في الأدب الجاهلي)، قد سرقها بالكامل من المستشرق اليهودي مار جليوث، والتي نشرها سنة ١٩٢٥ م تحت عنوان (نشأة الشعر العربي). وشكك فيه في صحة الشعر الجاهلي، وقال بأنّ الشعر الجاهلي ما هو في الحقيقة سوى شعرٍ إسلاميٍّ نسبة المسلمون إلى العصر الجاهلي^٢.

١. الجندي، محاكمة فكر طه حسين، ١٣٩.

٢. م. ن، ١٣٧.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. آشوري، داريوش، تعريفها ومفهوم فرهنگ، طهران، مركز أسناد فرهنگي آسيا، ١٣٥٧ هـ.ش.
٣. آقا بخشي، علي، فرهنگ علوم سياسي، طهران، نشر چاپار، ١٣٨٢ هـ.ش.
٤. أكسفورد، باري، نظام جهاني: اقتصاد سياست و فرهنگ، ترجمه إلى اللغة الفارسية: حميرامشيرزاده، طهران، مركز چاپ وانتشارات وزارت امور خارجه، ١٣٧٨ هـ.ش.
٥. إلهي، همايون، إمبرياليسم وعقب ماندگي، طهران، نشر قومس، ١٣٨٠ هـ.ش.
٦. آيتي، عبدالمحمد، «مقدمة»، في: طه حسين، دو پيشوا: شيخين، ترجمه إلى اللغة الفارسية: عبدالمحمد آيتي، طهران: سروش، ١٣٦٩ هـ.ش.
٧. پارسانيا، حميد، «نظريه و فرهنگ»، ضمن: بومي سازي جامعه شناسي (سلسلة مقالات)، باهتمام محمد توكل، طهران، پژوهشكده مطالعات فرهنگي واجتماعي، ١٣٨٩ هـ.ش.
٨. _____، «نسبت علم و فرهنگ»، راهبرد فرهنگ، دورة ١، عدد ٢ (صيف ١٣٨٧ هـ.ش)، الصفحات ٥١-٦٤.
٩. _____، أنواع وأدوار روشنفكري با نگاه به روشنفكري حوزوي، قم، انتشارات كتاب فردا، ١٣٩١ هـ.ش.
١٠. _____، سنت، ايدئولوژي، علم، قم، بوستان كتاب، ١٣٨٥ هـ.ش.

- ١١ . تامپسون، جان بی، رسانه‌ها ومدرنیتته: نظریه اجتهادی رسانه‌ها. ترجمه الى اللغة الفارسية: مسعود اوحدی، طهران، سروش، ١٣٨٥ هـ.ش.
- ١٢ . توکل، محمد، جامعه‌شناسی علم، طهران: سمت، ١٣٨٣ هـ.ش.
- ١٣ . الجابري، محمد عابد، «عابد الجابري وعقلانیت انتقادي در تهاافت بر فلسفه مشرق»، في: محمد رضا وصفي، نو معتزليان، طهران، انتشارات نگاه معاصر، ١٣٨٧ هـ.ش.
- ١٤ . الجندي، أنور، طه حسين: حياته وفكره في ميزان الإسلام، القاهرة: دار الرسالة، ١٩٧٥ م.
- ١٥ . _____، محاكمة فكر طه حسين، الناشر: دار الاعتصام، ١٩٧٧ م.
- ١٦ . حنفي، حسن، هوم الفكر والوطن، القاهرة، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٨ م.
- ١٧ . خديو جم، حسين، «مقدمة»، في: طه حسين، آن روزها، ترجمه الى اللغة الفارسية: حسين خديو جم، طهران: سروش، ١٣٥٨ هـ.ش.
- ١٨ . خيرى، شليبي، محاكمة طه حسين، مصر / فجاله، دار نشر المستقبل، [د.ت.].
- ١٩ . رابرتسون، يان، درآمدى بر جامعه، ترجمه الى اللغة الفارسية: حسين بهروان، مشهد، آستان قدس رضوى، ١٣٧٤ هـ.ش.
- ٢٠ . سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، ط ٦، ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م.
- ٢١ . طه حسين، الأيام، القاهرة، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، ٢٠١٢ م.
- ٢٢ . _____، الفتنة الكبرى، مؤسسة هنداوي، ٢٠٠٧ م.
- ٢٣ . _____، آن روزها، ترجمه الى اللغة الفارسية: حسين خديو جم، طهران: سروش، ١٣٥٨ هـ.ش.
- ٢٤ . _____، بين يين، بيروت / لبنان، دار العلم للملايين، ط ١٤، ١٩٨٨ م.
- ٢٥ . _____، تقليد وتجديد، بيروت / لبنان، دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٨٤ م.
- ٢٦ . _____، على هامش السيرة، القاهرة، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، ٢٠١٣ م.

الفصل الرابع: فكر طه حسين ❖ ٢٣٩

٢٧. _____، في الشعر الجاهلي، القاهرة، دار الهلال، ١٩٢٦ م.
٢٨. _____، قادة الفكر، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٩ م.
٢٩. _____، مرآة الإسلام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٩ م.
٣٠. _____، مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢ م.
٣١. _____، مع أبي العلاء في سجنه، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢ م.
٣٢. علي بابائي، غلام رضا، فرهنگ علوم سياسي، طهران، نشر ويس، ١٣٦٥ هـ.ش.
٣٣. عليزاده، عبدالرضا وآخرون، جامعه شناسي معرفت جستاري در تبين رابطه ساخت وكنش اجتماعي و معرفت هاي بشري، قم، ناشر: پژوهشكده حوزه ودانشگاه، ١٣٩١ هـ.ش.
٣٤. عنایت، حمید، اندیشه سياسي در اسلام معاصر، ترجمه إلى اللغة الفارسية: بهاء الدين خرمشاهي، طهران، انتشارات خوارزمي، ١٣٦٣ هـ.ش.
٣٥. _____، سيري در اندیشه سياسي عرب از حمله ناپلئون به مصر تا جنگ جهاني دوم، طهران، انتشارات امير كبير، ١٣٥٨ هـ.ش.
٣٦. عيد، عبد الرزاق، طه حسين العقل والدين بحث في مشكلة المنهج، حلب، مركز الإنماء الحضاري، ١٩٩٥ م.
٣٧. فريد، محمد، فرهنگ علوم سياسي، طهران، انتشارات آگاه، ١٣٥٦ هـ.ش.
٣٨. كُرَيْم، سامح، طه حسين فكر متجدد، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٤ م.
٣٩. گاژدان، ژرژ، تاريخ اجتماعي روسيه شوروي، ترجمه إلى اللغة الفارسية: على اصغر خبره زاده، طهران، انتشارات امير كبير، ١٣٥٢ هـ.ش.
٤٠. گيدنز، آنتوني، پيامدهای مدرنیت، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محسن ثلاثي، طهران، نشر مركز، ١٣٨٨ هـ.ش.

٢٤٠ ❖ طه حسين، دراسة النظريات ونقدها

٤١. مولكي، مايكل، علم وجامعه شناسي معرفت، ترجمه إلى اللغة الفارسية: حسين كچوئيان، طهران، نشر ني، ط٣، ١٣٨٩ هـ ش.
٤٢. هيكل، محمد حسين، الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٨ م.

هذا الكتاب، دراسة نقدية وتحليلية ترصد جدلية العلاقة بين الفكر والواقع، وتستقصي كيفية انعكاس الصراعات الحضارية الكبرى – بين الشرق والغرب، وبين التراث والحداثة – في كتابات طه حسين ومواقفه ولا يقتصر على عرض أفكاره ومؤلفاته، بل يتجاوز إلى الأسس المعرفية والأنطولوجية والإستمولوجية التي انطلق منها، والى فحص الخلفيات السياسية والاجتماعية والثقافية التي أسهمت في تشكيل وعيه.



المركز الاستراتيجي للدراسات الاستراتيجية

<http://www.iicss.iq>

info@iicss.iq